أسامة نزال

بين سراييفو و«عتصيون»

صور قلمية من قلب سجون الاحتلال

عمر نزال

تقديم: عيسى قراقع

تحرير وتدقيق لغوي: خالد سليم

الغلاف والرسوم الكاريكاتيرية: اسامه نزال

تصميم ومونتاج: الأمين للدعاية والتسويق

يصدر في فلسطين عن:
هيئة شؤون الأسرى والمحررين

يصدر في الوطن العربي عن:
دار فضاءات للنشر والتوزيع

حقوق الطبع©محفوظة للمؤلف
لا يجوز إعادة طباعة هذا الكتاب أو ترجمته أو نقل أجزاء منه بأي شكل من الأشكال إلا بإذن خطي مسبق.

الطبعة الأولى تشرين الثاني ٢٠١٧

الإهداء

إلى ذوي الجباه العالية، الذين عنهم كتبت لأنقل وجعهم، من خرج منهم ومن لا يزال في المكعبات الإسمنية.

إلى الذين يصغون لأنين هذا الوجع ويتألمون أكثر من الأسرى أنفسهم، ومنهم زوجتي وبناتي وكل أحبتي الأوفياء.

شكر

لكل من شاركني الليل في نسخ دفاتر وأوراق هذا العمل، وكل من ساهم في إخراج أجزائه من السجن.

إلى مارلين ومي اللتين حولتا الحبر من على ورق السجن إلى كتابة إلكترونية توطئة لتنقيحه وتحريره وطباعته.

إلى الذين أبدوا آراءهم وملاحظاتهم الجدية على مسودة العمل، وهو ما أغناه وصوّب بعض جوانبه.

الى الفنان رسام الكاريكاتور اسامه نزال الذي عكس العمل بإبداع في لوحة الغلاف والرسوم الداخلية.

إلى الشاعر والروائي جهاد أبو حشيش، ودار فضاءات للنشر والتوزيع، على تعاملهم مع الكتاب كعمل استثنائي.

إلى حامل الهم صبحاً وليلاً، رئيس هيئة شؤون الأسرى والمحررين عيسى قراقع، وطاقم الهيئة أجمعين.

الفهـــرس

11 **تقديم**

15 **ما يشبه المقدمة**

23 **الألبوم الأول** – بين سراييفو و «عتصيون»

101 **الألبوم الثاني** – الجوع إيمان وإرادة

121 **الألبوم الثالث** – لأني أعشق النهار

155 **الألبوم الرابع** – على عتبات الإفراج

تقـديــم

بعد عشرة ابواب عكس عقارب الساعة

هنا، بين يدي وأمام عيني، صور قلمية للكاتب الصحافي المناضل الأسير المحرر عمر نزال، أخذني معه إلى عالم السجن، إلى حياته اليومية البسيطة المتأججة في سجن «عوفر» العسكري. فتحنا معه عشرة أبواب ليستقر بنا الأمر هناك، وبدأنا الحياة المشتبكة بكل التفاصيل عكس عقارب الساعة. هو يلاحظ كل شيء، يكتب ويتألم ويوثق ويضحك ويبكي وينتظر، ينام ولا ينام، وجهاً لوجه مع السجان والإجراءات التعسفية، وجهاً لوجه مع الليل والنهار، يلتقيان ويمتزجان ويرحلان كما رحل القمر في طلته المختلسة من ذلك الشباك.

هذا هو السجن الإسرائيلي، يقول عمر نزال، ليس مجرد مكان يحشر فيه الأسرى فترة من الزمن، بل هو وسيلة عقاب مبرمجة مسنودة بفلسفة وسياسات مدروسة من قبل آلة الاحتلال التي تعتمد على رباعية: العزل والقهر والحرمان والضيق.

هذا هو السجن الذي يكشف الكاتب عن أعماقه عندما يسحق الإنسان الأسير إلى درجة حرمانه من أشيائه الصغيرة والعادية في حياته اليومية. يوضع في أمكنة لا تنتمي إليها روح الإنسان، ويجرد من كل شيء، حتى من اسمه، ويتحول إلى رقم، تتقلص الذكريات أو العلاقة بالزمن.

كدنا ننسى أننا آدميون، هكذا يقول الأسرى أمام الهجمة على

إنسانيتهم واضطهادهم والتدخل حتى في أحلامهم وتفكيرهم، ولكن هذا الأسير في لحظة معينة، تدبّ في خلاياه دماء الحياة، وتكون الصورة أجمل مما أراده السجان، ها هم يخوضون إضرابات المواجهة بجوعهم وإرادتهم ضد الظلم والعقوبات الإجرامية، ها هم يزرعون الفول في السجن ليكون الأخضر بدل اللون الداكن البشع، ها هم يسمعون صوت الغزال (الموبايل المُهرّب)، ويزورون أهاليهم عبر أثير موجات الراديو وشاشات التلفزة، ها هم يعجنون كعك العيد ويُسقطون علم إسرائيل عن سارية السجن، ها هم يصنعون العطر ويكتبون رسائل الحب والعشق إلى حبيباتهم، ويستدعون الحياة بكل جموحها لتنتصر الإرادة على السجان، وكما يقول عمر نزال: بإمكان الكف مناطحة المخرز.

هذه الصور القلمية، بأسلوبها الصحفي السلس والجميل والصادق والعميق، تثبت أن السجن الذي أراده المحتلون مكاناً لقتل نفس المناضل وتدمير الروح الوطنية للأسرى، حوله الأسرى بنضالاتهم ووحدتهم ووعيهم إلى أكاديمية كبيرة أوسع من حقول الحياة نفسها؛ فقد استطاع الأسرى أن يمنعوا السجن من أن يعيش ويتغلغل فيهم، بإبداعاتهم وبطولاتهم هزموا السجن والسجانين.

الكاتب الصحافي عمر نزال في روايته الصحافية المليئة بسخرية الأسير من عربدة السجان وهوسه الأمني، والمزدحمة برنين القلوب المتعطشة للحرية والكرامة والحياة، استطاع بجدارة أن يكسر القيد ويكشف ما وراء الأسوار من اشتباك عنيد بين إرادة الحرية وإرادة السجان، وأن يفضح الكثير الكثير من الجرائم المنظمة التي يرتكبها الاحتلال بحق الإنسان الأسير.

في هذا العمل، يسلط الكاتب الضوء على العديد من الممارسات

الإسرائيلية التي تنتهك القوانين والمعاهدات الدولية، كالاعتقال الإداري التعسفي، وسياسة العزل، واعتقال الأطفال، والاعتقال السياسي، والمحاكمات غير العادلة، ومعاناة النقل في البوسطة، ومعاناة زيارات الأهالي، والعقوبات الجائرة الفردية والجماعية، والإهمال الطبي المتعمد، والتفتيشات الهمجية المذلة، وغيرها، ليصل إلى خلاصة أن عالم القمع الإسرائيلي في السجون هو انعكاس لطبيعة المجتمع الإسرائيلي المنحدر نحو العنصرية والفاشية، حيث لم يعد السجن جدراناً وأبواباً مغلقة، بل صار الإسرائيليون سجناء وجلادين طوال اليوم وطوال الحياة.

اقرأوا هذه الصور القلمية، سوف تسمعون طنيناً في رؤوسكم، وتلاحقكم أصوت أبواب فولاذية تفتح وتغلق، سينتابكم هاجسٌ وسؤال: كيف توقفون هذا الطنين وتتحررون من هذه الأقفاص؟ هناك وطاويط سوداء في الحقول والساحات، حاولوا أن تصدوها.

عيسى قراقع

رئيس هيئة شؤون الأسرى والمحررين

أسامة نزال

ما يشبه المقدمة

العيش في السجن صعب.

صعب بأحداثه ومشاهده الكبيرة وأسئلته الأساسية: كم قضيت وكم سأقضي بعد؟ كم ستكون مدة حكمي وكم سيكون قد تبقى لي من مدته حين يصدر قرار حكمي؟ متى ينتهي قرار اعتقالي الإداري؟ وهل سيجدد؟ وكم مرة سيجدد؟ ولمدة كم؟ هل سيتم تخفيض مدة التوقيف الإداري؟ وهل سيكون هذا التمديد الأخير؟ هل سأقدم استئنافاً على القرار أم لا حاجة لذلك؟ وهل سأقدم اعتراضاً للمحكمة العليا أم أن قرارها قد يرتد عليّ؟ هل سأخرج حيّاً أم سأقضي هنا بين جنبات السجن؟

وصعب أيضاً بكل تفاصيله وأسئلته اليومية الصغيرة: متى سيأتي عدد الصباح الأول؟ هل سنشرب القهوة أم أنها نفدت؟ وهل السكر متوفر إن استعضنا عن القهوة بالشاي؟ هل سنأكل اليوم أم سنحتج على تعسف ما بإرجاع وجبات الطعام؟ هل سنشرب ماء بارداً أم أن الثلاجة معطلة؟ هل سأتمكن من الاتصال مع أهلي أم أن التشويش لن يمكنني من ذلك؟ هل سيأتي الممرض صباحاً ليخلصني من ألم الرأس أو الأسنان أم سيأتي مساء أم قد لا يأتي؟ هل سيأتي دوري في لعب التنس أم سيكون هناك استنفار؟ هل وصل مبلغ الكانتين الذي يجيز لي الشراء من مرفق البيع أم أن البريد اليوم معطل؟ هل سيأتي أهلي لزيارتي أم ستتم إعادتهم عبر حاجز تفتيش أم ستمنعهم الإدارة من الدخول؟ هل سيسمح لهم بإدخال ملابسي وصور أحبتي أم أن الضابط المسؤول مجاز؟؟

والأكثر صعوبة على الأسير هو وقع وآثار اعتقاله على أسرته وعائلته،

فالأسرة خاصة تكون قد فقدت على الأغلب معيلها وحامل أعبائها المادية واللوجستية والاجتماعية والنفسية، فيختل توازنها وتتعثر انسيابية حياتها الطبيعية، ما يلقي أعباء كبيرة على باقي أفرادها، فتتحمل الزوجة والأبناء مسؤوليات جديدة لم يعتادوا عليها، ويتوجب عليهم القيام بأدوار مستجدة لم يألفوها، ولا يألف المحيط والمجتمع التعاطي معها. وهذا الواقع المستجد على الأسرة والعائلة يقلق الأسير ويبقيه مهموماً ومتوجساً على سيرورة حياة أسرته وعائلته، ما يزيد من ثقل وقع الاعتقال عليه، ويثير في ذهنه عشرات الأسئلة حول قدرة أحبائه على التأقلم مع واقعهم الجديد، والنجاح في القيام بالأدوار المستجدة عليهم.

عشرات الأسئلة، وربما مئات، تفرض نفسها على الأسير كل يوم وكل ساعة، قليل منها ترتبط الإجابة عنها برفاق القيد وقرارات اللجان التنظيمية التي تدير شؤون السجن، وأغلبها ترتبط الإجابة عنها بالأغيار.

العيش في دوامة الأسئلة والبحث عن إجاباتها، وأحياناً الوصول إلى إجابات دون معرفة أنها إجابات لأسئلة سابقة، هو روتين يومي يعيش الأسير على وقعه ويلازمه طيلة فترة اعتقاله، فهذا هو السجن، أو هكذا يراد له أن يكون.

السجن ليس مجرد مكان يحشر فيه الأسرى فترة من الزمن، بل هو وسيلة عقاب مبرمجة مسنودة بفلسفة وسياسات مدروسة من قبل آلة الاحتلال، فالفلسفة التي تستند إليها إدارة السجون، وسلسلة الأنظمة والإجراءات التي تتبعها، والممارسات التي تنفذها بحق الأسرى، تعتمد على رباعية: العزل، والقهر، والحرمان، والضيق.

الاعتقال هو عزل للمعتقل عن أسرته وعائلته وعمله ومحيطه وبيئته وكل عالمه، فمنذ لحظات الاعتقال الأولى، يتم سلخ المعتقل جسديّاً عبر انتقال سريع وحاد من انسيابية الحياة الطبيعية الاعتيادية إلى عالم آخر مصطنع تصاغ تفاصيله بعناية، بما يوحي للمعتقل بحصول بتر بين واقع كان فيه، وواقع آخر مختلف سيكون منذ اللحظة فيه. تتحقق العزلة، وتتعمق مع مرور الوقت، وتتجذر مع مرور السنين، فالعزل لا يعني بالضرورة العزل الانفرادي الذي يخضع له بعض الأسرى لمدد وأسباب مختلفة، بل هو أيضاً العزل الجماعي للأسرى في الغرفة ذاتها، وللأسرى الأكثر عدداً في القسم ذاته، وللأسرى الأكثر منهم في السجن ذاته، وللأسرى جميعاً في مجمل السجون.

إن كل أسير على المستوى الفردي، وكل الأسرى على المستوى الجمعي، معزولون عن العالم الخارجي، قد يسمعون ويتابعون كل الأخبار والتفاصيل عنه، قد يتصلون ويتواصلون بطرق مختلفة معه، قد يؤثرون به ويتأثرون منه بدرجة ما، ولكنهم ليسوا جزءاً منه، لا يعيشون في معمعانه، لا يشاركون ولا يتشاركون في أحداثه. هذا هو العزل.

أما الركيزة الثانية، فهي القهر، القهر الذي يعانيه الشعب الفلسطيني برمته، لكنه بالنسبة للأسرى يتجلى بشكل مباشر ومكثف وأكثر حدة؛ أن يتحكم سجّان بكل تفاصيل حياتك، بلون لباسك ونوع ملابسك الداخلية، بما تأكل وما لا تأكل، بما تشرب وما لا تشرب، بما تقرأ وما لا تقرأ، بما تشتهي وما لا تشتهي. أن يسلبك خصوصياتك: حضن أمك وقبلة زوجتك وابتسامة أبنائك، متى وأين وكيف يمكن لأسرتك زيارتك؟ ومن منهم يسمح له بذلك

ومن منهم ممنوع عليه؟ أن يتحكم بموعد نومك واستحمامك وقضاء حاجتك.

وثالث ركيزة هي الحرمان، حرمان من كل حقوقك الصغيرة والكبيرة؛ حرمان من العلاج كما يجب، ومن التعليم كما تريد، ومن عملك الذي تحب، ومن التنقل حيث ومتى تشاء، ومن أشعة الشمس وضوء القمر، حرمان من التواصل والاتصال، من أن تقول صباح الخير لمن تحب، من أن تطبع قبلة على جبين ابنتك، من أن تشرب قهوة الصباح على شرفة تطل على نهر أو بحر أو حياة، من مشاهدة مباراة ممتعة أو فيلم مثير، حرمان من أن تلقي على والدك أو والدتك أو شقيقتك أو زوجتك نظرة أخيرة وهم يودعون الحياة، أو حتى من أن تسبل عيونهم وتمشي في جنازتهم وتمارس طقوس الوداع الأبدي.

والركيزة الرابعة هي الضيق؛ فكل ما في السجن ضيق ليضيق معه خُلُقك وأفقك ومدى تفكيرك، فالسجن ضيق إذ يقام على مساحة بضعة دونمات ويحشر فيه آلاف، والقسم ضيق إذ يقام على مساحة بضع مئات من الأمتار ويحشر فيه أكثر من مئة، والغرفة ضيقة بمساحة أقل من ٢٠ متراً مربعاً يحشر فيها عشرة أسرى معظم ساعات النهار وكل ساعات الليل، والسرير ضيق بطول ١٧٥ سم وعرض ٦٠ سم، وما يفصل بينك وبين سرير جارك «الفوقاني» أو سقف الغرفة لا يتجاوز ٨٠ سم، وعليك أن تنام عليه كل ليالي وسنوات اعتقالك. ويضيق عليك الضيق أكثر حين تنقل في عربة «البوسطة»، إذ بالكاد تساوي المساحة المخصصة لك مساحة جسدك، أو حين تساق إلى غرف انتظار المحاكم أو العلاج، أو حين يقرر سجّان معاقبتك لسبب ما، فتوضع في زنازين

العزل والحبس الانفرادي.

وعلى وقع هذه الرباعية، وسلسلة الأسئلة التي لا تنتهي، يعيش الأسير في السجن، أو هكذا يريدون له أن يعيش؛ أن يعيش دون حياة، ليمضي أيام الاعتقال وشهوره وسنواته بهمومه وأسئلته الكبيرة والصغيرة. هكذا يريدون تحويل الأسير من كائن إنساني حي، إلى «روبوت» ميكانيكي يتم التحكم فيه وفي سلوكياته، هكذا يريدون للأسر أن يكون، وبهذا يعتقدون أنهم يهزمون الأسرى.

لكن الأسير قادر على أن يحول العيش الميكانيكي هذا إلى حياة، والفارق بين العيش والحياة كبير، فإن فرض عليه أن يعيش في السجن، فإن عليه أن يخرج السجن من ذاته، وأن يتمثل ما كتبه الأديب الفلسطيني إبراهيم نصر الله في روايته «أرواح كليمنجارو» بأن «في كل إنسان قمة عليه أن يصعدها، وإلا بقي في القاع مهما صعد من قمم». ولعل إرث الشاعر التركي الثائر ناظم حكمت من سنوات سجنه الطويلة في سجون تركيا منتصف القرن الماضي يضع المسألة في سياق واضح، «فأن تعيش في السجن غير أن يعيش السجن فيك»، مقولة فلسفية خلص إليها حكمت الذي عاش السجن في ظروف غاية في القسوة، لكنها مليئة بالإبداع والإنجاز والبطولة، فقط لأن حكمت حل لغز السجن، عاش في السجن، ولكنه منع السجن من أن يعشعش داخله، فهزم سجنه وسجانيه.

كثيرة هي المنجزات والإبداعات التي حققها الأسرى في سجون الاحتلال على مدى السنوات الماضية، من أعمال سياسية وفكرية وأدبية متنوعة، أغلبها ظل وما زال حبيساً، وبعضها تسلل إلى خارج السجن أو كتب خارجه، وقليل منها رأى النور وتم توثيقه أو نشره وأصبح بين يدي القراء، والمسؤولية عن ذلك تتحملها جهات

عديدة، فما نشر وكتب في السجن وعن السجن لا يرقى أبداً إلى حجم وقيمة حياة وتجارب الأسرى، وآلاف الحكايات المختزنة على الورق أو في الذاكرة دون أرشفة أو توثيق ممنهج.

(بين سراييفو و«عتصيون») هو إسهامي كصاحب قلم، قلم صحافي بالدرجة الأولى، في رسم وعكس جزء من تفاصيل الحياة اليومية وحكاياها التي عايشتها في اعتقالي الإداري الأخير في سجني «عوفر» و«عتصيون» بين نيسان ٢٠١٦ وشباط ٢٠١٧، ومن ضمن ذلك ركزت على الإضراب عن الطعام كإحدى الأدوات النضالية التي يستخدمها الأسرى بين فترة وأخرى لأسباب مختلفة، وعلى تجربتي الخاصة في الإضراب الذي خضته لمدة ثمانية عشر يوماً.

كتبت كل هذه الصور داخل الأسر إلا واحدة، هي الأخيرة «فلاشات الغلاف الأخير»، لكني أعدت قراءتها وتنقيحها بعد أن خرجت، وأجريت على بعضها تعديلات طفيفة. اعتمدت أسلوباً وفنّاً من فنون العمل الصحافي غير الشائع هو الصور القلمية، حيث يصور القلم عبر الوصف الدقيق والتفصيلي قدر الحاجة ما لا تصله عدسات الكاميرات، وحيث يتكئ القلم على مساحة من الأدب تسمح للصحافي بالمرور عليها دون أن يتقيد بفنون وأصول الأعمال الأدبية. وحافظت -ما أمكن- على أصول العمل الصحافي، وتمسكت بمبادئ وأخلاقيات المهنة، من حيث صدق المضمون ودقته، وخرجت عن ذلك في بعض المواضع التي اقتضت إضفاء نوع من الكوميديا أو قدر من التراجيديا على بعض العناوين.

أخرجت هذه المادة من السجن على مراحل، وبطرق مختلفة، حيث

رفضت إدارة السجن السماح بإخراج بعض أجزائها. وآثرت أن أبقي تنسيقها وتصنيفها وفقاً لتسلسل وقوع أحداثها وكتابتها، كي يعيش القارئ تماماً تقلبات الحياة داخل السجن، فجاء الفصلان المتعلقان بالإضراب عن الطعام في وسط العمل تقريباً، وسبقتهما ولحقتهما صور الحياة والحكايا اليومية كما حصلت على خط الزمن الذي قضيته أسيراً في سجن «عوفر»، وهي صور وحكايا تتماثل إلى حد كبير مع ما يحصل في كل السجون تقريباً، إذ إن الفوارق هامشية بين طبيعة وظروف كل واحد من السجون الستة والعشرين التي كان يعتقل فيها نحو سبعة آلاف أسير خلال تلك الفترة.

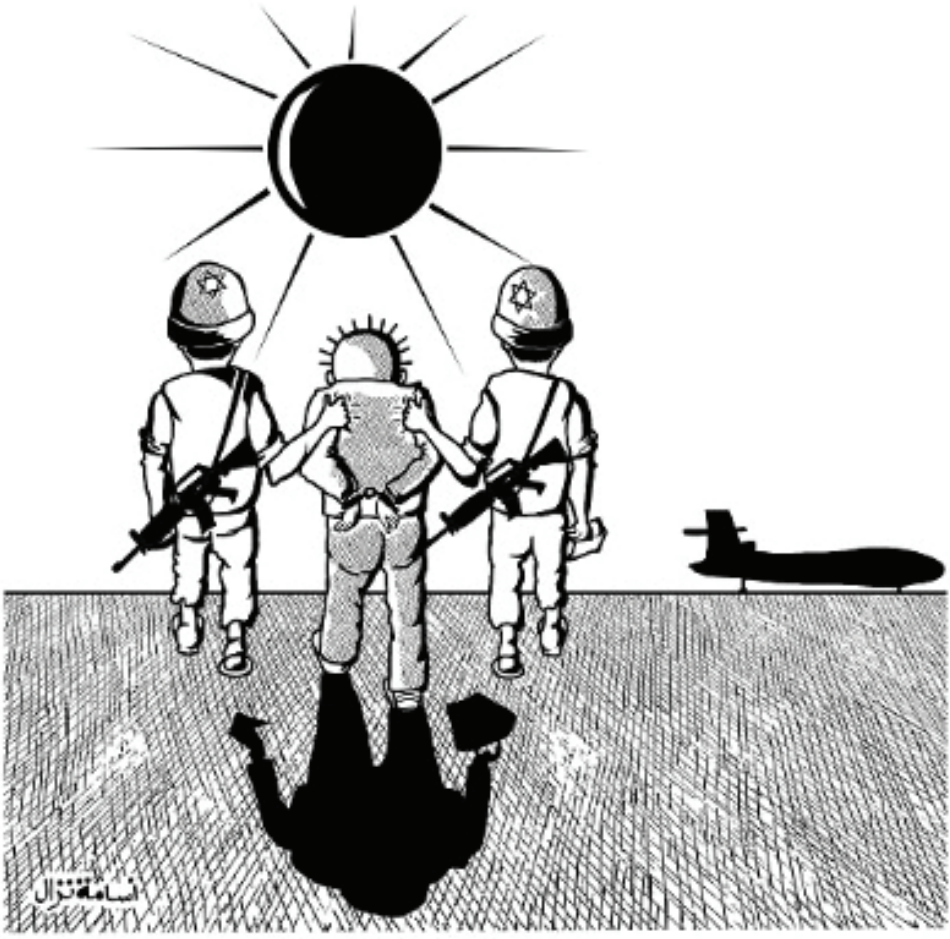
أسامة نزال

1

الألبوم الأول

بين سراييفو و«عتصيون»

لا تشكُ ففي الشكوى انحناء
لا يليق بكنه العيش بكبرياء

بين سراييفو و «عتصيون»

كان قرار الأمانة العامة لنقابة الصحافيين أن أمثلها إلى جانب النقيب في مؤتمر اتحاد الصحافيين الأوروبيين الذي يعقد في سراييفو، عاصمة البوسنة والهرسك، حيث إن نقابة الصحافيين الفلسطينيين هي عضو مراقب في هذا الاتحاد، نظراً لما تمثله فلسطين ونقابتها من واقع ومكانة بين نقابات واتحادات الصحافيين في القارة العجوز.

كان معلوماً أنني منعت من السفر بقرار من سلطات الاحتلال في كانون الأول ٢٠١٤، وأن القرار الذي يمتد لسنتين لم ينته بعد، لكن محاولات قد بذلت من جهات الاختصاص الفلسطينية لرفع الحظر ولتمكيني من السفر للمشاركة في المؤتمر.

في الثالث والعشرين من نيسان ٢٠١٦، سافرت برفقة نقيب الصحافيين ناصر أبو بكر عبر معبر الكرامة، وفي الحسبان أحد احتمالين: المرور ومواصلة السفر إلى المؤتمر، أو المنع من السفر والعودة إلى رام الله، لكن ما حدث لم يكن في الحسبان ولا في البال.

بعد احتجاز استمر نحو ثلاث ساعات في قاعة المغادرين للأراضي الفلسطينية، لم يبقَ في القاعة سواي. جاءني اثنان من رجال الأمن، اقتادني أحدهما إلى قاعة القادمين، حيث مقر المخابرات الذي يتم فيه استجواب بعض القادمين أحياناً، وعندما دخلت المقر، بدأت إجراءات تفتيش دقيق لما أحمله من أمتعة، ثم تفتيش ملابسي

وجسدي، وطلب مني إقفال هاتفي النقال وإزالة البطارية منه.

بعد وقت قصير، جاءوا إليّ بطاقم طبي عسكري، بدأ بأخذ معلومات حول حالتي وسيرتي الطبية، حينها، أدركت أن ما يحصل يتعدى منعي من مواصلة السفر، وبالفعل، وبعد انتهاء الفحص الطبي الشكلي، قال لي رجل مخابرات: «أنت الآن قيد الاعتقال بأمر من القيادة، وسيتم نقلك إلى مركز توقيف عتصيون». كان ذلك مفاجئاً لي، ولم يكن أبداً واحداً من الاحتمالات التي فكرت بها، ومع ذلك، تعاملت معه بهدوء ورباطة جأش، فقد عهدت الاعتقال مرات عديدة قبل ذلك، وإن كان آخرها في العام ١٩٨٨، أي قبل أكثر من ربع قرن.

في الطريق أثناء نقلي بين معبر الكرامة ومركز توقيف عتصيون، نحو ساعة ونصف الساعة من الزمن، كنت خلالها في سيارة عسكرية مقيد اليدين بالسلاسل «الكلبشات» ومعصوب العينين، بما لا يسمح لي برؤية أي شيء أو تقدير الزمان والمكان، على يميني مجند وعلى يساري مجندة، خلال ذلك، كنت أفكر بالمفارقة بين الطريقين، الطريق إلى مطار عمان لمواصلة السفر إلى سراييفو، والطريق إلى عتصيون وما يمكن أن يحدث هناك.

مع حلول المساء، وصلت إلى «عتصيون». خضعت مجدداً لإجراءات التفتيش، واحتجاز كل أغراضي الشخصية وكل ما أحمل، بما في ذلك حزام البنطلون ورباط الحذاء.

بفتور، استقبلني سبعة من الموقوفين في غرفة رقم ٦ في عتصيون، قلت بداخلي: لا بأس، فالمسافرون في المطارات لا يستقبلون عادة القادمين إليها بحرارة، فلا معرفة سابقة، ولا تعارف لاحقاً على

الأغلب، فكل في سبيله، وذهبت أنا إلى سبيلي. نمت بعض الوقت نتيجة التعب والإرهاق، واستيقظت عند موعد إقلاع الطائرة إلى سراييفو، عند الواحدة والنصف فجراً. ركبت الطائرة، وأقلعت.

استيقظت مجدداً عند السادسة صباحاً، موعد الوصول المفترض إلى سراييفو. كان بانتظاري في المطار هناك ضابط وبضعة جنود، يأتون كل صباح لعد الموقوفين والتأكد من أن أحداً منهم لم يتحول لطير ليتمكن من الإفلات من نافذة باب غرفة السجن، ومن فتحات الحديد في سقف الساحة الصغيرة التي تتوسط غرف المركز الاثنتي عشرة، ولا من الأسلاك الشائكة التي تحيط وتعلو كل ذلك. «قم. هذا وقت العدد الصباحي، أنت هنا في عتصيون وليس في سراييفو»، قال لي أحد السجناء.

المصة

في فترة عيد الفصح اليهودي «البيسح» التي تستمر ثمانية أيام، يحظر خلالها على اليهود تناول الخبز العادي، ويستعيضون عنه بما يسمى «المصة» أو بالعبرية «متسا»، وهو عبارة عن عجين مخبوز بشكل رقيق جدّاً، ومربع الشكل كما البلاط، خالٍ من الخميرة التي يمتنع اليهود عن استعمالها أو تناولها طيلة فترة العيد كواحد من طقوسه.

هذا الطقس من طقوس العيد اليهودي يُفرض على الأسرى الفلسطينيين في سجون إسرائيل قسراً، إذ إن الخبز يورد من المخابز الإسرائيلية، وبهذا، يتعين على الأسرى، وخاصة في مراكز التوقيف والتحقيق، أن يتناولوا «المصة» بدلاً من الخبز، طوال فترة العيد، وهو في الحقيقة أمر لا يطاق، وخاصة بالنسبة لنا

كفلسطينيين، حيث يعتبر الخبز مكوناً أساسيّاً من مائدتنا وأكلنا.

وإن كان أكل «المصة» بمذاقها الغريب أمراً ممكناً لمرة واحدة أو كغذاء مكمل، بدلاً من البسكويت مثلاً، فإنني كنت قد اعتدت أكلها خلال فترات اعتقالي السابقة التي تقاطع بعضها مع حلول هذا العيد، فقد اعتدت خلال وجودي خارج الأسر أن أسعى للحصول على بعض منها، فقط لكسر الروتين، ولمذاقها الفريد الغريب، وكنت بالفعل في غالب السنين السابقة أحصل على بعض منها، فآكل قطعة أو اثنتين، وأترك الباقي.

عندما دخلت مركز توقيف عتصيون، ولسوء حظي، فقد كان هذا هو اليوم الأول للعيد، وللمصة، ما يعني أن عليّ أن أتناولها حصراً لسبعة أيام تالية، وهو أمر لا يطاق. وكان الأسرى قد خاضوا نضالات طويلة سابقاً حتى تمكنوا من إلزام إدارة السجون بتوفير الخبز العادي لهم، وليس «المصة»، باعتبار أن العيد لليهود، وأن طقوسه تخصهم، ولكنها لا تلزم الفلسطينيين غير اليهود، لكن هذا الإنجاز للأسرى لم ينسحب على مراكز التوقيف والتحقيق التي تخضع لسيطرة الجيش وأجهزة الأمن وليس لإدارة السجون.

وفي المراكز التي يسيطر عليها ويديرها جيش الاحتلال، يضاف إلى كل شقاء «المصة»، سوء الأكل كمّاً ونوعاً، وعدم تنوعه، حتى أن نفس الوجبة المكونة من اللبنة فقط تكررت ثلاث مرات يوميّاً على مدى أيام متتالية، ولا تتغير إلا ما ندر.

بؤس الأكل وتكراره، وحضور «المصة»، وغياب الخبز لأيام متتالية، تعتبر معاناة أخرى تضاف لمعانيات وهموم الأيام الأولى للاعتقال، خاصة عندما يتعلق الأمر بمركز «عتصيون» الذي يفتقر لأبسط

مقومات الحياة، سواء من حيث الأكل أو الشرب أو النظافة.

الطريق إلى «عوفر» .. بروفة القبر

مركز عتصيون هو مجرد مركز توقيف يدار من قبل جيش الاحتلال، وكافة الإجراءات القانونية والقضائية المتعلقة بالموقوفين لا تتم فيه، بل في مجمع «عوفر» الذي يبعد نحو أربعين كيلو متراً عن عتصيون، ويحوي قسماً خاصّاً بالمحاكم العسكرية وممثلي النيابة والقضاة.

خلال مدة التوقيف الأولى البالغة ستّاً وتسعين ساعة، يتوجب نقل الموقوفين في مركز «عتصيون» إلى محاكم «عوفر» للنظر في توقيفهم وتمديد اعتقالهم مرة أو أكثر. عملية النقل تتم في مركبات خاصة مصممة كي يكون النقل فيها عذاباً وإذلالاً إضافيّاً للمعتقلين، وبشكل يضمن ألا يرى أو يحس المعتقل المنقول فيها أنه خرج من حدود السجن لا جسداً ولا روحاً، وألا يرى شمساً أو يتنسم هواءً وألا يقيم أي صلة بالعالم الخارجي حتى لو لبعض الوقت. ورغم كل إجراءات التفتيش التي يكون المعتقل قد خضع لها، فإنه يتم تفتيشه مجدداً وبشكل دقيق قبل مغادرته المركز وإدخاله لعربة النقل، وكذلك عند عودته للمركز بعد انتهاء محاكمته، وبعد إجراء التفتيش، يتم وضع القيود في يديه وفي قدميه، ومن ثم يتم حشره فيما يشبه خزانة صغيرة داخل الحافلة بالكاد تتسع لجسده وهو في وضعية الجلوس، وكل ما في هذه الخزانة أسود حالك، لدرجة خيّل إليّ أن هذه بروفة للقبر.

تنطلق الحافلة بينما هاجس الموقوف في «القبر» بداخلها هو محاولة معرفة أو تقدير مكانه، وأي الطرق ستسلك عربة النقل هذه. بعد

دقيقة واحدة من الانطلاق، يشعر «المقبور» بالتفافة دائرية، هي بالتأكيد الالتفاف على دوار «عتصيون» القريب جدّاً، الذي يدمج مع الشارع الرئيسي الخليل - القدس، بعدها بدقيقة، تتوقف الحافلة لبعض الوقت، وهو الوقوف الإجباري على الإشارات الضوئية لتقاطع «عتصيون»، ثم تواصل.

عشر دقائق بعد ذلك، ويشعر المعتقل بعبور مطبات صغيرة متتالية تبطئ خلالها الحافلة، ليوقن من ذلك أنه وصل إلى حاجز بيت جالا العسكري المؤدي إلى طريق الأنفاق، ويتأكد من ذلك بعد دقائق حينما تزداد الظلمة سواداً بسبب دخول الحافلة نفق بيت جالا الواصل للقدس، وما إن ينتهي ذلك، حتى يعرف أنه بات بمحاذاة منطقة بير عونة الواقعة بين بيت جالا والقدس.

تلي ذلك بعد دقائق توقفات متتالية لمدد قصيرة، وهي توقفات على إشارات ضوئية تدلل على أنه أصبح في الشطر الغربي من مدينة القدس، يتتالى ذلك مرات عدة إلى أن يأتي من جديد الظلام الأكثر حلكة، ولكن لفترة قصيرة، ما يعني دخول نفق آخر على أحد تقاطعات القدس - تل أبيت بمحاذاة بلدتي دير ياسين وأبو غوش. بعدها بدقائق، مرة أخرى إلى المطبات والتمهل حد التوقف، وهو ما يشي بالوصول إلى حاجز النبي صموئيل المقام على المدخل الشمالي الغربي للقدس. وقت قصير ثم تستدير الحافلة نصف استدارة، ما يعني الوصول إلى دوار مجمع «عوفر» الذي يضم سجن «عوفر» ومجمع المحاكم ومركز تحقيق ومعسكراً للجيش. لحظات وتتوقف الحافلة بالفعل على بوابة مجمع «عوفر»، ويبدو من مدة التوقف أن إجراءات لا بد أن تتم هنا بين من في الحافلة من حراس وجنود وبين حرس البوابة. تكمل الحافلة قليلاً

من المسير لتتوقف نهائيّاً. يفتح باب القبر، فتسطع الشمس، وتبدأ حينها مسيرة المشي على الأقدام المغلولة بالسلاسل الحديدية، بما لا يسمح بأن تزيد المسافة بين القدم وأختها على ثلاثين سنتيمتراً، وهذا الطريق إما إلى قسم التحقيق أو إلى قسم المحاكم.

بضع ساعات يقضيها الموقوف هنا أو هناك، أو في كلا القسمين، ثم العودة مجدداً إلى القبر لبدء رحلة العودة، بذات الطريق، وتعود لتشغيل كل حواسك لتلمس مكان وجودك وأين وصلت، وهذا يستدعي بالطبع أن تكون تعرف أصلاً تفاصيل الطريق. أما من لا يعرفها، فقد يخال ذلك جزءاً من عقاب القبر في الطريق إلى السماوات السبع.

دون عنوان

مع صدمة الأيام الأولى من الاعتقال، وبروز التساؤلات عن أسبابه وطبيعته وكم سيستمر، ومع وجودي في مركز توقيف مؤقت بين معتقلين لم يسبق لي أن عرفت أيّاً منهم، كون معظمهم من منطقة الخليل، فقد حاولت أن أشغل وقتي بما يفيد ويبعدني عن الملل، ففي حياتي قبل ذلك لم أعتد أن يكون لدي وقت فراغ مهدور، كما أنني لا أحسن الهروب من الفراغ إلى ساعات نوم فائض عن الحاجة، فكان لا بد من الانشغال بالقراءة، فهي الملاذ الأفضل في مثل هذه الظروف.

بضعة كتب ممزقة، أو بقايا كتب، كانت ملقاة على حافة الطاقة في أعلى الغرفة، تسلقت إليها وأنزلتها، علني أجد ما يمكن قراءته، كانت دون أغلفة، ودون عناوين، وصفحات ممزقة وغير متسلسلة،

يبدو أن أحداً لم يعرها أي اهتمام منذ سنوات، بدأت بتجميعها وتصنيفها حسب الحجم وطبيعة الورق ونوع الخط، محاولاً تجميع كتاب واحد مكتمل، فلم أفلح. تناولت منها ما رأيت أنه الأكثر تسلسلاً والأقل تمزيقاً ونقصاً، وبدأت أقرأ مادة عن مفهوم الانتماء والهوية والعروبة والإسلام والأمة. كان كتاباً قيّماً حين أعثر على بضع صفحات متسلسلة، ومشوشاً حين تقطعه صفحات ناقصة أو بالية لا يمكن قراءتها، حاولت لاحقاً وما زلت أسعى على سبيل الفضول لمعرفة عنوان هذا الكتاب الذي قرأت، أو تقدير هوية مؤلفه، فلم أفلح.

ولعة

خمس سجائر من نوع رديء توزّع يوميّاً على كل مدخن في مركز «عتصيون»، لكن المفارقة أنه يتم إعطاء المدخنين ولعة ثلاث مرات يوميّاً فقط مع مواعيد الأكل الذي يتم في ساحة خارج الغرف، وهو ما يعني أن على المدخن أن يشعل سيجارتين كل مرة، وأنه لا يمكنه التدخين لمدة ١٢ ساعة هي الفترة بين وجبتي العشاء «٦ مساء» والإفطار في اليوم التالي «٦ صباحاً»، وهو أمر صعب على المدخنين عموماً.

هذا ما حدا بالمعتقلين إلى البحث عن طرق بديلة لإشعال سجائرهم، فكان الحل عن طريق أسلاك الكهرباء وهو حل بالغ الصعوبة وينطوي على مخاطر تهدد الحياة؛ إذ يتم بما يتيسر أو ما يتم تهريبه من أدوات حل الإضاءة الموجودة في سقف الغرفة، وإخراج الأسلاك الكهربائية منها، ووضع قطعة من ورق التواليت بين السلكين، ومن

ثم عمل تماس بين القطبين الموجب والسالب فتشتعل الورقة ومن ثم يتم إشعال السيجارة من الورقة المشتعلة. ولأن العملية تتم في أعلى سقف الغرفة الذي يتم الوصول إليه بصعوبة بالغة، ويستلزم مشاركة أربعة معتقلين في العملية، إذ يحمل معتقل ما رفيقه على كتفيه كي يتمكن من الوصول إلى السقف، وهذا لا يمكنه في هذه الوضعية التحكم لا في الأسلاك ولا في إشعال السيجارة من الورقة المشتعلة؛ فتكون مهمة المعتقل الثالث إشعال السيجارة من الورقة أثناء سقوطها من أعلى، وهو ما يتم خلال ثانية أو أقل. وفي بعض الأحيان، تسقط الورقة على شعره أو وجهه، وتسبب له حروقاً وآلاماً. فيما مهمة الرابع هي المراقبة وضمان خلو الساحة من أفراد الجيش لحظة تنفيذ العملية.

وتتكرر هذه العملية بما تحمله من مخاطر كلما استوجب المزاج إشعال سيجارة خلال الليل، أو في الفترات الفاصلة بين الوجبات الثلاث.

احتجاج

في الأيام الثلاثة الأولى لوجودي في «عتصيون»، لم يكن ممكناً إبداء أي احتجاج جماعي على قسوة ظروف الاعتقال، إذ إن الموقوفين الاثني عشر الذين كانوا معي في المركز، معتقلون للمرة الأولى، يعيشون رهبة الاعتقال والتعامل مع الحراس من أفراد جيش الاحتلال، ولا معرفة لهم بحقوقهم ولا بكيفية التعامل لانتزاع وفرض ظروف أفضل.

ولكن في اليوم الرابع من الاعتقال، تم إحضار اثنين من الأسرى

المحررين الذين أعيد اعتقالهم، إلى الغرفة المقابلة، وخلال وقت قصير، تواصلت معهم، وتم الاتفاق على خطوة احتجاجية برفض تناول الوجبة التالية إلا بعد تحقيق بعض المطالب. وكانت المطالب التي قدمناها بعد أن امتنعنا عن استلام وجبة العشاء بسيطة جداً ولكنها أساسية ومهمة: التعامل معنا باحترام، وتحسين كمية ونوعية الأكل الذي اقتصر خلال الأيام الثلاثة الأولى على صنف واحد هو اللبنة وخبز «المصة»، وتمديد وقت بقائنا في الساحة من عشر دقائق كانت بالكاد تكفي للأكل، إلى عشرين دقيقة، كي يتسنى لنا الاستحمام في الحمامات الموجودة في الساحة، وتوزيع مواد نظافة وبشاكير. ومع ذلك، فقد جن جنونهم، واعتبروا ذلك تمرداً، وأمطرونا بسيل من التهديدات والتوعد.

صباح اليوم التالي، تحققت كل مطالبنا؛ فقد حصلنا على وجبة معقولة، وتمكنا من الاستحمام وغسل ملابسنا الداخلية رغم عدم وجود غيار إضافي لدى أي منا، وهو ما يعني بقاءنا دون ملابس داخلية حتى جفت ملابسنا في المساء. واستمر ذلك إلى أن نُقلت إلى سجن «عوفر» في اليوم السادس للاعتقال.

محاولة احتيال وسرقة

عصر يوم الخميس، وبعد ستة أيام من العيش في ظروف بالغة القسوة، جاء أوان النقل إلى سجن «عوفر». كان برفقتي اثنان آخران، طلب منا التوقيع على إيصال بالأمانات التي كانت قد أودعت لدى إدارة الجيش في مركز «عتصيون» من أجل نقل هذه الأمانات مع وحدة الحراسة المكلفة بعملية نقلنا وتسليمنا وأماناتنا إلى سجن

«عوفر». قرأت الإيصال الخاص بي، وإذ بي ألاحظ نواقص عن الأغراض التي كانت معي لحظة اعتقالي. كانت النواقص كمبيوتراً محمولاً «لاب توب»، وحزام البنطال، ورباط الحذاء، وعلبة سجاير، وقداحة. رفضت التوقيع وطالبت بالأغراض الناقصة. أبلغوني أن الحزام والرباط وعلبة السجائر والقداحة تمت مصادرتها وإتلافها، وأن الكمبيوتر تم تحويله للفحص الأمني لدى المخابرات، فطلبت منهم شهادة رسمية تفيد بذلك. فوجئوا بطلبي، ودار جدال بالعبرية بين وحدة النقل وإدارة «عتصيون». لم أفهم كامل محتواه، ولكن قدرت أن وحدة النقل أيدت طلبي. بعد ذلك، جاءوني بورقة تفيد بأن من حق الجيش المسؤول عن المركز مصادرة وإتلاف بعض الأغراض الممنوع إدخالها، وأخبرني الجندي الذي جاء بالورقة أن الكمبيوتر محتجز وأنه سيتم إعطائي ورقة تفيد بذلك عند وصولي إلى «عوفر». رفضت ذلك بإصرار، حيث شعرت من خلال الجدال بينهم أن هذا غير قانوني، وأخبرتهم أنني لن أدخل عربة النقل إلا إذا تم تسليم الكمبيوتر لوحدة النقل أو تسليمي كتاباً يفيد بالمصادرة. وفي الحقيقة، لم تكن تهمني بقية الأغراض الصغيرة، مع قناعتي بأنه لا يتم إتلافها.

بعد أن أدركوا أن موقفي حاسم، وأنني بالفعل لن أدخل عربة النقل، جاءوا بالكمبيوتر وسلموه لوحدة النقل وأضافوه لقائمة الأمانات، حينها، أيقنت أن ما جرى هو محاولة تحايل لسرقة الجهاز، فطلبت تفقده والتأكد من أنه بالفعل هو جهازي، وكان كذلك، ولكن دون المحول الكهربائي والفأرة «الماوس». اعترضت على ذلك، وطالبت بالمحول والفأرة. أبدوا غضبهم وعلا صوتهم بما يشبه التهديد بأني أعيق عملهم وبأن الوقت ينفد، وبأنني إذا ما واصلت ذلك، فإنه لن يتم نقلي، وسيتم إبقائي في «عتصيون». قلت لهم إن هذا لا يهمني

وإنني لن أوقع ولن أدخل العربة دون كامل أغراضي. بعد دقائق، أحضروا المحول، واعتذروا عن عدم عثورهم على الفأرة بطريقة اقتنعت معها بأنه قد يكون ذلك قد حصل بالفعل، خاصة أن فأرة الكمبيوتر المحمول هي قطعة مضافة وصغيرة الحجم. وقعت على الإيصال ودخلت العربة، وكان الترحيل إلى سجن «عوفر».

«عوفر»

سجن «عوفر» من السجون التي لم أكن قد دخلتها أثناء مرات اعتقالاتي الاثنتي عشرة في زمن سابق، حيث تنقلت خلالها بين سجون: جنين، ونابلس المركزي، والفارعة، وعتليت، وجنيد، ورام الله، وبركسات رام الله، والمسكوبية، والبصة، وبئر السبع، والنقب، أما سجن «عوفر» فهو حديث نسبيّاً، افتتح عام ٢٠٠٠ تحت إشراف الجيش، وكان عبارة عن خيم تبدو مؤقتة نصبت داخل معسكر «عوفر» المقام على أراضي مدينة بيتونيا غرب رام الله، إلى أن تم تحويله لإدارة السجون عام ٢٠٠٨، وحلّ محل خيمه بناء خرساني، وبات الآن يضم عشرة أقسام تتسع لألف ومئتي أسير، ومعظم المعتقلين فيه من مناطق رام الله وبيت لحم والخليل.

بعد الانتهاء من الإجراءات الروتينية للإدخال، جاء أوان تحديد إلى أي الأقسام سيتم تحويلي؛ فالأقسام هنا موزعة بين الفصائل، ولتحديد القسم، يتوجب عليّ التصريح لإدارة السجن عن انتمائي السياسي، أو أن يتم تحويلي بشكل مؤقت إلى قسم ١٤، وهو قسم يشبه «المعبار»، يدخله المعتقلون الجدد لبضعة أيام إلى أن يتم تحديد انتماءاتهم والبحث عن قسم مناسب فيه متسع لهم،

وفي القسم أيضاً المعتقلون على ذمة قضايا «مدنية»، بمن في ذلك الذين يتم اعتقالهم في القدس أو في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ دون حصولهم على تصاريح من سلطات الاحتلال، وأوضاع هذا القسم سيئة عموماً، وكل هذا تم إبلاغي به من أسير سابق كان في «عوفر»، وأعيد اعتقاله وإحضاره إلى «عتصيون»، وكان معي في عربة النقل.

طلب مني الضابط المناوب تحديد انتمائي الفصائلي ليتم نقلي إلى القسم المناسب مباشرة دون حاجة إلى إدخالي لقسم ١٤، حيث لا يليق ذلك بمن هم في مثل عمري، فأبلغته أنني لا أنتمي إلى أي فصيل، وأن هذا ليس شأنه، فضحك وقال نحن هنا لسنا مخابرات، وهذا لن يسجل عليك، ويبدو لي أنك من «الشعبية»، فكررت له جوابي السابق، ولكن يبدو أنه سأل الأسير السابق الذي كان برفقتي في عربة النقل، وكان يعرفني وسمع وتابع قضية اعتقالي قبل أن يعتقل هو، فتم نقلي بعد ذلك إلى قسم ١٦ الذي يتقاسمه مناصفة أسرى الجبهة الشعبية وحركة حماس.

عند باب القسم، وبينما كان السجان يفتح لي باب الدخول، سألني أحد الأسرى: هل أنت الرفيق عمر نزال؟، أجبته: نعم، أنا عمر نزال. فبدأ ينادي على عدد من الأسرى الموجودين في القسم، والذين يبدو أنهم كانوا قد أخبروه بتوقعهم قدومي في أي وقت: حسن فطافطة، وإسماعيل العمصي، ورامي فضايل، ويوسف هوشة، ورشاد كراجة، وغيرهم. دخلت، فكان استقبال من جميع أسرى القسم، وكانت لحظات عناق حار مع الأصدقاء منهم، خاصة أن بعضهم لم ألتقه منذ سنوات طويلة، ومنهم الأسير حسن فطافطة زميلي في الدراسة في جامعة بيرزيت المعتقل منذ ١٤ عاماً.

كوسا محشي

وصلت من «عتصيون» إلى سجن «عوفر» مساء الخميس، كان الجوع التراكمي على مدى ستة أيام قد بلغ مداه نتيجة سوء الأكل وقلة كميته وغياب الخبز الذي حلت محله «المصة». في غرفة ١١ في قسم ١٦ كان عشائي الأول كوسا محشي، بنسختين: واحدة باللبن وثانية بالبندورة، وبكمية كافية لأن يأكل الرفاق التسعة في الغرفة حتى الشبع، الشبع الذي غاب عني لأيام.

نوع «الطبخة» ولذة الأكل ومذاقه، وكذا الحلويات، تعتمد على طباخ الغرفة المكلف بإعداد أو إعادة إعداد ما يصل للغرفة من المطبخ المركزي للسجن الذي يديره الأسرى أيضاً، ويعمل فيه ذوو الخبرة، أو ذوو «البطون» الكبيرة. في المطبخ يتم تحضير وتوريد المكونات الأساسية للطعام، ويترك لكل غرفة أن تتصرف به كما تشاء، ويعتمد المنتج النهائي على «طباخ» الغرفة وذوقه ومهارته، بعض الطباخين يجيدون الإعداد، حيث اكتسبوا ما يكفي من خبرات، وخاصة من أمضى منهم فترات أطول في الأسر، فانطبق عليه المثل «تعلم البيطرة في حمير النور»، وبعضهم كانت خبرته من عمله قبل أسره في مطعم أو ما شابه. أما الغرف الأقل حظّاً، فتنتقي من بينها الأفضل في إعداد الطعام، حتى وإن كان دون خبرة، وفي هذه الحالة، فإن الانتقاء يتم على قاعدة «الأكبر كرشاً» أو الأكثر شهية وتلذذاً، يجتهد، فيصيب مرة ويقدم وجبة معقولة، ويخيب مرات ليناله الاستهزاء والتعليقات ونظرات الاتهام بالفشل والاستياء، حتى وإن لم يُقل له ذلك.

وإعداد الطعام أو استكمال إعداده، وكذلك صنع الحلويات، لا تتم بسهولة ويسر، فلا وجود لمطبخ في الغرفة، ولا وجود لمعدات

وأدوات كاملة تتيح الطبخ، بل أغلبها أدوات يتم تطويعها أو ابتكارها لتفي بالغرض على قاعدة «الحاجة أمّ الاختراع»، والاحتياجات هنا كثيرة، والإبداعات مسقوفة بالإمكانيات المتوفرة.

ورغم عدم وجود السكاكين المحظورة لأسباب «أمنية»، كان يتم إعداد السلطات وتقطيع الخضار وأحياناً الدجاج واللحم. ومع عدم وجود غاز أو فرن للطهي، كان الطهي والشيّ وإعداد الحلويات يتم. ومع غياب بعض المكونات والمواد الأولية المحظورة لأسباب «أمنية» ومنها الطحين مثلاً، كان يتم توفير العجين وإعداده بطرق التفافية.

ولأن الأسرى أيضاً يعملون بقاعدة «العين تأكل قبل الفم»، فإنه، وبذات الإبداع، يتم تزيين الأطباق والحلويات بما تيسر من مقبلات ومشهيات. ومع ذلك، فإن الغائب دوماً هو نفس وروح الأسرة والعائلة، والإبداعات واللمسات الأنثوية، ففي السجن حياة، لكنها حياة الحرمان.

بعد العشاء، حلقة ترحاب وتعارف تخللها شاي وقهوة وحلويات وبعض النقارش، حتى كدت أنخدع بمظهر أوحى بالتبذير، لكن عرفت لاحقاً أن ما جرى هو استثناء تطلبه يومي الأول في السجن، وأن الكوسا المحشي حدث لن يتكرر إلا بعد ثمانية أشهر أخرى.

أتت شبب أتت

عند حوالي السادسة، يبدأ العدد الصباحي الأول، ضابط عدد، يرافقه نحو اثني عشر سجاناً يحملون أدوات قمع مختلفة، يجولون

على أقسام السجن واحداً تلو الآخر، ومع دخولهم للقسم، يبدأ أحدهم بالمناداة بصوت عالٍ على الأسرى «عدد يا شباب عدد»، كي يستيقظوا ويحضروا أنفسهم للعدد، ولكنة المناداة تختلف باختلاف لغة ولهجة السجان ومدى إتقانه للعربية، إن كان غير عربي.

في ذلك الصباح، كانت لكنة المناداة غريبة وناشزة، «أتت شبب أتت»، وتتكرر بطريقة آلية تشبه أسطوانة صوت مشروخة. أثار الصوت الناشز فضولي، فتوجهت لنافذة باب الغرفة لأرى المنادي بهذا الصوت، كانت سجانة، سمراء اللون، لولبية الشعر، قصيرة القامة بشكل لافت، بدا واضحاً أنها من المستقدمين من إحدى دول أفريقيا. استغربت وجود واستخدام سجانات في سجون الرجال، حيث كانت المرة الأولى التي أعايش فيها ذلك، وعندما سألت عن الموضوع، قيل لي إن استخدام سجانات بدأ منذ العام ٢٠٠٢ تقريباً، وإن نسبتهن من بين إجمالي السجانين تبلغ حوالي عشرين بالمئة، وإنهن يكلفن بكافة مهام السجانين، بما في ذلك المشاركة في القمع والتفتيش، وإنهن ينحدرن من أصول مختلفة، كما هم الإسرائيليون عموماً، مستقدمون من كل بقاع العالم.

تساءلت، وسألت عن أسباب استخدام سجانات في سجون مخصصة للرجال، هل هو ضمن سياسة عامة تستند لتوفير فرص عمل متكافئة بين الذكور والإناث في مختلف المهن والأعمال بما فيها السجانون؟ أم هو توجه مدروس يهدف لتحقيق غرض آخر، مثل إثارة الأسرى جنسيّاً، حيث الحرمان من هذا الجانب هو واحد من جوانب الحرمان العديدة التي يعيشها الأسرى؟ أم إيصال رسالة إيمائية للأسرى بالاستناد إلى الثقافة الذكورية في المجتمع الفلسطيني بأن سجانة «أنثى» تتحكم في رقابكم وعيشكم؟

أم هي محاولة لـ «أنسنة» الصراع بين الأسير وسجانيه وإضفاء نوع من «النعومة» عليه للتخفيف من حدته؟

لم أجد جواباً قاطعاً، ولم يجبني أحد بشكلٍ مقنعٍ، ليبقى أحد الاحتمالات التي ذكرت، أو كلها مجتمعة، أمراً وارداً.

دكانة رامي

هي الغرفة الأولى في قسم ١٦ في سجن «عوفر»، الغرفة المسماة الكانتين، التي عرّبها الأسرى ليكون اسمها «مرفق البيع»، وهي المكان المخصص لبيع الحاجيات التي يمكن للأسرى شراؤها من رصيدهم المالي، الشخصي أو المشترك، تحتوي احتياجات وأصنافاً متعددة تبدو كثيرة بنظر الأسرى، وخاصة الذين قضوا سنوات طويلة، حيث لم تكن السجون تعرف هذا التطور، ولكنها بالواقع تحتوي أصنافاً قليلة جدّاً ومحدودة جدّاً تلائم ظروف الأسر: طناجر وصحون وملاعق، مستلزمات الحلاقة ومعجون وفراشي أسنان، راديو وسماعات تتوافق مع المعايير التي تسمح بها إدارة السجن، شاي وقهوة وسكر وبعض مستلزمات الشرب، بضعة أصناف من الشوكولاتة والبسكويت، وبضعة أصناف من المشروبات والعصائر، وبضعة أصناف أخرى تشبه ما في دكانة «أبو العبد» في أي قرية فلسطينية.

لكن دكانة «أبو العبد» في السجن مختلفة في بعض الجوانب، ففيها لا تدفع المال فعليّاً، فحيازة النقد ممنوعة في السجن، وعند كل عملية شراء، يتم سحب ثمن المشتريات من رصيد مالي سقفه ١٢٠٠ شيقل يكون أهل الأسير قد دفعوه مسبقاً في حساب خاص

بكل أسير مرة واحدة شهريّاً، وبهذا، فإن مجموع الأسرى هم عمليّاً أصحاب رأس مال هذه الدكانة، وليس «أبو العبد».

ودكانة السجن لا تحقق أرباحاً كما يحقق «أبو العبد»، لأن المسؤول عنها لا يستثمر ماله، ويقوم بجهده وتعبه ويقدم وقته مجاناً خدمة للأسرى، فهو ينظم العملية، ويتحمل مسؤولية أي نقص أو خسارة إن حدثت، ومع ذلك، فإن فصائل الحركة الأسيرة تنظر لإدارتها لمرفق البيع كامتياز تتنافس من أجل الحصول عليه، بل مرافق البيع في أقسام السجن العشرة تتوزع مسؤوليتها بين الفصائل وفق اتفاق وطني يستند أساساً لتوزع عناصر الفصائل بين الأقسام المختلفة، وفي حالة التوازن بين فصيلين، كما في قسم ١٦، تتم إدارة المرفق بالتناوب، كل أربعة أشهر.

دفاتر الحسابات في الكانتين تشبه دفاتر الحسابات في دكان «أبو العبد»، دفاتر مدرسية بنية اللون يكتب عليها بالحبر باللونين الأزرق والأحمر، بعضها لأرصدة الأسرى كأفراد، وأخرى لأرصدة وديون كل غرفة، يتحملها الأسرى نزلاء كل غرفة بشكل مشترك ومتساو، وبعضها لأرصدة وديون الفصائل يتحمل مسؤوليها قيادة الفصيل في القسم، وعادة ما يتم اقتطاعها مسبقاً من رصيد كل أسير ينتمي أو يكون تحت مظلة ذاك الفصيل، وبعض الفصائل تغذي ميزانيتها من ميزانية التنظيم خارج السجن.

ودكانة السجن تختلف عن دكانة «أبو العبد» بأنها تقدم خدمات مجانية غير خدمة البيع، إذ يمكن للأسرى استخدام الثلاجة الموجودة فيها لتبريد المياه صيفاً، أو لحفظ بعض المأكولات والحلويات التي يحتاج تصنيعها للتبريد أو التفريز.

دكانة «كانتين» قسم ١٦ عندما دخلت إليها، كان يديرها رامي، ورامي هو أصلاً صاحب محل لبيع الأدوات المنزلية في رام الله، لذا، فعندما دخلت الدكانة لأول مرة، خيّل إليّ أن رامي قد افتتح فرعاً لمتجره في السجن، فالبضاعة الموجودة في الكانتين تتقاطع في العديد من أصنافها مع ما يحتويه متجر رامي في رام الله، ورامي هو رامي ذاته، بنفس حركاته وتصرفاته وطريقة عرضه للبضائع على الزبائن والحديث عن مزاياها وأسعارها، لكن هنا في السجن لا مجال «للمفاصلة»، فالسعر محدود وبالأغورة، والبيع هنا لا يحتاج للدفع نقداً، بل يخصم من الدفع المسبق في الرصيد.

دكانة رامي هنا، كما دكانة «أبو العبد» هناك، يحج إليها كل أسرى القسم مرة أو عدة مرات يومياً.

الاعتقال الإداري

بعد اعتقالي بيومين، طلب محاميّ محمود حسان من مؤسسة الضمير لحقوق الإنسان، إخلاء سبيلي بالكفالة، فرفضت المحكمة العسكرية ذلك، واستجابت لرأي النيابة بالإبقاء عليّ معتقلاً، وبعد ذلك بيومين أيضاً، وافقت المحكمة على طلب النيابة تمديد اعتقالي لمدة أسبوع، رغم أنها لم تقدم أي مادة بحقي، وفي ذات اليوم، تم تحويلي لجلسة تحقيق قصيرة، سئلت خلالها عن علاقتي بالجبهة الشعبية، وعن مشاركتي بنشاطات «معادية للدولة»، وعن عملي الصحافي وموقعي في قناة «فلسطين اليوم» الذي كان قد انتهى قبل بضعة أشهر من اعتقالي، وعن موقعي وعملي في نقابة الصحافيين، وكانت أسئلة عامة جدّاً يتضح من خلالها أنه لا توجد

أي معلومات أو مواد ضدي تستوجب استمرار اعتقالي. طلب مني أن أوقع على محضر التحقيق فرفضت، وطلبت أن يضاف إلى أقوالي المسجلة في المحضر «أنني أرفض التوقيع على هذا المحضر، كون الاتهامات الموجهة لي لا تستند إلى أي أساس، وأنه من الواضح أن اعتقالي يأتي على خلفية عملي الصحافي وتعبيري عن مواقفي وآرائي، وبسبب دفاعي عن الصحافيين الذين يتعرضون لاعتداءات إسرائيلية متواصلة». قال لي المحقق: ما سألتك عنه ليس اتهامات، بل مجرد شبهات بالاستناد إلى معلومات خاصة بنا. انتهت جلسة التحقيق، وكانت الأولى والأخيرة طوال فترة اعتقالي.

في الثاني من أيار، وقبل يوم من موعد انتهاء توقيفي، حيث كان قد مضى على اعتقالي عشرة أيام، سلمتني إدارة السجن قرار تحويلي للاعتقال الإداري لمدة أربعة أشهر، بناء على أمر من قائد جيش الاحتلال في منطقة رام الله.

كان القرار مفاجئاً وصادماً، إذ لم تكن مجريات الأمور خلال أيام الاعتقال التي مضت تشير إلى احتمالية ذلك، بما في ذلك جلسة التحقيق التي لم توجه لي خلالها أية اتهامات، ولم يتم إبلاغي أو تقديم أي بينات أو معلومات خلال جلستي المحكمة اللتين سبقتا ذلك، تدينني أو تشير حتى إلى توجيه أي تهمة محددة.

لكن هذا هو بالضبط الاعتقال الإداري الذي تنفذه سلطات الاحتلال على نطاق واسع بالاستناد إلى قانون انتدابي بريطاني أكل الدهر عليه وشبع، نسيه البريطانيون لكن الاحتلال ورثه عنهم وما زال يستخدمه كلما أراد معاقبة فلسطيني أو الانتقام منه، لسبب ما أو دون سبب.

شتلة فول

في كثير من الأحيان، تشعر أن الغاية الرئيسية للسجان هي فقط التنغيص على الأسرى، وتنبيههم دائماً بأنهم ليسوا أحراراً، حتى في مسائل بسيطة لا تمس «الأمن» ولا تضر «الاستقرار» بشكل من الأشكال، ولا تؤدي إلى توتير الأوضاع، وما بين مزدوجين هي ذرائع دائمة لأي شيء تريد إدارة السجون منعه، أو منع الأسرى من ممارسته أو امتلاكه.

من جانب الأسرى، وفي سلوك يهدف لكسر روتين العيش بين الجدران الصماء، ومحاولة أنسنة ظروف ومحيط الحياة، يحاول بعضهم من حين لآخر زراعة ما يمكن أن يصله من حبوب يمكن زراعتها لإضفاء اللون الأخضر على قتامة تخلو منه، فقط بضع حبيبات من العدس أو الحمص أو الفول قد تصل إليهم بطريق الصدفة أو الخطأ، فزراعة مثل هذه الحبوب بالنسبة للأسير تحقق أمرين: الأول رؤية ما هو أخضر من نبات بغية كسر روتين الألوان التي يكاد الأخضر يغيب عنها، فاللون الأساسي في الأسر هو البني الداكن، هو بالأساس لون لباس ما يسميه الأسرى «الشاباص»، وهو الزي الرسمي الذي تفرضه إدارة السجون على الأسرى، خاصة أثناء خروجهم من الأقسام للمحاكم أو التحقيق، أو أثناء نقلهم من سجن لآخر، هو لون بني قاتم وقاتل. أما الأمر الثاني، فإن تفتح ونمو بذرة، يوحي بانبعاث الحياة واستمراريتها دون رغبة السجان، وهو ما يوحي بالراحة والأمل اللذين يحتاجهما كل أسير.

كان أبو مينا قد تمكن من جمع حفنة تراب، التقطها ذرة ذرة على مدى أشهر، تارة مما يعلق بحبات البطاطا، وتارة مما يعلق بشروش البصل، إلى أن جمع ما يكفي لوضعه في قعر مطربان بلاستيكي

صغير، وغرس فيه ست حبات فول نبتت منها أربع، نمت سنتيمتراً بعد آخر، بل مليمتراً بعد أخيه. كان يحرص عليها كل من في الغرفة، فيما كان يحرسها هو ببؤبؤ عينيه، ينظر إليها، يراقبها كلما بزغت الشمس وغرد الدوري، ويحرسها بعينيه كلما حانت ساعة العدد أو «دق» الشبابيك، أو ما ينبئ بدخول أعداء الخضرة والحياة إلى الغرفة، فهم يدخلون مرتين يوميّاً إلى كل غرفة بغرض «الدق»، صباحاً أول مرة، وعند العصر مرة ثانية، وفي حالات الطوارئ إن حدث طارئ، وكثيراً ما يحدث أو يصطنعونه.

يأتي ثلاثة أو أكثر، أحدهم يحمل عصا أشبه بالدبسة، يدقون على الشبك الحديدي الغليظ فائق القوة، بالكاد ينفد منه إصبع، يتأكدون أن أسنان الأسرى لم تستطع خلال الساعات الفاصلة بين دق وآخر، أن تحدث فتحة تسمح بمرور إنسان أو حتى أحلامه وخيالاته.

أحدهم يدخل دون عصا، فقط بعينين تتفحصان كل ما يعتقد أنه ممنوع، أو كل ما يقرر منعه، قد يقطع خيطاً ربطه أسير لتعليق بشكير عليه، أو نشر ملابسه الداخلية، فهذا ممنوع. وقد يزيل ورقة معلقة على حائط، فهذا أيضاً تحريض ممنوع. ينظر بكل ما فيه من حقد ولؤم على أسير يرسم على شفتيه بسمة، فهذا أيضاً ممنوع، ولكن أبا الممنوعات أن يكون هناك عرق أخضر يوحي بالحياة، فالحياة في الأسر بموجب شريعتهم من الكبائر التي توجب القطع أو القلع والمصادرة.

ذات يوم، لم يكن «أبو مينا» في الغرفة وقت «الدق»، فقام أسير آخر بإخفاء النبتة وتمويهها بشكل غير كاف، فالتقطتها عيون النمس، وكأنما وجد غنيمة أو اصطاد صيداً يؤهله الحصول على نيشان،

صادر الشتلة الخضراء وقتلها ونال نيشان الفتك بالحياة.

لم نقهر ولن نقهر، فبعد أسبوع كانت نبتة بديلة تنمو بثبات وما زالت.

كان عنا غزال

اصطاده أحدهم يوماً بطريقة ما، أو ورثه عن أخ أو رفيق، ليس مهمّاً، عليك ألا تسأل من أين أتى، أو من هو صاحبه، فالمهم أن تنتظر دورك لتمتطيه، لك ذلك مرتين أسبوعيّاً، فالكل هنا سواسية، لا ليسوا سواسية، فالبعض يمتطيه لثلاث دقائق إن كان أعزب، والآخر لخمس إن كان متزوجاً.

تصعد على ظهر الغزال، تسمع وتتحدث، تسأل عن الأحوال، عن الصحة والدراسة، وعن أي شيء آخر. تأتيك الإجابات مقتضبة، لا تشفي الغليل، فلا وقت للإطالة والتفاصيل، يسألونك، فتجيب دون تركيز أو اكتراث: أنا بخير، المهم أنتم. لكنك لا تكون بخير.

عندما تركب الغزال تصبح معلقاً بين الأرض والسقف، تتحدث إلى السقف ولا تدري من يسمعك، يأتيك الجواب، أحياناً يكون حادّاً فيصم أذنيك، وأحياناً ضعيفاً يكاد لا يسمع، تكرر السؤال وتطلب إعادة الجواب، فجدران السجن تبدو أعلى من أن يخترقها الصوت.

ينتهي الوقت المخصص لك، تبّاً! لم أستطع قول ما أريد أو كل ما يجب أن يقال، ولم أسأل عن هذا الأمر أو ذاك، نسيت أن أسأل عن ذلك الموضوع، لم يسعفني الوقت، لماذا لم أسأل عن فلان أو أرسل له تحية، وربما كان إلى جانب من تحدثت معه يحاول سماع ما أقول، وربما هو أرسل لي تحياته دون أن أسمعه، ربما يكون قد

عتب عليّ، لا بأس، فليس على من يمتطي الغزال حرج، فالأحبة في الخارج يعرفون خطورة الغزال وظروف وجوده، يعرفون أن الوقت يحسب هنا بالثانية، وأن كل ثانية إضافية تكون على حساب أسير آخر، فلا بأس إن نسيت هذا أو ذلك، فسأتحدث عن ذلك في المرة المقبلة.

بعد ثلاثة أيام أو أربعة، تقضيها وأنت ترتب أفكارك وتحسب أولوياتك بدقة، أي الأمور أهم؟ وأيها أكثر أهمية؟ وقبل امتطاء الغزال مجدداً، تستذكر ما تود قوله وربما تعيد ترتيب أولوياتك بناء على ما يستجد، تحاول استذكار ما يمكن أن تكون قد غفلت عنه، ثم ترتب أولوياتك بدقة، وتوزع الدقائق المتاحة وفقاً لأهمية كل موضوع.

يأتي الصباح، وبعد قليل موعد الغزال، وأنت ممسك بزمام الأمور، لم تنس شيئاً، كيف ستوزع الثواني؟ فهي كثيرة، ثلاثمئة ثانية، تقسمها مناصفة، تتكلم أنت مئة وخمسين وتسمع مثلها، أنت تعرف ما الذي عليك قوله، ولكنك لا تعرف ما الذي يمكن أن تسمعه.

يقترب دورك، بقيت ربع ساعة، عشر دقائق، خمس، لماذا الآن؟ لماذا عندما جاء دوري هرب الغزال، أو تم تهريبه. لماذا ارتفعت ذبذبات التشويش الآن بالذات؟ تهرب الأفكار التي تكون قد رتبتها، لم تعد تعرف الأولويات، تنسى حسابات الوقت، تنسى كم كلمة سوف تتحدث، وكم كلمة عليك أن تسمع، تنسى كل شيء، فقد لا يعود الغزال.

فجأة، وأنت في خضم هذا الجدل، بين ذاتك وبينك، ينتهي التشويش

ويعود الغزال مكانه، ينادونك أن تأتي سريعاً، حيث جاء دورك. تضيع الأفكار في زحمة الساحة وبين جموع الذين يدورون فيها بعكس عقارب الساعة، تتعرقل في الحذاء الذي ترتديه، فيذهب سدىٍ كل جهدك في ترتيب ذاتك. ولكن لا بأس، فالغزال يبقى غزالاً، يعينك على سماع صوت حنون يحمل إليك شغف الانتظار وشعاع الأمل، وتحمل له بالتأكيد ما قد حمل لك.

لا تسألوا ما هو الغزال، فهو ممنوع، السؤال عنه ممنوع، والإجابة عن ماهيته ممنوعة أكثر.

كراكيب

يحتفظ السجناء بكل ما يقع بين أيديهم، فقد ينفع يوماً ما، هذه فطرة، تعززها الخبرة، فكل كركوبة يأتي يوم احتياجها، أو ربما، ولكن حين يأتي، فإن الكركوبة تصبح ثمينة في ظل انعدام الخيارات والبدائل.

ومن هذه الكراكيب، التي تقع بين أيدي الأسرى، ما قد يستخدم على حاله، ومنها ما يجري إعادة تدويره، وكل ممتلكات الأسرى تصلح لإعادة التدوير، فهم بهذا ينافسون كبرى الدول، ويظهرون حرصاً أكبر على الاستجابة لدعوات الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية للحفاظ على البيئة من خلال إعادة التدوير، وإن لم يكن هذا هدفهم.

هنا، إعادة التدوير تشمل كل شيء: خيطاً قطنيّاً أو بلاستيكيّاً تصنع منه حبال قصيرة لتعليق البشاكير عليها مثلاً، أو لنشر

الملابس الداخلية، كلٌّ تحت «برشه» أو في زاوية ما لا تزعجه أو تزعج زملاءه، علبة سردين فارغة، مناسبة لتحويلها إلى منفضة سجائر، بعضهم يزينها بوضع حجر شطرنج فائض عن الحاجة كممسك لغطائها، فتصبح مميزة، له وحده، يفاخر بفرادة إنجازه، وإن استخدمها أحد غيره ينظر إليه شزراً، أو فخراً بإنجازه.

المغّيط مثلاً، يعتبر سلعة نادرة من بين الكراكيب المقتناة، يتم الحصول عليه مما يتلف من ملابس، وخاصة من «التلفزيون»، والتلفزيون هنا مصطلح يطلقه الأسرى على «البوكسر» أو الملابس الداخلية، وللمغّيط استخدامات كثيرة، منها تطويع وتهيئة وجوه الفرشات التي تسمى «بورش» لتكون ملائمة لتلبيسها وإزالتها بسهولة عند كل عملية غسيل، وهذه الأغطية أو وجوه الفرشات تأتي من الأهل خلال الزيارة، ومع أن كل الأسرى يُفهمون ذويهم، بأن الغطاء هو لفرشة صغيرة ويجب ألا يكون واسعاً كما هو لفراش المنزل، لكن الأهل في الخارج لا يتخيلون ولا يريدون التسليم بأن حجم البورش هو فقط ٦٠ * ١٧٥ * ٥ سم، وأن الزيادة في مقاسات غطاء الفرشة مزعجة، وتستلزم إعادة تكييف الغطاء، ولهذا، فإن الطلب على المغيط عالٍ ووجوده نادر.

بعض الأسرى يحتفظ ببرغي، وبعضهم يقوم بتصنيع مفك براغي، من ملعقة مكسورة أو ما شابه، ولكن قد تنقضي فترة الاعتقال كلها دون أن تكون له حاجة لاستخدام البرغي ولا المفك طبعاً، ومع ذلك يصر على الاحتفاظ بها. الورق اللاصق، الحاجة له كثيرة، يستخدم خارج الغرف لتثبيت أوراق على شكل إعلانات أو ملخص أخبار يومي، وداخل الغرف لتعليق الصور، أو لتثبيت أسلاك «البواعز» الدقيقة.

كراتين من قياسات وأحجام مختلفة، تأتي للأسرى وبداخلها أشياء مختلفة، يتم الاحتفاظ بغالبيتها، وهذه الكراتين عديدة الاستخدامات، كرتونة لكل أسير تعلق على سطح برشه، أو بشكل أصح أسفل سقف «برش» جاره في الطابق الثاني، وهذه تخصص عادة لوضع ما يملكه الأسير من كراكيب يحتاجها باستمرار، وفي أسفل كل برش تعلق أيضاً كراتين للاستخدام الجماعي، لوضع الأحذية مثلاً وقت تنظيف الغرف بشكل كامل، وهذا فعل يتكرر مرتين يوميّاً على الأقل، بالإضافة إلى التنظيف الشامل صباح كل سبت، هذه وعشرات مثلها، بعضها يستخدم بالفعل، وأغلبها لا يستخدم أبداً، هي كراكيب جماعية.

ولكن، إضافة لها، فإن هناك كراكيب خاصة بكل أسير، وحجم هذه الكراكيب وتنوعها وندرتها يعتمد عادة على ما قد قضاه الأسير من سنوات وأشهر في الاعتقال، فالذين يدخلون حديثاً، لا كراكيب بحوزتهم، أما ذوو الأحكام العالية ومن قضى في الأسر سنوات طويلة، فإن حصيلة كراكيبهم تكون عادة واسعة ومتنوعة، بعضها نادر، وبعضها يثير التساؤل: كيف يمكن أن يكون قد حصل عليه؟ مثل ورق الكربون، أقلام من كل الألوان، رباطات أحذية أصلية، دفاتر بأحجام وألوان غريبة لا توجد عادة في السجون، قصاصة أظافر مع مبرد، وهي ممنوعة عادة، وغير ذلك كثير.

وتختلف الكراكيب أيضاً وفقاً للانتماء السياسي للأسير، فكراكيب أسرى حماس يتمحور بعضها مثلاً حول أغلفة مصاحف، مسابح وسجاجيد صلاة مزينة. فيما كراكيب أسرى فتح غيرها. وكراكيب أسرى الشعبية أو الجهاد أو الديمقراطية تختلف أيضاً.

وكراكيب الأسرى الموقوفين بانتظار المحاكمة، هي غير كراكيب

الأسرى المحكومين الذين باتوا يعرفون موعد الإفراج عنهم، وهي أيضا غير كراكيب الأسرى الإداريين، فلكل أسير كراكيبه، ولكل غرفة كراكيبها.

شباك ٣٧

بعد شهر بالتمام والكمال، كان موعد الزيارة الأولى لي، فقد كنت محظوظاً أن زوجتي تحمل الهوية المقدسية الزرقاء، وليست بحاجة لتصريح الزيارة الخاص الذي يحتاجه أهالي غالبية الأسرى، وهو ما يؤخر زيارتهم لأسابيع طويلة، وربما لأشهر، قبل أن يصدر هذا التصريح، هذا إن صدر أساساً، حيث إن كثيرين ممنوعون من الحصول عليه لأسباب أمنية.

منذ اعتقالي، كنت قد أطلقت شعر لحيتي ولم أرغب بحلاقتها، وقررت أن أبقى كذلك حتى يوم خروجي من السجن، لا لسبب، ولكن فقط من أجل إراحة نفسي من مهمة الحلاقة يوماً بعد آخر كما كنت معتاداً أن أفعل في حياتي خارج السجن.

صبيحة يوم الزيارة، أقنعني أبو مارسيل بأن أحلقها كي لا أظهر أمام زائري أنني متأثر من السجن، أو أن شيئاً قد تغير عليّ، لم أقتنع ولكني مع ذلك استجبت، ذهبت سريعاً إلى حلاق القسم لتخفيفها، ثم ذهبت للكانتين لشراء شفرة حلاقة، وفعلت.

ارتديت ملابسي المدنية العادية التي كانت قد وصلتني من الأهل عن طريق زيارة صديق في الأسبوع السابق، فارتداء الملابس المدنية أثناء زيارة الأهل هو حق حصري للأسرى الإداريين، فيما

الأسرى المحكومون والموقوفون ملزمون بارتداء زي «الشاباص» البني القاتم. بدا مظهري وكأني في يوم عادي خارج الأسر، ذاهب إلى العمل بشكل رسمي، وفيما كنت أنزل درجات الطابق الثاني حيث تقع غرفتي رقم ٧ في قسم ١٦، وقد بدا منظري لافتاً أو غريباً للأسرى الذين اعتادوا رؤيتي بملابس الأسر اليومية، وهي بالعادة شورت طويل وبلوزة بسيطة أو شباح، وشبشب زنوبة، كان قد سبقني بفعل ذات الشيء الصديق «أبو بادي»، ولم أكن أعرف أنه نال الكثير من الإعجاب والتصفير ممن هم في الساحة من الأسرى الذين أبدوا إعجابهم «بشياكته»، ولكن عندما نزلت، كان الإعجاب والتصفير أقوى، حيث كنت بنظرهم أكثر «شياكة»، وقد عايروه بذلك قائلين «أبو صفد بطحك يا أبو بادي»، ولهذا التعبير حكاية أخرى أيضاً.

وصلنا إلى غرفة الزيارة، كانت مقسمة إلى أربعين خانة من ناحية الأهل، وواحدة وأربعين خانة من ناحية الأسرى، حيث وضعت خانة واحدة تتسع لأسيرين، وكان هذا تحسباً لأن يكون بين فوج الزوار إخوة، أو أب وابنه مثلاً، وهو ما كان موجوداً بالفعل.

كان نصيبي أن أجلس على الشباك رقم ٣٧، على يميني ثلاثة رفاق وعلى يساري أربعة، جميعهم إداريون ما عدا «الشمبر». وصل الأهل بعد فترة من وصولنا واستعدادنا، وبدأ تبادل التحيات والقبل الهوائية بانتظار أن يفتح خط التواصل الهاتفي بين الزائرين وأن يبدأ عداد الساعة عده التنازلي بدءاً من ٤٥ دقيقة إلى صفر، وهي مدة الزيارة المتاحة.

الزيارة متعبة، متعبة للأسير، حيث يقضي ٤-٥ ساعات من لحظة خروجه من القسم حتى عودته إليه، ومتعبة أكثر وشاقة على الأهالي

الذين يقضون من ١٢-١٤ ساعة منذ لحظة مغادرتهم وحتى عودتهم إلى بيوتهم، يمرون خلالها بحواجز عسكرية وتفتيشات عديدة، وكل ذلك من أجل ٤٥ دقيقة من الزيارة عبر العازل الزجاجي، والتواصل عبر هاتف أصم، وهو ما يضفي على الزيارة جموداً وبعداً لاإنسانياً، خاصة أنها مسجلة بالكامل بالصوت والصورة لدى أمن السجن.

لكن رغم ذلك، فإن للزيارة رونقها الخاص، فهي غذاء العين المتاعة لرؤية الأحبة والاطمئنان عليهم، رؤية قسمات وبسمات تشغل مخيلتك كل الوقت، ولكنها تكون قد غابت عنك بالفعل والإحساس، وخلال الزيارة، وإن كانت صماء كما أراد لها السجان أن تكون، بفاصل زجاجي سميك يمنع دفء الحضور ويحول دون تنسم العبير، والتواصل خلالها عبر سماعة هاتف لعينة تسرق شجى الصوت والهمس؛ فإنك تستطيع خلالها قراءة ما تقوله العيون، وتستطيع أحياناً قراءة الشفاه وما بين السطور وما لا يمكن قوله صراحة، تمتع ناظريك بأطراف الحياة عبر زائريك، وعبر دقائق تقتطعها من وقت زيارتك لإلقاء تحية وتبادل بعض الكلمات مع زائري أصدقائك ومعارفك، فتكون وكأنك تجولت في البلد بأكملها.

تبادلنا الأخبار بأسرع ما يمكن، قلت لهم ما حصل معي منذ أن فارقتهم مودعاً وداع سفر في رحلة قصيرة إلى البوسنة، وكيف تحول السفر القصير إلى غياب مجهول المدة والنهاية، زوجتي واثنتان من بناتي كنّ مرآتي في الجهة المقابلة، وصفن لي كيف وقع الخبر عليهن وعلى كل المحيطين بهن وبي، وماذا حصل منذ تلك اللحظة وكيف تفاعلوا معه. أمددنني بالحب ودفء الحياة، وأمددتهن بطاقة الصمود والصلابة.

خلل ما في هذه الزيارة الأولى حدثٍ لساعة التوقيت الإلكترونية، فامتد وقتها إلى ٥٤ دقيقة بدلاً من ٤٥، فكانت تسع دقائق كأنها منتزعة من أنياب كلب الحراسة، في ختامها ودعت زوجتي وابنتيّ بالإشارة والإيماءات بعد أن قطع الخط الهاتفي، فبقيت روحهن معي، وبريق أعينهن يلاحقني حتى موعد جديد لا ضمان متى يكون.

تفتيش

التفتيش بأشكاله ومستوياته يشكل الهاجس الدائم للأسرى، فهو واحد من تجليات الصراع الدائم والمستمر بين الأسير وسجانه، هو عدوان الاحتلال المستمر على الحياة الوادعة. تجيّش إدارة السجن كل ما تمتلك من أدوات وإمكانيات مادية وبشرية هائلة لاستهداف الأسرى الذين لا يمتلكون غير إرادتهم شيئاً.

توجس مستمر يستدعي يقظة دائمة من الأسرى حيال التفتيشات، فعندما يلحظ أي أسير ما يدل على إمكانية إجراء تفتيش؛ يصيح بصوته «تفتيييش يا شباب»، لتأخذ كل الغرف وكل الأسرى احتياطاتهم وتسرق لحظات من الوقت لإخفاء ما يمكن أن يستهدفه التفتيش الذي قد يأتي في أي وقت ليلاً أو نهاراً، وبالعادة، يكون ليلاً والأسرى نيام.

والتفتيش ثلاثة مستويات، لكل منها أدواته وظروف إجرائه: الأول منها يسمى تفتيش «إدارة»، تقوم به فرقة من إدارة السجن، وهو بالعادة تفتيش روتيني وشكلي، يبدأ وينتهي خلال بضع دقائق، ونادراً ما يغنمون منه شيئاً، والقصد منه الإزعاج والتنغيص على راحة الأسرى وإيصال رسالة بأن إدارة السجن موجودة ومتيقظة.

والمستوى الثاني هو تفتيش «الوحدة»، الذي تجريه وحدة مختصة تسمى وحدة «يمّاس»، وهي وحدة منفصلة تستأجرها إدارة السجون وفقاً للحاجة، وتعمل إلى حد ما باستقلال عنها، ربما خشية من إدارة السجن من أن تضع نفسها في مواجهة مباشرة مع الأسرى، وأن تنحي بالمسؤولية عن ذاتها لقسوة التفتيش وهمجيته. تفتيشات «اليماس» قليلة من حيث تكرارها، ولكنها تحدث بشكل مفاجئ، شاملة وواسعة تستمر لوقت طويل وتستهدف كل شيء، ما هو ظاهر وما هو مخفي، وما هو متوقع وما لا يمكن توقعه، فقد تلجأ خلالها إلى فك الأبواب والشبابيك وأباريز الكهرباء ومواسير المياه والصرف الصحي، وكل ما يملكه الأسرى من أدوات كهربائية أو معدات وأوانٍ للطبخ، يفتشون حتى علب وأكياس السكر والشاي والقهوة والملح وكل ما يشبه ذلك. يأخذون ما يملكه الأسرى إلى ماكينات التفتيش، والفحص الإلكتروني، ثم يعودون لتفتيشها يدويّاً مرة أخرى، وحين لا يجدون شيئاً، فإنهم يلجأون لمصادرة أي شيء لإظهار انتصارهم. قد يصادرون حبلاً أو سلكاً قصيراً أو حتى رباط حذاء أو أداة لتقطيع الخضار، أو إبرة خياطة، فالمهم بالنسبة لهم أن يغنموا أي شيء لإظهار براعتهم.

أما المستوى الثالث، فهو تفتيش مشترك تجريه فرق إدارة السجن مع وحدة «يمّاس»، وغالباً ما تعلن عنه بشكل مسبق كنوع من التحدي، فتبلغ الأسرى نيتها إجراء التفتيش الذي يطال قسماً بأكمله، وأحياناً عدة أقسام بالتتالي، وكأنها تقول: خذوا ما شئتم من وقت واحتياطات، ومع ذلك فسنجد ما نبحث عنه. والذي يبحثون عنه عادة ما يكون أجهزة موبايل أو شرائح اتصال.

يتم خلال هذا التفتيش عزل القسم المستهدف عن باقي الأقسام،

ونقل نزلائه دون أمتعة إلى قسم آخر أو إلى سجن آخر، لأسبوع أو أكثر، وفقاً لما تقتضي الحاجة، يخرج الأسرى من القسم بملابسهم فقط، يتم تفتيشهم جسديّاً بدقة، باليد وبالوسائل الإلكترونية، ويتركون كل حوائجهم وممتلكاتهم في القسم لكي تعيث فيها الوطاويط خراباً.

عشرات السجانين وأفراد «اليماس» المختصين بكل شيء، بتمديدات الكهرباء والمياه والصرف الصحي، يفكفكون الأبواب والشبابيك والأبراش الحديدية، ويحفرون الإسمنت المسلح أحياناً، وكأنهم يهدمون القسم ويعيدون بناءه من جديد، ثم يفتشون ما تركه الأسرى من ملابس وحوائج، قطعة قطعة، يدويّاً، ثم إلكترونيّاً بواسطة أجهزة التفتيش والكشف عن «الممنوعات»، قد يظفرون بما يبحثون عنه، وغالباً ما لا يظفرون، فيلجأون لمصادرات انتقامية بائسة لبعض الحاجيات.

ينتهون بعد ساعات أو أيام، ليعود الأسرى لمشاهدة ما خلفه تسونامي الوطاويط، ويبدأ الإصلاح وإعادة ترتيب ما دمره التسونامي، يستغرق الأمر أياماً وربما أسابيع، إلى أن يعود الأسرى لروتينهم.

محاكم .. شباك

من شباك الغرفة التي يعيش فيها ممثل القسم «دوبير»، ينادي صاحب الصوت الأقوى على أرقام غرف القسم، غرفة وراء غرفة، فيجيب أحدهم في الغرفة التي ذكر رقمها، فيعلن المنادي اسماً

لأحد قاطنيها، فلان الفلاني.. محكمة، ثم اسماً آخر إن وجد، أو ينتقل إلى الغرفة التي تليها، فلان الفلاني.. محكمة، ثم اسماً ثالثاً، فلان الفلاني.. «شاباك» أي مخابرات، وهكذا حتى ينتهي من قائمة أسماء يكون أحد السجانين قد أحضرها وسلمها ليلاً إلى ممثل القسم تحتوي أسماء الأسرى الذين تعقد لهم جلسات محاكم في اليوم التالي، وأسماء أسرى آخرين يتم استدعاؤهم للتحقيق أو الاستجواب من قبل المخابرات.

والمحاكم أنواع ودرجات، ومجريات الأمور فيها تختلف وفقاً للحالة وللقضية التي يتم الاعتقال على أساسها، فمحاكم الأسرى الإداريين مثلاً ثلاث درجات: الأولى محكمة «التثبيت»، وتجري عادة في الأسبوع الأول من صدور قرار الاعتقال الإداري، أو تجديده لفترة إضافية، وهي بالعادة محاكم صورية محسومة النتيجة مسبقاً، تصادق المحكمة على قرار الاعتقال الإداري الصادر عن قائد في جيش الاحتلال، وهي تنتصر بذلك لما تقدمه النيابة العسكرية من «بينات سرية»، وترفض دفوع المعتقل ومحاميه اللذين لا يعرفان بالعادة عن ماذا يدافعان، طالما لا يسمح لهما بالاطلاع على ماهية أو فحوى «البينات السرية»، فيبدو دفاعهما كمشعوذ «يفتح بالمندل». والثانية محكمة «الاستئناف» التي تجري عادة بعد شهر إلى شهرين من تقديم طلب الاستئناف على قرار محكمة التثبيت. ورغم أن محكمة الاستئناف هي أعلى درجة، وقضاتها أعلى رتبة، فإن مجريات الأمور فيها لا تختلف كثيراً عن محاكم التثبيت، إذ يستمر المحامي بشعوذته أملاً في أن يسرق أو يستشف كلمة أو معلومة من القاضي أو ممثل النيابة حول سبب أو تهمة موكله، ولكن حتى وإن عرف ذلك، فلا مجال أمامه سوى مزيد من الشعوذة وربما «استحضار الجن». وهناك درجة ثالثة من المحاكم قلما يلجأ

المعتقلون الإداريون إليها، وهي المحكمة (العليا)، وهي آخر وأعلى درجات التقاضي، ولا يعلو على قرارها قرار، لكن المداولات فيها لا تختلف أيضا عن سابقتيها. وبهذا، فإن المحاكم الثلاث بدرجاتها واختصاصاتها في حالة الاعتقال الإداري، تبدو محض طلاسم، لا رأي فيها سوى للمخابرات وقرارها المسبق بحق كل أسير منذ لحظة اعتقاله، كم من الزمن يتوجب حبسه، سواء امتلكت ضده بينات ودلائل أم لم تمتلك، وهي بالعادة لا تمتلك، بل تعمل وفقاً لتوجهات المستوى السياسي، أو من منطلق انتقامي تسلطي.

أما المحاكم للأسرى الموقوفين الذين تقدم بحقهم لوائح اتهام، وهم النسبة الأكبر، فقد تستمر من عدة أشهر إلى بضع سنوات، تعقد خلالها جلسات عديدة للتداول، أو فقط للتأجيل وتمديد فترة التوقيف وإطالتها ما أمكن، حيث إن غالبية القضايا في هذا النوع من المحاكم تنتهي بعقد صفقة بين محامي الأسير وممثلي النيابة، وهي صفقة تشبه الصفقات التجارية، يلعب فيها غالبية المحامين دوراً أشبه بالوساطة بين الأسير والنيابة، ويحاول المحامي الحصول على الثمن الأقل، وأحياناً يقايض قضية أسير ما بأسير آخر، فيعطي بضعة أشهر من حكم هذا لذاك، خاصة حينما يكون الأسيران على ذمة نفس القضية، ويحاول أحياناً -وفقاً لخطورة التهمة- الاستعاضة عن فترة الحكم أو جزء منها بغرامة مالية: ألف شيقل مقابل كل شهر.

وهذا النوع من المحاكم بالنسبة للأسير، أشبه بالبطيخة، حجمها ووزنها معروفان أو مقدران، ولكن مذاقها ولونها من الداخل مجهولان، أما بالنسبة للمحامي وممثل النيابة، فهي صفقة تلعب فيها شخصية المحامي وقدراته وعلاقاته مع النيابة دوراً مهمّاً،

وكذلك شخص ممثل النيابة، وتلعب فيها طبيعة الظروف وحدة المواجهة خارج السجن دوراً مهمّاً، فـ«أسعار» التهم في أوقات الارتخاء وهبوط حدة المواجهات، هي غيرها في أوقات اشتداد المواجهات أو اندلاع هبة أو انتفاضة، أو تزامن يوم الحكم مع وقوع عملية.

أما القاضي العسكري في هذه الحالة، فلا سبيل أمامه سوى المصادقة على الصفقة التي يتم التوصل إليها بين المحامي وممثل النيابة، ويتحول دوره من قاضٍ يزن الاتهامات ويبحث في الدلائل والقرائن لتحديد «العقوبة»، إلى شاهد على اتفاق تحكمه حسابات مختلفة.

أما في الحالات القليلة التي لا يتم التوصل فيها إلى اتفاق أو ما يعرف بـ «الصفقة»، فيتحول دور القاضي إلى حامل سوط، يأخذ جانب رواية النيابة، ويأخذ ما تطالب به من حكم، بل قد يتخطاه أحياناً، مبرهناً على أنه جزء من المنظومة الأمنية والعسكرية المتغولة، وأن لا عدل ولا عدالة في كيان عنصري محتل، بما في ذلك في جهازه القضائي، وهكذا يصبح المعتقل ضحية مرتين، بل ثلاثاً وأكثر.

أما الأسرى الذين يتم استدعاؤهم للشاباك، فيذهبون لمقابلة ممثل عن المخابرات الإسرائيلية، وفي أغلب الحالات لأحد سببين: إما لورود معلومات أو بينات جديدة قد تغير مجرى القضية ووضعية الاعتقال، كأن يتم تحويل الموقوف على ذمة القضية إلى الاعتقال الإداري أو العكس، وإما أن يكون الاستدعاء بسبب اقتراب موعد الإفراج عن الأسير، فتتم محاولة إقناعه وتهديده بالابتعاد عما من شأنه أن يعيد اعتقاله وفق فهم المخابرات، وفي الغالب يتم ذلك

وفقاً لسياسة العصا والجزرة المعروفة والمعمول بها دوماً.

يعود الذين تم استدعاؤهم للمحاكم أو الشاباك إلى أقسامهم وغرفهم، ليبدأ حديث بين الأسرى عن مجريات ما حصل، وتحليلات وتأويلات كثيرة حول المحاكم وتوقعات فترة الحكم، وهي عادة مفرطة بالتفاؤل.

يتكرر هذا المشهد يوميّاً عدا الجمعة والسبت وأيام الأعياد.

عصير جرابين

عصير جرابين، أو عصير جرابات، تعبير يقال استهزاءً أو تندراً أحياناً، ولكن في سجن «عوفر» حدث فعلاً، وكان العصير رائعاً، على الأقل من وجهة نظر من جربه.

كثيرة هي الممنوعات التي تحددها إدارة السجن، بعضها ضروري وأساسي للأسير، وبعضها من الكماليات التي قد لا يستخدمها الشخص خارج السجن حتى وإن كانت متاحة له، ولكن حق الأسير ومسعاه في الحصول على ما هو ممنوع يبدو طبيعيّاً وشرعيّاً، والحصول عليه يعتبر نصراً للأسرى ونصراً لذهنيتهم التي استطاعت التفوق على عقلية البطش ومساعي الحرمان ومحاولات الإذلال التي لا يكفّ السجان عن التفنن بها.

بعض الأسرى يتمكن مثلاً من تهريب صورة مناضل أو قائد رمز باعتبارها صورة لقريبه، أو تهريب إبرة خياطة، أو قدر ملعقة من ملح الليمون أو الكربونة، أو بنطال جينز، أو لحاف صيفي، وهي حاجيات يعتبر اقتناؤها أو الحصول عليها من الكبائر بالنسبة

لإدارة السجن.

أما الغريب، الذي يأتي في إطار التحدي لقمع السجان، فهو أن يفكر أسير في تهريب أو إدخال مادة كمالية غير أساسية، كما فعل أحدهم، إذ أراد الحصول على بضعة مليلترات من العطر، ليغير برائحتها نمط الروائح الحيادية، أو الكريهة أحياناً، السائدة في السجون عموماً. أما الطريقة التي فكر بها، فكانت جنونية.

أخبر والدته أن تشتري له زجاجة عطر من النوع الذي يفضله، ثم أن تفرغ محتواها في وعاء، وأن تقوم بوضع «نقع» زوج جوارب في الإناء إلى أن يمتص محتويات زجاجة العطر. وبعد أن فعلت ما أوصاها به، طلب إليها أن تحضر له الجوارب المنقوعة، مع بقية الملابس المسموح بإدخالها عبر الزيارة في الموعد المحدد لها، وأن تقوم بإدخالها بطريقة طبيعية بعد أن تجتاز التفتيش الأمني اليدوي ثم الإلكتروني.

بعد أن وصلت الملابس إليه في السجن، عصر الجوارب المنقوعة بالعطر، واستطاع تجميع بضعة مليلترات من عطره المفضل في زجاجة بلاستيكية، عطر هو في الحقيقة عصير جرابين صافٍ، بات يستعمله ويتعطّر به في المناسبات المهمة، هو ومن يمنّ عليهم من زملائه، وهي مناسبات قليلة، منها الخروج إلى المحاكم التي يحضرها الأهل، أو أيام الجمع والأعياد إن حدث وحلت أثناء وجوده في السجن.

نوتيلا

كان كما الأطفال مغرماً بالشوكولاتة بأنواعها المختلفة، ولكن أصابع الكندر المخصصة للأطفال كانت تستهويه أكثر من غيرها من

بين عدد من أصناف الشوكولاتة التي كانت تباع في مرفق البيع «الكانتين».

كان سلامة «يغزو» الكانتين يوميّاً، يشتري بضع قطع من بينها عادة أصابع الكندر بالحليب، وما تشتهيه نفسه من الأنواع الأخرى، فيما كانت الشوكولاتة المخصصة للدهن حاضرة دائماً في خزانته المخصصة لـ «الزاكي»، تماماً كما مخزن أو مكان «الزاكي» الذي يعرفه الأطفال في كل بيت، ويكون وجهتهم ومطلبهم الدائمين.

لا يبخل سلامة على أحد، ولم يبخل عليه أحد، كان باستمرار يوزع على من يرغب من مخزونه الخاص، ويصر على الجميع مشاركته سعادته بالتهام الشوكولاتة والتلذذ بها، وخاصة في الليل، حيث يكون مرفق البيع مغلقاً وتتفتح شهية الجميع لقطعة أو بعض منها، فيشاركه من يكون لا يزال مستيقظاً عند وقوع «الواقعة»، وحتى لا يتحمل العبء وحده، فإن كل من يشاركه يذهب في اليوم التالي ليشتري له من ذات الصنف وغيره، ويضعه في مخزن «الزاكي»، وهكذا تستمر العملية.

ومع توفر أصناف عديدة من الشوكولاتة، بما فيها أصناف جيدة وفاخرة، إلا أن سلامة كان يفضل نوعية «نوتيلا» غير المتوفرة بتاتاً في مرفق البيع، وكان دائماً يمني نفسه بها، ويفكر فيها ربما أكثر مما يفكر في عائلته أو أي شيء آخر خارج السجن، فاكتسب بحق، أو بات يعرف باللقب الذي أطلقه عليه «أبو مينا»: نوتيلا.

مثل كعك العيد

يحاول الأسرى -ما أمكن- أن يخلقوا لأنفسهم أجواء عيد عندما يحل أحدها، ويمارسون بعضاً من طقوسه التي اعتادوا عليها في الأعياد التي يقضونها خارج الأسر. كعك العيد واحد من الطقوس التي تحضر.

بضعة أسرى يتقنون أو يهوون المشاركة في تصنيع الكعك، الكعك بالسميد فقط، لأن الطحين ممنوع، أما السميد والعجوة، فهما متاحان. تتحول بعض الغرف إلى مطبخ بيتي، دون نساء بالطبع، هذا يعجن السميد، وذاك ينقي العجوة من الشوائب، وثالث يجهز الحشوة ويضع عليها ما تيسر من منكهات، ورابع يطبق في قوالب مبتكرة مصنعة بطريقة بدائية لتنتج أشكالاً تشبه أشكال كعك العيد، وآخر يخبز الكعك على الأداة الوحيدة المتاحة لذلك، التي تستخدم أيضاً لكل عمليات الطهي والشواء وهي (البلاطة). والبلاطة عبارة عن قرص معدني دائري قطره ١٢ سم تعمل بواسطة الكهرباء، مصممة أساساً لتسخين المياه أو لإعداد إبريق شاي أو دلة قهوة، ولكن في الأسر تستعمل للطبخ أيضاً، فيوضع فوقها قدر الطعام أو المقلى، وتقلب عكسيّاً وتعلق من «قفاها» بحبل يُربط إلى عصا المكنسة ويوضع بطريقة ما بين فتحات شبك النافذة فتصبح أداة شواء أو تحمير، للمأكولات أو الحلويات، بما في ذلك كعك العيد.

أسرى بعض الفصائل ووفقاً للقيم المنغرسة في سلوكهم وتربيتهم، يتم كل شيء في حياتهم بشكل وبروح جماعية، عملية تصنيع نحو ٨٠٠ حبة كعك تتم بمشاركة الفنيين من كل الغرف، يتجمعون في غرفة واحدة لتصبح بحق معمل حلويات. فيما غرف أخرى تتحول لأفران خبيز، لإكمال عملية التصنيع. الخبيز يتم وفقاً للطريقة

البدائية الإبداعية التي أشرت إليها، ثلاث غرف وزع على كل منها ٢٥٠-٣٠٠ حبة، تحتاج إلى نحو ثماني ساعات لخبزها وإنضاجها، تفوح الروائح في الغرفة ويسيل لعاب كل من فيها دون أن يسمحوا لأنفسهم بأكل ولو حبة واحدة، فهي ليست لهم، بل للكل، تتم إعادة جمعها في اليوم التالي من الغرف التي أوكل إليها الخبيز، ومن ثم يعاد توزيعها بالتساوي حتى آخر حبة، وحينها فقط يمكن لهم تذوقها بعد أن تكون رائحتها قد عبقت في أنوفهم من اليوم الذي سبق، رائحة تختلط ببهجة عيد يسرقها الأسرى رغم عتمة السجن.

ليلة العيد، يوزع كل فصيل على نزلاء غرفه بعض الحلويات والمكسرات يتم شراؤها على نفقة الصندوق الفصائلي، يجلس نزلاء الغرفة العشرة للاحتفال بالعيد والتهام الحلويات والمكسرات، يغنون، ويستحضرون بعض النكات، ويحاولون خلق أجواء فرح بعيد المنال، غناء بشجون، وأصوات مقهورة تعجز عن إكمال أي أغنية، وحتى النكات تصبح دراما غير مضحكة، تُشحب الوجوه بدلاً من أن تُضحكها، البعض يذرف دمعه، ولكن لأنه يحظر على الرجال إسالة الدموع، فإنه يذرفها إلى داخله، فسرعان ما تنفض حلقة التفاعل الجماعي ليلتزم كل أسير برشه، أو تتشكل خلايا تفاعل ثنائي لمن جمعتهم الصداقة والعيش المشترك خارج السجن قبل الاعتقال، كل يغوص في ذكرياته، ويستحضر الطقوس التي اعتاد أن يمارسها بين أهله وأصدقائه خارج الأسر، يستذكر أنه في آخر ليلة عيد قضاها في الخارج كان في مثل هذا الوقت تماماً يتسوق ويبحث عن زي مناسب للعيد، أو يقص شعره لدى حلاقه المفضل، أو يشبك يده بيد خطيبته ويجول باحثاً لها عن هدية مناسبة، أو يصطحب زوجته وأطفاله في شارع مدينته المفضل، في شارع الشلالة أو باب الزقاق أو شارع ركب.

كانت ليلة عيد الفطر، غاص كل ﷺ ذاته وذكرياته، أما أنا، بقلمي المتردد على غير عادة، كنت أحاول كتابة هذه السطور، فتقطع خلوتي أصوات باعة البسطات والعربات المتجولة ﷺ أسواق جنين، مسقط رأسي، وحيث اعتدت أن أقضي ليلة كل عيد، مع إخوتي وأخواتي وأولادهم، كان يحلو لنا الذهاب فجراً لشراء والتهام اللحم المشوي، كان هذا واحداً من تقاليدنا المحببة، وربما متعتنا الوحيدة ﷺ العيد، وبانتظار بدء الشقاء، أي «اللف على الولايا» خلال يومي العيد، وزيارات العيد وطقوسه التي نفعل أغلبها مرغمين راضخين لإرث العادات والتقاليد، وعزاؤنا أنها فقط يومان من بين كل أيام السنة الثلاثمئة والخمسة والستين يوماً وربع اليوم.

انتهت مهمة الخبازين ﷺ غرفتنا بخبز ما علينا من الكعك بعد الثانية فجراً، وبدأ تنظيف الغرفة التي التهبت ناراً من حرارة الطقس وحرارة البلاطة، أجساد بعض من تظاهروا بالنوم تتقلب لتشي بأنهم لم يناموا بعد، بل ما زال كل منهم يغوص ﷺ مملكة ذكرياته، تركت أنا قلمي ينتظر ليرى كيف سيغدو العيد صباحاً.

قبل الصباح، بدأت تدريجيّاً تعلو تكبيرات العيد. من قسم ١٥ المجاور كان البدء، ثم امتدت إلينا ﷺ قسم ١٦، والمشاركون فيها تتزايد أعدادهم، وخاصة مع بدء فتح غرف القسم استثناءً عند الخامسة صباحاً، أي ساعة واحدة أبكر من الوقت المعتاد، لإتاحة المجال لأداء صلاة العيد.

انتهت الصلاة وخطبة العيد، الجميع يهنّئ ويسلم على الجميع، بطريقة الحلقة الدائرة الدوّارة، وبما يضمن أن كل أسير هنّأ المئة والتسعة عشر الآخرين، تلت ذلك فسحة للأكل والشرب، وصلت كمية من الحلويات كانت أعدّت ﷺ مطبخ السجن المركزي وجهزت

قبل أيام لكافة أسرى «عوفر» الألف والمئة، قهوة أعدت لتكفي جميع من في القسم، اصطفوا في طابور ليأخذ كل منهم حصته: ثلاث حبات حلويات لا يعرف لها اسم ولا حتى مكونات، كاسة عصير، ورشفة قهوة. تبدأ الأحاديث الجماعية، والثنائية، وتبدأ بهجة العيد المصطنعة بالتلاشي.

ظهراً، وفد من كبار حماس يزور إحدى الغرف التي تحضّر فيها لاستقبالهم كبار الشعبية، استقبالاً خاصّاً يليق بالمناسبة، حلويات وموالح وعصائر وقهوة، ومباهاة بكعكات الرفاق، حديث ودي ومجاملات تعكس روح المناسبة. في ساعات العصر، يتكرر المشهد تماماً، ولكن بالمقلوب، الشعبية تهنئ حماس، وحماس تتباهى «بكعكات المجاهدين». في القسم الآخر، فتح تزور حماس، وحماس تزور الجهاد، والشعبية تزور فتح، وحماس تزور الشعبية، وفتح تزور الجهاد، والكل يزور الكل.

في آخر ساعات النهار، يصل وفد من ممثلي كافة الفصائل: فتح، وحماس، والشعبية، والجهاد الإسلامي، والديمقراطية، حيث كان الوفد قد جال على كافة أقسام السجن العشرة لينهي جولته في قسمنا، كل الأسرى في القسم اصطفوا في الساحة يستقبلون الوفد الضيف، سلام وتحية وتبادل التهاني والأحاديث السريعة، ومرة جديدة، ضيافة الحلويات والموالح والعصائر للوفد التمثيلي في ختام زيارته.

شيء آخر تغير في ذاك اليوم، هو حضور غزال ثانٍ للقسم، ما أتاح لجميع الأسرى في القسم الحديث مع أهاليهم وأحبتهم لوقت أطول، سبع دقائق للأعزب، وتسع للمتزوج، تبادل التهاني وكلمات منمقة تخفي خلفها الحسرة والشجون.

انتهى اليوم، وسريعاً انتهى العيد، مثل كعك العيد، وعادت الحياة لروتينها.

يورو ٢٠١٦

صادف أن تزامنت بداية بطولة أمم أوروبا ٢٠١٦ مع بدء شهر رمضان، وباتفاق بين ممثلي الأسرى وإدارة السجن، حدثت بعض التغييرات على قائمة القنوات التلفزيونية العشر المسموح للأسرى مشاهدتها.

ولأسباب تتعلق بخصوصية ومكانة شهر رمضان، فقد تم حذف روتانا سينما وMBC 2، وبدلاً منهما، أضيفت قناتان رياضيتان عبريتان Sport5، وSport1 لإتاحة المجال لمشاهدة بطولة يورو ٢٠١٦ وبطولة كوبا- أميركا ٢٠١٦، وهو ما أسعد متابعي وعشاق كرة القدم.

تابعنا أغلب المباريات، لكن بعضها كان يتزامن مع مسلسل باب الحارة الرمضاني المتابع على نطاق واسع، لذا، فقد كانت تحدث مفاضلات، بعد نقاش ثم تصويت في كل غرفة، ولكن بالإجمال، فإن أجواء اليورو سادت وتفاعل معها الجميع وأحدثت فسحة فرح، ولكن لم تكتمل!

في الأدوار الأخيرة المهمة والحاسمة، والأكثر إثارة وجمالاً، تفتقت عقلية أبناء صهيون، فتنبهت عائلة أحد الجنود المفقودين في غزة خلال عدوان عام ٢٠١٤، الذي يعتقد أنه أحد الجنود الأسرى لدى حركة حماس، فخرجت مطالبة حكومة الاحتلال بمنع الأسرى

من مشاهدة اليورو، بدعوى أن الأسرى الفلسطينيين يعيشون في ظروف فندقية مريحة، فيما هي لا تعرف شيئاً عن «جنديها» الأسير لدى حماس!

لم تكن المسألة بحاجة لأكثر من هذا التنبيه الذي تلقفته إدارة السجون وكأنها تنبهت بالفعل لخطيئة إعطاء الأسرى فسحة من الفرح والمتعة، فقامت فوراً بحجب القنوات الرياضية ومنعها عن الأسرى، وحتى عندما كانت إحدى القناتين العاشرة أو الثانية العبريتين تبث استثناءً بعض المباريات المهمة، كانت أيضاً تحجبها وقت المباراة.

في تلك الأثناء، حضرت لذهني صورتان: الأولى صورة فعلية للجندي الإسرائيلي الأسير السابق لدى حماس جلعاد شاليط، التي نشرت بعد عملية التبادل، وظهر فيها شاليط مع آسريه يشوي اللحم في مكان ما في رمال غزة، إذ كانت تعبر عن حسن معاملة الأسرى لدى حماس، لدرجة إعطائهم فسحة في الهواء الطلق وإطعامهم اللحم المشوي كتعبير عن ظروف الأسر المريحة إلى حد كبير، أو هكذا بدا من الصورة، مقابل ظروف الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال، وهي غاية في القسوة المزوجة بالحرمان والإذلال أحياناً، وبهذا، يظهر الفارق الأخلاقي بين أبناء صهيون وأبناء كنعان، رغم أن الكثير قيل، ويمكن أن يقال، في المقارنة الأخلاقية في ظل صراع من هذا النوع وبهذا الحجم والتعقيد.

أما الصورة الثانية، فهي مجازية، فماذا لو طالب أهل أسير فلسطيني أو حتى لو أجمع أهالي سبعة آلاف أسير على حديث أو مطلب ما من حركة حماس؟ أو من السلطة الفلسطينية؟ فقد لا يسمعهم أحد، وإن سمعهم، فقد لا يستجيب، وإن أراد أن يستجيب،

فقد يجد لنفسه مئة عذر قبل أن ينفذ مطلبهم، وإن أراد أن ينفذ، فقد يأخذ ذلك وقتاً يكون معه اليورو والأولمبياد والمونديال اللاحق قد انتهى، فتصبح خطوته دون معنى.

صوت المواطن عندهم مسموع، وصوت المواطن عندنا مقموع، وصوت ذوي الأسرى عندهم يحترم، فيما صوت ذوي أسرانا لا قيمة له ولا مجيب، والأمثلة بالعشرات، وهو ما يزيدنا قهراً على حالنا وحال فصائلنا وسلطتنا.

وهنيئاً للبرتغال التي حققت اللقب، دون الدون، وشكراً لإذاعة أجيال، التي أمّنت لنا المتابعة الصوتية حين تعذرت المتابعة البصرية.

البوعز

«بوعز» جمعها «بواعز»، سألت كثيراً، بمن في ذلك قدامى الأسرى، ومن يعرفون اللغة العبرية لأستدل على معنى محدد أو مصدر للكلمة، فلم أجد أي جواب.

«البوعز» كلمة تتكرر يوميّاً بشكل مكثف يوازي كثرة استعمال «البواعز» نفسها ومشاكلها والخلل الذي يصيبها باستمرار، وهو ما يستدعي بقاء المختص التقني في الغرفة جاهزاً باستمرار لإصلاح الخلل في «بوعز» محدد، أو في كافة «البواعز»، أو في شبكة «البواعز» كلها، ويزداد الأمر عندما يحين موعد نشرة الأخبار أو المسلسلات المتابعة.

و«البوعز» هو أداة الاستماع إلى صوت التلفزيون، حيث يمنع بالعادة الاستماع إليه عبر سماعاته العادية لأسباب تتعلق بالإزعاج،

وبالأمزجة المتنوعة داخل كل غرفة، فيتم الاستعاضة عن سماعات التلفزيون العادية التي توصل الصوت للجميع، بسماعة أذن خاصة بكل أسير تتيح له الاستماع حين يشاء، أو فصلها حينما لا يرغب بالاستماع.

ويتم تصنيع «البوعز» يدويّاً من جزء من غطاء نوع محدد من أقلام الحبر الجاف تكون نهايتها مناسبة وتماثل حجم مدخل سماعة الأذن، ويتم لف أسلاك توصيل نحاسية دقيقة على جزء الغطاء، وهي أسلاك ممنوع حيازتها، لكن يتم الحصول عليها بطرق التفافية من مخلفات بعض الأجهزة الكهربائية المتعطلة، ويتم لف أحدها في مقدمة «البوعز»، والثاني في مؤخرته، فيصبح مماثلاً تماماً لمخرج سماعة الأذن «ذكر وأنثى كما يعرف بالعامية»، ومن ثم يتم إيصال سلكين متوازيين من الأسلاك الدقيقة من «البوعز» إلى مخرج الصوت في جهاز التلفزيون، وبهذا، يتمكن كل أسير من الاستماع للصوت بواسطة «البوعز» وسماعة الأذن الخاصة به دون إزعاج الآخرين، ودون حاجة لفتح الصوت عبر سماعات التلفزيون العادية.

ولأن الأسلاك المستخدمة في التوصيل وفي صناعة «البواعز» دقيقة جدّاً، ومستهلكة بالعادة، فإنها عرضة للقطع باستمرار مع أي حركة يقوم بها الأسير، كما أنها عرضة للقطع المتعمد من إدارة السجن خلال عمليات التفتيش المستمرة. لهذا، يصبح «البوعز» هو المعضلة التي لا حل دائماً أو راسخاً لها، وتحتاج لصيانة شبه يومية، وبهذا، تصبح كلمة «بوعز» هي الكلمة الأكثر استخداماً في الغرفة وطوال الفترة: «إعمل لي البوعز، صلّح لي البوعز، بوعزي معطل، البواعز كلها لا تعمل، بوعز، بواعز، بوعزي.. إلخ».

وبالطبع، فإن هناك حلاً بديلاً لـ«البوعز» ومشاكله، وهو استخدام سماعات ترتبط لاسلكيّاً بجهاز التلفزيون بواسطة تقنية «البلوتوث»، لكن ثمنها يتراوح بين ٢٥٠-٣٠٠ شيقل، وهو مبلغ كبير بالنسبة لغالبية الأسرى، وخاصة في سجن «عوفر»، حيث إن الغالبية موقوفون بانتظار المحاكمة، أو موقوفون إداريّاً، وبالتالي، لا يعرفون إن كانت الفترة المتبقية على وجودهم في الأسر تستحق إنفاق مثل هذا المبلغ على هذه المسألة. أما في السجون المركزية، حيث غالبية الأسرى يقضون أحكاماً لمدد طويلة، فإنهم يشترون هذه السماعات اللاسلكية من مرفق البيع «الكانتين»، بينما يلجأ الأسرى الذين يقضون مدداً قصيرة، أو الذين لا يعرفون بعد كم سيقضون في الأسر، أو الذين لا يملكون ثمن هذه السماعات، وهو حال معظم الأسرى في سجن «عوفر»؛ يلجأون لشراء واستخدام السماعات السلكية الرخيصة، ويتحملون بذلك استمرار تقطع الصوت، وأحياناً غيابه لبضعة أيام لحين توفر تقني قادر على إصلاح «البوعز».

علم «الدولة»

ذات يوم، دون توقع أو سابق إنذار، علقت إدارة السجن علم «إسرائيل» وإلى جانبه راية إدارة السجون في أعلى الشبك الحديدي الذي يشكل سقفاً للساحة التي يجول فيها الأسرى «الفورة»، وعلى ارتفاع نحو ٩ أمتار عن الأرض، بما لا يمكّن الأسرى من إزالتهما، وبحيث بدا العلم والراية كما لو أريد لهما أن يحجبا الشمس عن الأسرى، وأن يوضع مكانها هذان الرمزان للاحتلال وبطشه ووحشيته، ولإدارة السجون بعنجهيتها وصلفها.

كان رفض الأسرى لهذا المشهد جماعيّاً وفطريّاً، وبدأت النفوس تغلي والدماء تفور في العروق، وبدأ الهمس حول أنجع الطرق والوسائل لتخريبها وإزالتها، وقيلت العديد من الأفكار والاقتراحات، قذفها بالبيض والبندورة لمحو معالمها، قذفها بالأحذية لإهانتها أمامهم، رشها بالكلور لمحو ألوانها، وغير ذلك من المقترحات المعقولة أو المجنونة.

بالتزامن، كانت قيادة الحركة الأسيرة تجتمع بشكل سريع، تتخذ قراراً، ثم تطلب اجتماعاً مع إدارة السجن لتبليغها الموقف الواضح والحازم والموحد: «لن نقبل بها، أزيلوها وإلا ستتحملون المسؤولية والنتائج».

باتت ليلة واحدة، وصبيحة اليوم التالي، أزيلت من كافة الأقسام، فكان الشعور بأهمية وقوة الموقف والإرادة الحازمة لتحقيق الانتصار.

المطبخ

عبارة عن زاوية بالغرفة بطول متر ونصف المتر وعرض متر ونصف المتر، على أحد ضلعيها رف خشبي بمقاس ٣٠ *٦٠ سم توضع عليه بلاطة الطبخ الكهربائية، ويتسع بجانبها لإبريق أو طنجرة. من أسفل الرف يتدلى شبك بلاستيكي توضع فيه الصحون، ويعلو الرف رف آخر بنفس العرض ولكن أطول قليلا، توضع عليه الكاسات وبعض «كعاويش» المطبخ. وإلى جانبها شيء ما توضع فيه الملاعق.

أما أدوات المطبخ، فهي ثلاثة أشكال من الصحون من الملامين أو البلاستيك لاستخدامات مختلفة. مقلى كان بالأصل «تيفال»،

ولكن من فرط استخدامه بات يبدو وكأنه يعود للعصر البيزنطي. مقلى ستانلس كبير الحجم قلما يستخدم، ثلاث طناجر ستانلس جميعها مفتولة أو منقورة أو مبعوجة، تصلح لصنع الشوربات واليخاني، ولكن من الصعب طبخ الأرز فيها إذ ينتهي طبخه إلى تفاوت في نضجه السيّئ، فمن جهة معينة ينضج كثيراً لدرجة «التخبيص»، ومن الأخرى يكون أقل نضجاً لدرجة «التقريش». عصارة ليمون لا يتم استخدامها إلا ما ندر لعدم توفر الليمون أساساً. «مدقة» محلية الصنع عبارة عن قطعة خشبية بطول ٢٠ سم يتم قصها من عصا مكنسة ويثبت في أحد طرفيها غطاء قنينة، فتصبح صالحة لدق الثوم والفلفل داخل كاسة بلاستيكية مخصصة لهذا الغرض. مقورة كوسا محلية الصنع أيضا تستعمل مرة أو مرتين في السنة لندرة وجود الكوسا الصالح للحشي وقلة توفر من يجيدون صنعه، وهي عبارة عن عصا ملعقة خشبية يلف على طرفها الثاني غطاء علبة سردين ملفوفة بشكل يناسب عملية التقوير، ويتم شدها أو إرخاؤها تبعاً لحجم حبة الكوسا المتاحة، وتكون عملية نقر وطبخ الكوسا -عندما تحصل- حدثاً يؤرخ له على مستوى الغرفة. مبشرة بندورة محلية الصنع أيضاً، تصنع من علبة تونا من الحجم الكبير، يتم تخريقها من الأسفل بشكل عكسي لتبقى فيها نتوءات صالحة لعملية البرش. مناصب بارتفاعات وأشكال وأحجام مختلفة تستعمل لإبقاء مسافة فاصلة بين حرارة البلاطة الكهربائية العالية جدّاً وسيئة التوزيع، وبين الأواني التي يتم استخدامها للحصول على إنضاج هادئ ومعقول، أو لتسخين الخبز سيئ التصنيع دائماً، وهذه المناصب بمقاسات متنوعة طبقاً لأحجام المعلبات التي تصنع منها: علبة تونا صغيرة، علبة تونا كبيرة، علبة مخلل، علبة زيتون، علبة رب بندورة.. إلخ.

السكين أو ما يقوم مقام السكين، قطعة معدنية مستطيلة تقص عادة من غطاء طنجرة ستانلس وتطوى من أحد جانبيها لتسهيل الإمساك بها، فيما يسن الجانب الآخر ويجلخ باستمرار، يجب إخفاؤها بشكل جيد مرتين يوميّاً في مواعيد الدق والتفتيش عن الممنوعات، رغم أن السجان يعرف تماماً أن في كل غرفة سكيناً واحدة على الأقل.

أما سلة الخضار، فتوضع في زاوية أخرى من الغرفة قريبة من الباب لتسهيل عملية استلام الخضار والأكل، ولتكون بعيدة عن مكان الطبخ والحرارة الناتجة عنه، وهي سلة خضار بلاستيكية من أربعة أو خمسة رفوف، محتوياتها صغيرة من حيث الكميات وثابتة من حيث التنوع تقريباً، أو على الأقل في ذات الموسم، بندورة، خيار كبير الحجم عادة، فلفل حلو، فلفل حار، بطاطا، بصل، ثوم، جزر غير صالح للاستخدام عادة، باذنجان أحياناً، وكوسا نادراً. أما الفاكهة، فهي حبة واحدة لكل أسير يوميّاً، نوعها يتحدد وفقاً للموسم أو وفقاً للفائض عن حاجة السوق الإسرائيلية، فعلى سبيل المثال، كان التفاح الأخضر هو الفاكهة اليومية الوحيدة طوال شهري أيار وحزيران، وهي الفاكهة التي غالباً ما تتكدس بسبب عدم رغبة الأسرى في أكلها، أو ربما اعتقاداً من بعض الأسرى بأن هذا النوع من التفاح مخصص للإناث، أو كما يسميه البعض «تفاح النسوان».

أما الخبز، فيأتي طازجاً يوميّاً عدا السبت، بمعدل أربعة أرغفة صغيرة لكل أسير يوميّاً، سيئ الشكل والتصنيع، ما يرمى من داخل كل رغيف من العجين غير الناضج يوازي أو يزيد ما يؤكل منه.

أما باقي لوازم ومحتويات المطبخ ومكونات الطعام، مثل الأرز والمعكرونة والشعيرية وبعض أنواع المعلبات، بالإضافة إلى السكر

والشاي والقهوة، فيتم شراؤها من مرفق البيع «الكانتين».

نظام الأكل هنا من وجبتين فقط: الأولى عند الحادية عشرة صباحاً وهي في غالب الأحيان فول أو حمص، وقلاية بندورة، وإن توفرت الحلاوة أو بضع قطع من الجبنة البيضاء، وأحياناً يتم إعداد متبل كوسا أو باذنجان. أما الوجبة الثانية، فهي في حوالي السادسة مساءً، وهي الوجبة الرئيسية، تعتمد ماهيتها وجودتها على «طبّاخ» الغرفة، وعلى ما يأتي في ذلك اليوم من المطبخ المركزي، يوم لحم أحمر قطع، يوم لحم أحمر مفروم، يوم دجاج أثمان، يوم دجاج أرباع «وطني»، يوم حبش، يوم شنيتسل من نوعية رديئة، ويوم سمك فيليه من نوعية أسوأ، ويتكرر هذا الحضور بذات الأيام بما يبدو أنه منذ الأزل وباقٍ إلى الأبد.

بالهنا والشفا!

بلال .. وما بعد الخبر

لم يفرج عن الأسير بلال الكايد بعد أن قضى أربعة عشر عاماً ونصف العام في الاعتقال، أمضى آخر سنواته في العزل، بل تم تحويله للاعتقال الإداري لمدة ستة أشهر.

ورد هذا الخبر غير العادي وغير المألوف صبيحة اليوم المقرر للإفراج عن الكايد، ومباشرة كان الخبر على لسان كل أسير، وبدأت تفاعلات القضية التي كان لها ما بعدها، بدأت الهمهمات والنقاشات والاتصالات، بعض الوجوه التي عرفت الكايد عن قرب وعاشت معه جزءاً من سنين أسره كانت أكثر غضباً، وبدا بالها

قصيراً، وعروق وجهها تكاد تنفجر، بعضهم تخيل المشهد تماماً، مشهد بلال وقد قضى نحو نصف عمره حبيساً وهو يصعق بتلقيه الخبر، بينما كان يتجهز لمعانقة الحرية، ومشهد والدته وهي تنتظر معانقة ابنها، غير مصدقة وتعيش لحظة إنكار تشبه حالة الإنكار حين يحين الموت، ومنهم ربما من تخيل نفسه يعيش ذات الموقف وذات اللحظة، وخاصة من قضى سنوات تماثل ما قضاه بلال تقريباً، وعاشها مثلما عاشها بلال، دائم الحركة والعطاء، متمثلاً كل سجايا الأسير النموذج.

بدأ بلال الإضراب المفتوح عن الطعام فوراً، ومعه بدأت خطوات الإسناد المتدحرجة، وأصبحت قضيته محور حياتنا خلال السبعين يوماً التالية.

إرجاع الوجبات

أن يمتنع الأسير عن قبول وجبات الأكل التي ترد إليه من المطبخ المركزي، أي من إدارة السجن، هي خطوة تغيظ إدارة السجن كونها ترى فيها تحدياً لها. وأن يرفض الأسير طعامها، يعني أنه يرفضها ويرفض ما تقرره له، ويعني أنه يعبر عن حسه وانتمائه الوطني ويدافع عن كرامته.

ستون من الأسرى المئة والعشرين في قسم ١٦ في سجن «عوفر» كانوا يعيدون الوجبات، بينما ستون آخرون تسير حياتهم كالمعتاد، وعشرون من أسرى قسم ١٥ كانوا يعيدون وجباتهم، فيما مئة كانوا يأخذونها. كم هو مؤلم واقع الحركة الأسيرة اليوم!

ولأن الأسير الذي يرفض ما تقرره له إدارة السجن، يرفض ما تريد أن تطعمه إياه، فإنها تعاقبه، العقوبة الأولى: مقابل كل يوم يعيد فيها وجباته المقررة، يحرم من زيارة الأهل لمدة شهر. أربعون يوماً أعدنا خلالها الوجبات، كانت تعني أربعين شهر حرمان من الزيارة، كانت بالنسبة لغالبيتنا أعلى من شهور وسنوات أحكامنا. أما العقوبة الثانية، فبموجبها، تخفض قيمة المبلغ المسموح لنا بإدخاله شهريّاً للشراء من «الكانتين» إلى النصف، أي ستمئة شيقل فقط بدلاً من ألف ومئتين. والعقوبة الثالثة تقليص الساعات المسموح لنا خلالها بالخروج من الغرفة إلى الساحة أو إلى الغرف الأخرى من اثنتي عشرة ساعة إلى ساعة واحدة، كنا نقضيها بانتظار دورنا للاستحمام وغسل الملابس الداخلية. ويترافق كل ذلك مع تهديد مستمر بزيادة العقوبات وخاصة سحب الأدوات الكهربائية من الغرف، بما في ذلك المراوح، وهو ما يعني في ظل طقس حزيران وتموز وآب العيش في الجحيم، لذا، فقد هددنا بالمقابل أنه إن تم ذلك، فسنحرق الأبراش.

إعادة الوجبات لا تعني الإضراب وعدم الأكل، إذ يمكن لنا توفير جزء من طعام اليوم السابق ليومي الإرجاع المتتالين، أو الشراء مما يتوفر في الكانتين، كان هذا جدولنا خلال أول ثلاثين يوماً، يوم نأخذ الوجبات، ويومان نمتنع عنها، أي ثلثي جوع، أو نصف إضراب، فنتدبر أمرنا.

في اليوم الثلاثين لإضراب بلال وخطواتنا المساندة، كان خروج الفوج الأول من الذين بدأوا الإضراب المفتوح- المسقوف عن الطعام، عشرة رفاق كانوا الدفعة الأولى، تم عزلهم في زنازين السجن لثمانية أيام قبل أن ينهوا إضرابهم ويعودوا، فيما عشرة آخرون كانوا يتجهزون ليحلوا محلهم.

في ضيافة فتح

خلال تموز، كان يوم التفتيش الشامل للقسم، منذ الصباح، تم إخراج كافة الأسرى إلى قسم بديل بشكل مؤقت، حتى انتهاء التفتيش آخر النهار، لا شيء موجود في هذا القسم المؤقت، لا أبراش للراحة، ولا إمكانية للأكل أو صنع الشاي أو القهوة، ولا أي شيء للتسلية، هو فقط يوم عذاب ممل.

في ذاك اليوم، وبعد ضغوط على الإدارة، وافقت على استثناء ستة أسرى من كبار السن ونقلهم لزيارة قسم ١٥ المأهول وليس للقسم البديل الفارغ، كنت من بين هؤلاء الستة، هكذا كنت أصنف إذاً من كبار السن. لم تكن المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى أنني صرت من كبار السن، فالعديد ممن لا يعرفونني ينادونني «يا حج»، وعندما يأتي «الدق» اليومي إلى الغرفة، أكون الوحيد من نزلاء الغرفة الذين يسمح ببقائهم في الغرفة وقت الدق.

في قسم ١٥، قسم الوحدة الوطنية، الذي تتشارك فيه أربعة فصائل، كل اثنين منها بالتساوي، ٤٠ فتح، ٤٠ حماس، ٢٠ جهاد إسلامي، ٢٠ شعبية، استقبلنا الجميع باهتمام وحفاوة، وضيافة من الجميع تقريباً، ولكن أسرى الإخوة من حركة فتح كانت حفاوتهم بنا أكبر، خاصة أن علاقات شخصية كانت تربطنا بعدد منهم، وزيارات فردية سابقة كانت حصلت.

كانت الجلسة في ضيافة فتح أمام غرفة ١٢ الخاصة بهم، وهي ضيافة معتبرة، وحديث ودي في الشأن الاجتماعي والقضايا الاعتقالية، وحديث خاص معي في شؤون الصحافة: الحاج إياد الفروخ الذي كان قد بقي على تحرره أسبوعان من أصل عشرة

أعوام، استعان بخبرتي كي يعرف كيف يواجه الصحافة ويتعامل معها حين يتحرر. شادي شلالدة منحني حق إبداء الرأي المهني والشخصي في خواطر كان قد كتبها أثناء اعتقاله. أما الأخ فادي عطية، فقد كان سعيداً بالفعل ومستمتعاً بوجودنا واستضافتنا.

عندما حان موعد الإفطار، أصر الإخوة في فتح على استضافتنا نحن الستة، حيث كان أبناء الحركة في غرفة ١ قد أعدوا إفطاراً مميزاً، ولكن ولأن إصراراً مماثلاً من الرفاق في غرفة ٣ وغرفة ٧، فقد كان لا بد من توزيع أنفسنا حتى نرضي الجميع: اثنان منا ضيوف الإفطار في كل غرفة.

علاقة الإخوة بالرفاق، ورغم الخلاف السياسي الواسع، وحتى أحياناً في نمط الحياة داخل الأسر، تبقى علاقة تاريخ مشترك، من مقارعة الاحتلال داخل السجون وخارجها، وعشق الوطن بكل زواياه.

زيارة شاشة .. وعطر

عشر محطات تلفزيونية فقط هي التي تسمح إدارة السجون للأسرى بمشاهدتها، تنتقيها وفق معايير تتفق وعقليتها القمعية، من بين المحطات العشر في القائمة كانت محطة فلسطينية واحدة، هي فضائية «معاً» التي حظرت لاحقاً، وقد كانت بالتالي تشكل النافذة الوحيدة للأسرى على الشأن الفلسطيني، وخاصة ما يجري من أحداث في الضفة وغزة.

يتابع الأسرى فضائية «معاً» وبخاصة نشرات ومواجيز الأخبار والبرامج والفقرات الخاصة بالأسرى باهتمام عالٍ، وكذلك

شريط الأخبار المكتوبة أسفل الشاشة. الأسرى عموماً يهتمون أكثر بأخبارهم وقضاياهم، ولكنهم يهتمون أيضاً كل بمشاهدة مدينته أو قريته أو مخيمه أو مكان سكنه، أو أي شيء يربطه بالعالم الخارجي لينفذ من خلاله من فتحات الشبك الفولاذي والجدران الخرسانية التي تحيطه من كل جانب.

وعندما يرى الأسير مشهداً يعنيه، فإنه يكاد يطير فرحاً؛ يتفاعل معه كما لو كان في خضمه، يشرح لمن حوله معالم الموقع، وتضاريس المنطقة والزمان والمكان وأحياناً أسماء الأشخاص الذين يظهرون، هذا فلان، وذاك شقيق الشهيد الفلاني، وتلك والدة الأسير فلان. أما حين يظهر شخص يخص الأسير مباشرة، فتلك حكاية أخرى، وخاصة إذا ما كانت تلك «اليخص» تعني الأم، أو الأب، أو الزوجة، أو أحد الأبناء.

كنت من المحظوظين بهذا الجانب، إذ ونتيجة نشاطات وفعاليات التضامن الواسعة معي، والاهتمام الإعلامي العالي بقضيتي، بحكم كوني إعلاميّاً ونقابيّاً معروفاً لدى زملاء المهنة، فكثيراً ما كانت فضائية «معاً» تعرض تلك الأنشطة التي أرى خلالها عشرات الأصدقاء والزملاء والمعارف، وبشكل خاص زوجتي مارلين، التي لم تترك نشاطاً إلا وشاركت فيه، بالإضافة إلى استضافتها أكثر من مرة عبر شاشة الفضائية للحديث عن قضيتي، فكنت موضع حسد الأسرى وموضع فخر من رفاقي، أغلبهم يفرحون لفرحي، وبعضهم تنفتح قريحته على سيل من التعليقات، فيما أغرق أنا في ذكرياتي وعالمي الخاص وأحمد القدر الذي وهبني هذه الزوجة.

كان ذلك أشبه بزيارة من طرف واحد، سميتها «زيارة شاشة»، فهي وإن كانت مفرحة، تبقى صماء وبليدة من بلادة الشاشة نفسها،

ناهيك عن زمنها القصير عادة والقصير جدّاً غالباً.

أما بالنسبة لبقية الأسرى، فيندر أن يظهر شخص يخصهم مباشرة، وعندما يحصل ويأتي حظ أسير، فإنه يصبح أيضاً موضع تندر، وتسري حوله الأقاويل والتعليقات وتنتشر بين أصدقائه بسرعة الريح. الأسير الرفيق والصديق، زميلي على مقاعد الدراسة الجامعية منذ العام ١٩٨٢، حسن فطافطة «أبو تامر» حدث معه هذا.

كان من عادة الأسرى عندما يظهر على قناة تلفزيونية ما خبر أو مشهد يخص أسيراً أو فئة من الأسرى أو الأسرى عموماً، أن ينادي أول أسير يرى المشهد على باقي غرف القسم، وبصوت عالٍ ليسمعه الجميع، على «معاً» يا حبايب، على «الأولى» يا رفاق، على «العاشرة» يا مجاهدين، أي ينادي باسم القناة المعنية ومن يهمه مشاهدتها، ومن النادر بالطبع أن ينادي باسم شخص بعينه، ولكن هذا ما حدث أيضاً مع أبو تامر.

في تلك الليلة، صاح منير: «على معاً يا أبو تامر»، ولأن أبو تامر أسير معروف ومحبوب من الجميع، قضى أكثر من عشرين عاماً متنقلاً بين سجون مختلفة في فترات اعتقال متقطعة، بما فيها اعتقاله الحالي الذي قضى منه أربعة عشر عاماً من أصل ثمانية عشر عاماً هي مدة حكمه، فإن أجهزة التلفاز في كافة غرف القسم قد انتقلت لمشاهدة «معاً»، لمعرفة ما هو المعروض على القناة ويخص أبو تامر دون غيره.

كانت زوجته نهيل التي تعمل في مركز أبو ريا للتأهيل والعلاج الطبيعي في رام الله تظهر على الشاشة تتحدث في مقابلة ضمن

تقرير عن خلاف نقابي بين موظفي المركز ووزارة الصحة. لم يتمكن أبو تامر من مشاهدة كامل المقابلة في نشرة الثامنة مساء، ولكنه كان يعرف أن التقرير سيعاد بثه في نشرة الحادية عشرة.

في الزمن الفاصل بين النشرتين، بدّل أبو تامر ملابسه، صفف شعره، وحلق ذقنه، وتعطر بما تيسر له من عطر «أفتر شيف». هكذا قال رفاقه ممن يقيمون معه في نفس الغرفة. وأضافوا أنه جلس طوال الوقت على «برشه» ينتظر «نهيلَه» على نشرة الحادية عشرة.

حضر المقابلة كاملة، انفرجت أساريره وظهرت غبطته، وبدأ سيل التعليقات والتأويلات ليلاً، وحُرّفت الرواية، كل يضيف إليها ما يشاء، أو ما يتخيل. واستمر ذلك إلى يومنا هذا، فأضحت قولاً مأثوراً: «أبو تامر وزيارة الشاشة والعطر».

ورقة وقلم

طبيعة مهنتي كإعلامي تفرض عليّ مواكبة التطورات التكنولوجية المتسارعة، لا سيما في عالم الاتصال والتواصل، فعرفت الكمبيوتر واستخدمته مبكراً، ومنذ سنوات طويلة، أصبح اللابتوب رفيقي الدائم، ألفتُ النقر على الماوس، والضغط بأصابعي على الكيبورد، لأعبر عن رأيي ورؤيتي ومواقفي، فهذا مصدر رزقي، كما كثيرين غيري من الصحافيين، وبهذا، فقد نسيت تقريباً ذاك الصديق القديم المسمى قلماً، ولم أعد أمتع نفسي بملمس الورق إلا ما ندر، لكتابة رقم هاتف مثلاً، أو ملاحظة سريعة، وهذا يشمل أيضاً القراءة، إذ لم يعد الكتاب ولا حتى الصحيفة الورقية رفيقة قهوة الصباح أو مفتاح بدء يوم العمل، بل باتت المواقع الإلكترونية مصدر

معرفتي، والبريد الإلكتروني آلية تواصلي مع عالمي.

فجأة، وكما أعادني اعتقالي هذا إلى واقع لم أعشه منذ ٢٨ عاماً، عندما تحررت من آخر اعتقال لي إبان الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٨، فقد أعادني الاعتقال أيضاً إلى رفيقيّ القديمين: الورقة والقلم. عاد الكتاب بملمسه الساحر، والدفاتر المكتوبة بخط اليد بما يحمله مضمونها وشكلها من معانٍ، مصدر ثقافتي ومعارفي، وعادت الصحافة الورقية، وخاصة الإنجليزية والعبرية المسموح بدخولها للأسر هي نافذة متابعتي للخبر وفنون العمل الصحافي الأخرى، وعادت الورقة والقلم والدفتر الذي يشبه الدفاتر المدرسية القديمة ذات الأربعين ورقة هي أدوات إيصال أفكاري والتعبير عن آرائي ومواقفي وما يجول في خاطري، بما في ذلك في كتابة هذه الصور القلمية التي أكتبها بأقلام الحبر الزرقاء أو السوداء، وأضع عناوينها باللون الأحمر للتمييز، وقد أفرغت ما في جوف هذه الأقلام من حبر على دفتر مسودة كي أعدل وأحرر وأعيد صياغة ما كتبت، ثم أقوم بتبييضها على دفتر آخر قد يمر عبر رقابة أمن السجن ويمهر بختم «مسموح بإخراجه»، وبنسخة أخرى على قصاصات ورق خفيف يحملها الحمام الزاجل في حال رفض الغربان السماح بإخراج الدفتر، فإن كنتم تقرأون الآن هذه الكلمات، فهذا يعني أنني قد نجحت، بهذا الطريق أو ذاك.

لا أحد هنا يتحدث عن الإيميل كأداة للتواصل، لا أحد يكتبه ولا أحد ينتظر أن يصله، ولا أحد يعنيه إن توفرت خدمة الإنترنت ومدى جودتها وسرعتها، ولم يعد الموظفون النمطيون في الشركات المزودة لخدمات الإنترنت يطلبون من أحد هنا عمل إعادة تشغيل «ريستارت» للراوتر عندما تسوء أو تنقطع خدماتهم لسبب لا علاقة

له عادة بـ«الراوتر»، فهنا يتم التواصل والمراسلات بقصاصات ورق تمر من غرفة لأخرى، علناً أو سرّاً وفقاً لمحتواها، فيما التواصل بين سجن وآخر يتم من خلال «كبسولة» يحملها أسير منقول بين هذا السجن وذاك، يخفيها عن السجان إما بابتلاعها أو وضعها في قفاه، فيصل البريد بالحالتين «معطّراً» بعبق الفول المتأكسد مع البيض.

لم تعد المواقع الإلكترونية ملجئي للمعرفة، إلا عبر فقرة قصيرة تبثها فضائية «معاً» عبر برنامج صباحي تتصفح خلالها الصحافية مقدمة الفقرة بعض عناوين المواقع.

لكن وخلافاً لذلك، فإن موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» بقي حاضراً وبقوة، وسأقول لكم كيف.

«**فيسبوك**»

رغم غياب كل وسائل وأدوات الاتصال الإلكتروني، بما في ذلك المواقع الإلكترونية، أو حتى الحديث عنها، إلا أن موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» كان حاضراً بشكل ما، لا أحد يتصفحه أو يقرأ التعليقات «البوستات» على صفحاته، ولا أحد يشاهد ما ينشر عبره من صور أو مقاطع فيديو، كما لا يمكن لأحد بالطبع أن يعبر من خلاله عن موقفه أو رأيه أو تجربته، ولكنه موجود وحاضر.

«الفيسبوك» حاضر هنا في لوائح اتهام العديد من الأسرى، إذ أصبح مع الاحتلال الإسرائيلي «الديمقراطي جدّاً» استخدام الفيسبوك من الجرائم التي توجب العقاب، وباتت تهمة «الفيسبوك» ترد في

لوائح الاتهام كما ترد تهم إلقاء الحجارة والزجاجات الحارقة أو الأكواع أو الانتماء إلى واحد من الفصائل التي يصنفها الاحتلال باعتبارها فصائل محظورة.

ولتهمة «الفيسبوك» تسعيرة لها حدود دنيا وعليا، أي فترة حبس محددة تتراوح عادة ما بين ثلاثة أشهر واثني عشر شهراً، وربما تضاف إليها غرامة مالية، وهذا يأتي تبعاً للجريمة «الفيسبوكية» التي يكون قد ارتكبها الأسير، مثل التحريض من خلال نشر صورة أو شعار، أو من خلال كتابة بوست محدد، أو «شير» أو «لايك».

ويعتمد «سعر» مدة الحكم تبعاً لعوامل عدة، ذات أبعاد فيسبوكية تقنية، مثل عدد الذين وضعوا «لايك» لهذا «البوست التحريضي»، وكم عدد الذين علقوا عليه، وكم عدد الذين أعادوا نشره، وهل «البوست» أصيل، أي كتبه المتهم بنفسه، أم أنه فقط أعاد نشره. أما الاعتبار الأهم، فهو كم عدد متابعي صفحة المتهم، أو أصدقائه الافتراضيين على صفحته، فكلما زادوا، زادت مدة الحكم.

وتعتمد «تسعيرة» مدة حكم متهمي «الفيسبوك» أيضاً على المحامي الموكل عن الأسير، فهناك محامون بارعون في صد تهم «الفيسبوك»، أو هكذا يعتقد بعض الأسرى «الفيسبوكيين». وتختلف «تسعيرة» الحكم أيضاً تبعاً لزمن ارتكاب الجرم الفيسبوكي: هل ارتكب قبل إقرار «قانون الفيسبوك» أم بعده؟ وهل ينطبق الجرم تماماً مع نص القانون أم فقط مع روحه، فينطبق عليه القياس لا النص القاطع.

وتعتمد القضية كلها على اعتراف «المجرم» «بفيسبوكه»، وهل يقر المتهم بأنه في الواقع هو ذات الشخص مرتكب الجرم بالعالم الافتراضي «الفيسبوكي»، أم أنه هو ليس ذاته بل غيره، فقط تشابه

أسماء، أو انتحال شخصية، أو أحد ما كان قد سرق «فيسبوكه»، وتفاصيل تقنية أخرى لا حصر لها.

وبهذا، فقد تحول «الفيسبوك» من موقع للتواصل الاجتماعي كما أراد له مؤسسه «مارك زوكربيرغ»، إلى مصيدة لزج الشبان بالأسر ومعاقبتهم على استخدامهم لبدعة مارك الذي وصفه وزير الأمن الداخلي في حكومة الاحتلال جلعاد أرون بأن يديه ملطختان بدماء الإسرائيليين.

من يعش رجباً، يرَ عجباً!

شكر الله سعيكم

هاجس فقدان قريب أو عزيز لأي أسير يبقى هاجساً ماثلاً كل الوقت، وخاطراً في بال أي أسير، ومع كل اتصال مع الأهل أو زيارة، يكون سؤالهم التقليدي «شو في أخبار؟»، وكأنه استفسار مبطن عن ذلك، أو عما إذا كان قد حصل مكروه لأي أحد، والخشية دائماً أن يكون مكروه قد حصل لأحد دون أن يدري به الأسير، ويصبح فارق توقيت العلم أو المعرفة بالخبر وكأنه أحد تجليات الأسر.

حيران جرادات كان قد وصل إلى سجن «عوفر» قبل عشرة أيام، وكان شقيقه عريف جرادات قد استشهد قبلها بفترة قصيرة، فكتب ينعيه على طريقته الخاصة على صفحته على الفيسبوك، وكتب مشاعره وما يجول بخاطره، ورغم أنه لم يمضِ على استشهاد الشقيق سوى أقل من شهر، لكن ذلك لم يشكل شفاعة لدى الاحتلال، بل كان سبباً إضافيّاً لأجهزة مخابراته للانتقام من العائلة، فكان

اعتقال حيران.

بعد أسبوع على وصوله، وكان حيران يومها قد خرج من القسم إلى جلسة محكمة، ومعه بالطبع عدد من الأسرى، أبلغ محامي حيران أحد الأسرى بوفاة والد حيران لكي يبلغه بدوره بالخبر بطريقة لائقة قبل دخول حيران قاعة المحكمة، إذ إن المحامي ارتأى أن يعلن خبر الوفاة خلال جلسة المحكمة عل ذلك يستدرّ بعضاً من عطف أو مشاعر مفقودة لدى أركان العدالة في كيان العدالة الغائبة، وهو في الوقت ذاته لا يريد أن يصدم حيران بالخبر الفاجع داخل قاعة المحكمة.

عاد الأسير الذي علم بالخبر دون أن يلتقي مع حيران، ولم يتمكن بالتالي من إبلاغه، وبالطبع نقل الخبر للمعنيين من أصدقاء حيران ونزلاء غرفته، فيما بقي حيران بانتظار موعد محكمته التي تأخرت كثيراً، ولم نعرف نحن فيما إذا كان المحامي قد أخبر حيران بوفاة والده أم لا.

كنت على معرفة سابقة مع شادي شقيق حيران، وهو ما جعل علاقتي مع حيران ذات طابع خاص، رغم قصر الوقت الذي جمعنا، وهو أيضاً ما شدني أكثر إلى القصة، فكنت من بين من طلب منهم إبلاغ حيران ومواساته بفجيعته فور عودته من المحكمة.

انتظرنا إلى ما بعد السادسة، وهو موعد إغلاق القسم، كانت عيوننا شاخصة كل الوقت باتجاه الباب الخارجي، لقراءة حيران حين عودته وتقدير ما إذا كان قد أبلغ بالخبر أم لا.

دخل أخيراً، وكان دخوله وتفاعله مع عمال الساحة عاديّاً لا يوحي بأنه يعرف شيئاً، وبعد أن تأكدنا من ذلك من سلوكه، طلبنا إليه الذهاب للاستحمام، في هذه الأثناء، تجمعنا نحن المعنيين بإبلاغه

في إحدى الغرف استثنائيّاً، إلى أن أنهى حمامه وعاد إلينا، أحسّ فور دخوله ورؤيته لنا مجتمعين بصمت وخشوع، وفي وقت يفترض أن يكون كل منا في غرفته، بأن مصاباً قد حدث، جرّعناه فجيعته، فأصبنا نحن بفاجعته وسالت الدموع.

لم يتح لنا الوقت المتبقي على الإغلاق النهائي للغرف، امتصاص حزنه وتجفيف دموعه، فأعدناه إلى غرفته، وعهدنا إلى أبو نضال إكمال المهمة، وعاد كل منا إلى غرفته يحمل حزناً ثقيلاً، ويتخيل ذاته بنفس الوضعية، ترى أي عزيز قد يفقد وهو في الأسر!

صباحاً، أتيح لحيران الاتصال بوالدته وأسرته ليتشاركوا ألم الفراق، والنقمة على احتلال يمنع الناس حتى من البكاء سوية، ويمنع شابّاً من وضع حفنة تراب على جسد والده، إو إلقاء وردة على قبره.

بعد صلاة الظهر، كان العزاء الرسمي.

حيران وبضعة من أصدقائه ورفاقه يتجمعون في غرفة ٥ في الطابق الأرضي من القسم، والأسرى يدخلون معزين ومواسين واحداً تلو الآخر: عظم الله أجركم. شكر الله سعيكم. ويخرجون وبيد كل منهم رشفة قهوة سادة. وبعد انتهاء المراسم، عدنا نشدّ من أزره ونرتشف بعضاً من حزنه، ونترك له تجرع العلقم الذي أحسسنا بمرارته.

المنشفة هي الهوية

أربعة عشر حمّاماً مخصصة للاستحمام في كل قسم، سبعة في كل طابق، أي حمّام واحد لكل تسعة أسرى، وهي نسبة معقولة،

لكن الحمامات السبعة فى الطابق العلوى لا تستعمل للاستحمام، بل مخصصة بقرار من الأسرى لـ«الغزال»، وإدارة السجن تعرف ذلك بالطبع وتغض الطرف، فيما يشبه اتفاقاً ضمنيّاً صامتاً بين الأسرى وإدارة السجن، وبهذا، يصبح المتاح حمّاماً واحد لكل ١٨ أسيراً، وهي أيضاً نسبة معقولة فيما لو توزعت مواعيد استحمام الأسرى على مدى ساعات النهار التي يمكنهم خلالها الوصول إلى الحمامات واستخدامها، وهي حوالي عشر ساعات يوميّاً، ولكن في واقع الأمر، فإن غالبية الأسرى يفضلون الاستحمام في ساعات المساء قبيل الدخول النهائي إلى الغرف، وبعد أن يكونوا قد أنهوا يومهم، ومارس أغلبهم الألعاب الرياضية، وهو ما يخلق أزمة على الحمّامات، وبالتالي ضرورة حجز دور، خاصة أن البعض يألف أو يرتاح في حمام معين دون غيره.

عند حجز الدور، يأتي الأسير وينادي على الأسير الذي يستحم داخل الحمام المحدد، ينادي عليه باسمه دون أن يكون قد رآه، يسأله عن الذي يليه في الدور ويحجز له دوراً، في البداية، كنت أعجب كيف يعرفون من هو الشخص الذي يستحم في الداخل دون أن يروه، ولكن مع مرور الوقت أصبحت مثلهم، أعرف من هو الأسير الذي يستخدم الحمّام دون أن أراه، فأحجز لنفسي دوراً، فالمسألة بسيطة ولا تحتاج إلى كثير من الفطنة والذكاء، فمع مرور الوقت، تصبح المنشفة الخاصة بكل أسير معروفة للجميع، فهو يخرج من غرفته وهو يضع منشفته على كتفه عادة، ثم بعد أن ينهي استحمامه يحملها ليضعها على المنشر العام الموجود في الساحة، ومع مرور الوقت، يصبح شكل وحجم ولون وزخرفة المنشفة مرتبطة بالأسير، ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة ودون قصد طبعاً، ولكن تكرار السلوك يوميّاً يؤدي إلى ذلك، وعندما يكون الأسير داخل الحمام، فإنه

يضع منشفته على الماسورة العليا المخصصة لحمل الستارة في كل حمّام، نصفها من الداخل ونصفها الثاني يمكن رؤيته من الخارج، وبالتالي، فإنه يمكن معرفة من هو الأسير الذي يستحم من خلال ما يظهر من المنشفة، فتكون منشفته بمثابة هويته.

«سوهير» باللبن والبيض

من المعتاد أن تبادر إدارة السجن إلى إعلان حالة الاستنفار، ويتم ذلك من خلال إطلاق صافرات خاصة عبر السماعات المثبتة في كافة أقسام السجن، وعند إطلاق هذه الصافرات، فإن إجراءات عديدة تتبع ويعرفها الأسرى يجري اتخاذها تلقائيّاً، أساسها دخول كافة الأسرى إلى غرفهم فوراً، حتى لو حصل الاستنفار أثناء الأوقات المحددة للفورة «الفسحة»، التي يسمح خلالها للأسرى بالتواجد خارج غرفهم، أو بزيارة الغرف الأخرى. وبعد إدخال الجميع للغرف، يتم عدهم مرة إضافية إلى جانب مرات العدد الثلاث التي تتم يوميّاً بأوقات ثابتة، وعند الاستنفار، قد يتخذ إجراء إضافي بتشخيص الأسرى عبر قيام ضابط القسم بالتوجه إلى كل غرفة، والتأكد أن من فيها هم ذاتهم المسجلون فيها رسميّاً، حيث تجري مقارنة الصورة المثبتة على بطاقة كل أسير مع شخصيته للتأكد من أن كل أسير موجود في غرفته المسجل بها.

وصافرة الإنذار وإعلان الاستنفار يتمان إما في سياق تدريب روتيني يتم بشكل أسبوعي تقريباً، وفي هذه الحالة، فإن الأسرى يعرفون ذلك من خلال تصرفات السجانين وعدم جديتهم في التعاطي مع حالة الاستنفار رغم اتباعهم لكل الإجراءات الروتينية. أما عندما

تطلق الصافرات لوقوع استنفار حقيقي يتعلق بوقوع حادث ما في السجن، أو حتى في أي سجن آخر، فإنه بهذه الحالة يكون الاستنفار جدياً ويرتدي جميع السجانين والضباط الستر الواقية والخوذ ويهرعون حاملين الدروع الواقية والصادة للهجمات ومدججين بكل وسائل القمع من العصي الكهربائية وأنابيب الغاز المدمع والخانق وخراطيم المياه، ويبدو على وجوههم التأهب والحذر، وعلى سلوكهم الارتباك والخوف والعنجهية أحياناً.

أما في ذلك اليوم، فقد كان الأمر مختلفاً، إذ وقع الحدث أولاً، هنا في سجن «عوفر»، ومن ثم تلاه إطلاق صافرات الإنذار وجرى الاستنفار. ففي قسم ١٥ الملاصق لقسمنا، حيث يشترك القسمان فى نفس العيادة الطبية ونفس السجانين والطاقم الأمني، حيث من السهولة التواصل بين القسمين كما في كل قسمين متجاورين. أحد الأسرى في قسم ١٥ كان يعاني من مرض السكري والديسك الحاد، بدأت آلامه تشتد عليه، ما استدعى نقله بشكل عاجل للعيادة الخاصة بالقسمين، التي تنفصل عنهما بالشبك الحديدي فقط، بعد معاينة من طبيب السجن قرر أنه لا بد من استدعاء سيارة إسعاف مجهزة لنقله إلى المستشفى خارج السجن، طال انتظار وصول السيارة إلى أكثر من ٤٥ دقيقة، وأخذت حالة الأسير تزداد سوءاً، إلى أن أصيب بالإغماء، فاعتقد مرافقه أنه فقد الحياة، فبدأ يصيح على الأسرى بالقسمين، وبدأ الاستنفار هذه المرة من جانبنا؛ طرق على الأبواب ممن هم داخل الغرف، وهزّ للشباك وتهليل وتصفير ممن هم في الساحات الخارجية، وهرول بعض الأسرى لارتداء أحذيتهم الرياضية وبساطيرهم، خرج من كان في الحمامات دون أن ينهوا استحمامهم أو حلاقة ذقونهم، وقام المكلفون بإخلاء «الغزلان» إلى

مخابئها الإستراتيجية.

كان استنفاراً حقيقيّاً من الدرجة العليا طالما يتعلق الأمر بحياة أسير يموت أمام أعيننا بسبب التلكؤ في علاجه، ومن خلف الشبك الذي يفصل الأسرى عن السجانين، بدأ الأسرى بإلقاء ما وصلت إليه أيديهم لحظتها باتجاه السجانين المناوبين؛ أحذية وقطع صابون وبيض وعلب اللبن، فأصيب أحد السجانين أكثر من غيره، وبعد أقل من دقيقة، بدا غارقاً بالبيض واللبن.

عندها، أطلقت صافرات الإنذار، وفي غضون لحظات، بدأ الاستنفار المعاكس، عشرات الضباط والسجانين وضابط أمن السجن بكامل عتادهم كانوا على أبواب القسمين، ولكن قبل أن تتطور الأمور أكثر وتزداد سخونة، اتضح أن الأسير لا يزال على قيد الحياة، وتكلم إلى مرافقه، وهو ما هدأ من روع الحالة، فتوقف الضرب والطرق والتهليل، وشيئاً فشيئاً، تنفس الجميع الصعداء ووصلت سيارة الإسعاف ونقلت الأسير المريض، ولكن استنفار الإدارة استمر، وطلب منا الدخول إلى الغرف، فلم نستجب إلا بعد أن تأكدنا تماماً أن حالة أسيرنا المريض غير خطرة ولا تدعو للقلق، فانتهت حالة الاستنفار من جانبنا، وبقي السجان يترنح بالبيض واللبن.

صادف وقوع الحادث عشية عيد الغفران اليهودي، فأغلقت إدارة السجن قسم ١٥ ومنعت الحركة داخله، ومنه وإليه، إلى أن انتهى العيد بعد يومين، حينها لجأت الإدارة وبعد حوار مع ممثلي الفصائل إلى عزل ٩ أسرى فى الزنازين لمدة ٣ أيام كتسوية مهدت لإغلاق ملف الحادثة، وبعدها، عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي.

أولاد العرس

كما في الأعراس، حيث يتواجد بعض الأطفال والفتية أمام بيت العرس أو قاعة الفرح، ينتظرون بلهفة نصيبهم مما يوزع في الداخل من حلويات ومشروبات غازية وعصائر، يأتون بفضول وخجل، ويمدون رؤوسهم على استحياء وينظرون بلهفة واشتهاء إلى داخل القاعة، وأعينهم تبحث عن الطاولة أو الزاوية التي تحتوي على الضيافة، يبقون على هذا المنوال إلى أن ينالوا قسطهم، يلتهمونه بسرعة ولا يستكفون، فيعيدون الكرة مرة ثانية وثالثة وعاشرة إلى أن يكتفوا أو يطردوا. يتابعون الخارجين من القاعة الذين يحملون بأيديهم ما تم توزيعه، عسى أن ينتبه لهم أحد فيعطف عليهم ويعطيهم ما بيده. ويبقون على هذا المنوال إلى أن تمتلئ بطونهم، وهي لا تمتلئ، أو إلى أن ينتهي العرس فيذهبوا بانتظار العرس القادم، أيّاً كان صاحبه وأينما كان مكانه، فهم مختصون بالأعراس والمناسبات السعيدة، بل وربما الحزينة أيضاً طالما وجد فيها ما يؤكل.

هكذا كان حال خليل في السجن.

تحدث مناسبات عديدة يتم خلالها توزيع ما تيسر من أنواع الحلويات، إما حلويات جاهزة يتم شراؤها من الكانتين، وإما ما يقوم الأسرى بتصنيعه ويطلقون عليه تسميات تماثل ما يناظره في الخارج، مع أن المحتويات وطريقة التصنيع لا تتماثل معها، فلا كنافة السجن كنافة، ولا الهريسة هريسة، ولا البوظة بوظة، ولكن هكذا اتفق أن تسمى، ويتعامل معها الأسرى وكأنها كذلك.

وتختلف «الخيرات» التي توزع عادة على كل الأسرى في القسم، تبعاً للمناسبة وأهميتها، مثل الأعياد الدينية والوطنية، وذكرى

انطلاقات الفصائل، ومناسبة خاصة لأسير أو أحد أقربائه مثل الولادة أو التخرج من الجامعة أو التوجيهي، أو حين الإفراج عن أحد الأسرى، إذ جرت العادة أن يتم تنظيم وداع لكل أسير عشية الإفراج عنه، ويقوم هو على نفقته بتوزيع الحلوى ومشروب بارد أو ساخن على كل من في القسم الذي يتواجد فيه، وفي هذه الحالة، فإن نوعية وكمية الحلوى التي توزع تعتمد على الفترة التي يكون قد قضاها الأسير في اعتقاله، وكذلك على إمكانياته المادية، حيث تبرز هنا الفوارق الطبقية، وإن بشكل محدود.

كان خليلٍ «قناصاً» ماهراً في تتبع مثل هذه المناسبات، لا تفوته أي منها أبداً. كان يحوم حول الغرف المستهدفة، ثم يغوص فيها للقيام بواجبه بالتهنئة أو تقديم العزاء، يأخذ حصته فيما عيناه تجولان بشكل سريع على ما يوزع لتقدير إن كانت هناك كميات إضافية، تتيح له أن يعود ثانية بعد أن ينتهي الجميع ليأخذ حصة أو حصصاً إضافية، وسواء حصل على حصص إضافية أم لا، فإن لديه خياراً آخر. بطريقته الاستخباراتية، كان يعرف أذواق ورغبات الأسرى في القسم، من منهم يأكل هذا الصنف ومن لا يأكل ذاك، من منهم مريض بالسكري ولا يأكل الحلويات، ومن منهم يعاني من ارتفاع الكولسترول ولا يناسبه طعام معين مثلاً، وكان يعقد اتفاقات مع مثل هؤلاء، اتفاقات من طرفه فقط، ولكنه يكون ملزماً للطرف الآخر حسب فهم خليل، ووفقاً لتعاقدات خليل، فإن كل أسير لا يأكل أي صنف أو أي مادة، فإنها تصبح من حق خليل، يقف خارج الباب تماماً ينتظر «المتعاقَد» معهم، يلاحقهم بنظراته وكأنه يسأل عن حقه المكتسب بموجب هذا «العقد» الأخلاقي أحادي الطرف، وإذا ما صدف وأن قام أحد الأسرى «المتعاقد» معهم بتجاهله أو أكل ما حصل عليه، فإنه ينظر إليه بعتب وغضب وكأنه سارق أو معتدٍ على حقه.

أما إذا كانت المناسبة أو الدعوة إليها خاصة ومحصورة بعدد محدود،

فإنه يبقى يحوم حول باب الغرفة التي تقام فيها المناسبة، كما النحلة التي تحوم حول رحيق زهرة إلى أن تنقض عليها، ففي كل مرة يمر فيها من أمام الباب أو الشباك، يدخل رأسه أو عينيه وكأنه يسأل عن حقه، ولا يكلٍ من فعلٍ وتكرار حركته إلى أن ينال نصيبه. أما إذا ما تمٍ تجاهله عفواً أو قصداً، فإنه يلوم ويعتب، وقد يشتم في داخله أو علناً.

وبالإضافة لذلك، وحين يمر يوم دون مناسبة، فإن مكان تواجد خليل الرئيسي والدائم هو أمام باب الكانتين، وعندما يدخل أي أسير «متعاقد» معه أو «يمون» عليه، فإنه قد يدخل معه أو يتبعه مباشرة ليعرف ماذا سيشتري ويفرض حضوره وكأنه يسأل عن نصيبه، أو ينتظره خارجاً ومن ثم يتتبعه إلى حيث يذهب لينال منه نصيبه، وبعد ذلك يعود مجدداً إلى مكانه حول باب الكانتين وكأنه جابٍ يحصل ضريبة إجبارية على كل مشترٍ لشيء لذيذ.

وفى فترات إغلاق الكانتين أو ندرة زبائنه، فإنه يجول على الغرف، يلقي التحية على من فيها، وقد يسألهم إن كان يعوزهم شيء أو خدمة ما، ولكنه يقصد بالطبع أن يسألهم إن كان لديهم شيء ليأكله، وبات سلوكه هذا أشبه بكلمة السر التي يعرف الجميع مغزاها، فيقدمون له ما توفرٍ، فيما هو لا يرفض شيئاً، ولا يكلف نفسه أن يجامل أو يشكر أحداً، وكأن كل ذلك حق له وواجب على الآخرين.

«ملعون أبو الفقر والحرمان».

يعقوبيات

١- حمد الله: كان يعقوب على «البركة» كما يقال، ذا وجه طفولي بشوش، لطيفاً خفيف الظل، كان نحيلاً صغير الحجم خفيف

الوزن، يبدو من سلوكه أنه من بيئة كادحة في إحدى حواري مدينة الخليل.

كم يشبه حنظلة، على الأقل شكلاً، وإلى درجة ما مضموناً، ناديته ذات يوم باسم حنظلة، فاستجاب، استغربت، هل يعرف حنظلة؟ فهو ليس من زمن ناجي العلي، ولم يعتد متابعة رسوماته الكاريكاتورية كل صباح، سألته إن كان يعرف حنظلة، فأجاب: نعم.

بحث في زوايا الغرفة، فوجد رسماً لحنظلة وقال «هيّوته»، هذا هو حمد الله.

٢- السلطة المفيدة: عدد من لا يجيدون القراءة والكتابة لتسربهم من المدارس بسن مبكر بسبب ظروف مختلفة أهمها الفقر والعوز، كانوا يتلقون دروساً في محو الأمية اللغوية، يتعلمون ألف باء، دار دور، وراس روس، يتعلمون كيف يقرأون وكيف يكتبون وكيف يكوّنون جملاً.

ذات يوم، طلب حسن، وهو أحد الذين يعطون دروساً، طلب من تلاميذه صياغة جملة مفيدة، أعطاهم كلمات بسيطة من وحي ما هو موجود فى عالمهم، عالم الأسر، نظر حوله فوجد حبات خيار في سلة الخضار، فخطر بباله، فسأل يعقوب، وهو أحد تلاميذه، أن يكوّن جملة مفيدة باستعمال كلمة خيار، أجابه يعقوب بسرعة وتلقائية كمن يثق تماماً بصحة جوابه «سلطة». أبدى حسن وباقي التلاميذ دهشتهم من الجواب، ونظروا إلى يعقوب باستغراب عرف من خلاله أنهم بحاجة لتوضيح أكثر لجوابه، فأضاف: «نعم، السلطة مفيدة، مفيدة جدّاً! صحيح أن الخيار من مكونات السلطة المفيدة، وليس بالضرورة وضعه في جملة، إذ يكفي وضعه في إناء مع أشياء أخرى لينتج سلطة مفيدة.

٣- والد يعقوب زوج أمه: كان يعقوب لأسباب وراثية عائلية، لا يجيد التحدث بجمل طويلة، كلمتان أو ثلاث من الجملة، ويتوقف بعض الوقت ليستجمع باقي كلمات الجملة ويكملها، وأحياناً تضيع الفكرة منه فلا يكمل، وكان يفترض أن من استمع إليه قد فهم المغزى، وفي كثير من الأحيان كان لا يقطع الجملة مع نهاية الكلمة، بل في وسطها، يقول كلمتين ونصف الكلمة ويتوقف، ويكمل النصف الثاني من الكلمة في الشطر الثاني من الجملة، بما يشبه الشعر العمودي الذي يجوز فيه شطر الكلمات إلى جزئين.

خلافاً لكل البشر، فقد بدأ يعقوب النطق والكلام وهو في الثانية عشرة من عمره، خاسراً نحو عشر سنوات من عمره دون أن يجد الكلام مخرجاً من بين شفتيه.

كنا نتفهمه ونسايره ونحاول تعليمه أحياناً، كما نضحك لطريقة كلامه أحياناً أخرى، ولكن خطر في بال «الشمبر»، وهذا لقب لاسم أسير، يوماً ما أن يعرف فيما إذا كان لذلك علاقة بزواج الأقارب وأن تكون لحالة يعقوب علاقة بوراثة إعاقية نتيجة زواج الأقارب، فسأل يعقوب «شو بقرب أبوك لإمك؟». دهش يعقوب، ورأى السؤال سخيفاً، ورأى في «الشمبر» شخصاً غبيّاً، فأجابه بتلقائية: «جوزها»، فضحك «الشمبر» وضحك كل من كان يسمع الحوار، فأبدى يعقوب مزيداً من الاستغراب، وبمزيد من الاستخفاف بالسؤال وبردة فعل «الشمبر» على إجابته، تمتم: «شو ماله الشمبر؟، شو يعني بدو يكون أبوي بقرب لأمي غير جوزها؟!». وأشار بيده إلى رأسه بحركة توحي أن «الشمبر» مجنون أو فقد عقله.

كثيراً ما تحدثنا فيما حصل، ونقلنا القصة لأشخاص كثيرين أمام يعقوب، وفي كل مرة يضحك كل من يسمعها، وفي كل مرة يبدي يعقوب نفس ردة الفعل، ويتعزز اعتقاده بأن السؤال سخيف، وأن الإجابة

بديهية: زوجها. ولم يدرك بعد لماذا نعيد القصة ونضحك كل مرة ويضحك من يسمعها.

٤- هدف لحماس: كنت أتابع إذاعيّاً مجريات مباراة الذهاب بين فريقي برشلونة وخصمه في دوري أبطال أوروبا مانشستر سيتي. سجل الهدف الأول ليونيل ميسي، وكذا الثاني. كان يعقوب من عشاق برشلونة كما يقول، لكنه لم يكن يعرف أي شيء عن الفريق أو أي من نجومه سوى ميسي. أعتقد جازماً أن سبب عشقه للفريق ينحصر في سهولة حفظه ولفظه لاسم ميسي. أما اسم أي لاعب آخر من برشلونة أو غيره من الفرق، فلم يكن ممكناً عليه.

كان يعقوب يتابع معي التعليق الصوتي على المباراة، وكان في الوقت ذاته يتابع فيلماً على شاشة التلفزيون، وعندما سجل ميسي هدفه الثالث وعلا صوت المعلق واستطال «جووووووووول»، انتبه يعقوب إلى أن هناك هدفاً تم تسجيله، وبعفوية وتلقائية انفعل وصفق، وسألني بلهفة وبصوت عالٍ سمعه جميع من في الغرفة: مين جاب الجول؟ حماس. غشينا من الضحك مطولاً، وبتنا ننسب كل هدف يسجل في تلك المباراة وغيرها من المباريات التالية إلى أحد التنظيمات الفلسطينية، ولكن حماس «ميسي» كانت الأكثر تسجيلاً، ولعلها ستحصل على لقب «هداف الدوري».

٥- وجع الفصائل: كان يعقوب من ضمن المشاركين في الإضراب التضامني عن الطعام. أضرب مع عدد من رفاقه مدة سبعة أيام قضوها في زنازين العزل، وتقاسموا خلالها آلام الإضراب بأشكاله وبمواضعه المختلفة.

عندما أنهوا الإضراب وعادوا إلى القسم، سلمت على يعقوب وهنأته على صموده وصلابته، اطمأننت على صحته وسألته عمّا واجهه من معاناة وآلام، فأجاب وهو يشير إلى مفاصل يديه: «لم أشعر بأي شيء سوى وجع الفصائل».

أسامة نزال

الألبوم الثاني

الجوع إيمان وإرادة

إذا امتلأت المعدة..
نامت الفكرة

الإضراب

للإضرابات عن الطعام في السجون أشكال متنوعة تبعاً لأسبابها المختلفة، وهي بمجملها تعتبر أعلى درجات الاحتجاج أو الرفض لقرار أو إجراء ما تهدف لكسره، أو لتحقيق مطالب حياتية معينة، وأحياناً تكون الإضرابات ذات طابع سياسي، وتهدف للتعبير عن موقف رافض لسياسة أو توجهات معينة مثل إضرابات الاحتجاج على الاعتقال الإداري التي هدفت لإنهاء أو تقنين سياسة الاعتقال الإداري.

كانت الأيام الخمسون الأولى من اعتقالي هادئة إجمالاً، وفيها نوع من الاستقرار والروتين الذي بدا أنه سيستمر لوقت طويل، كما حال السجون وواقعها في السنوات الأخيرة، ولم يكن الإضراب عن الطعام في الحسبان قطّ. لكن خبر تمديد اعتقال الأسير بلال الكايد لمدة ٦ أشهر إدارياً بعد أن كان قد قضى أربعة عشر عاماً ونصف العام في الأسر، هزّ السجون كافة، وألهب الأسرى المحكومين خاصة، وأشعل فتيل مرحلة ساخنة سماها البعض «انتفاضة السجون»، استمرت لفترة طويلة نسبيّاً، إلى أن انتهت مع انتهاء إضراب آخر أسير خاض إضرابه في تلك المرحلة، وهو مالك القاضي.

كانت الخطوات الاحتجاجية والإضرابات ضد الإجراء بحق الكايد متنوعة وتصاعدية وفق برنامج عام شمل غالبية السجون. كان البدء بإرجاع وجبات الطعام المقدمة من الإدارة من قبل رفاق الكايد، وإرجاع الوجبات هو شكل من أشكال الاحتجاج والإضراب

الجزئي عن الطعام، وقد استمر سبعين يوماً، تم خلالها إرجاع ثلاث وجبات يوميّاً لمدة أربعين يوماً بشكل متقطع، ووجبة أو اثنتين يوميّاً لمدة تسعة أيام شارك فيها الأسرى من كافة القوى والفصائل في سجن «عوفر».

أما الشكل الاحتجاجي الثاني الذي استخدم على نطاق محدود، فهو التشويش على عملية التشخيص اليومي، إذ يأتي سجان مساء كل يوم بعد إغلاق الغرف ليتأكد من وجود ذات الأشخاص المسجلين لديه في ذات الغرفة، يتلو الاسم الأول للأسير ويكمل الأسير اسم عائلته، ثم يقارن بين شخصه وبين الصورة المثبتة على بطاقة الاعتقال. وعملية التشويش على التشخيص كانت تقضي بأنه عندما يتلو السجان اسم أي أسير، يرد عليه الأسير باسم بلال الكايد بدلاً من أن يرد باسمه أو اسم عائلته. صعقهم هذا الشكل الاحتجاجي، واعتبروه مسّاً وتشويشاً على عمل أمني رئيسي، فتم وقف الخطوة مقابل تنازلات معينة من إدارة السجون.

وكان الشكل الثالث والأهم الإضراب المفتوح- المسقوف عن الطعام، أي أن يتم إبلاغ إدارة السجن بأن الإضراب مفتوح، بينما هو محدد الأجل بالنسبة للأسير وقيادة الإضراب. خاض الإضراب بهذه الكيفية نحو ثلاثمئة من أسرى الجبهة الشعبية في كافة السجون، وخسروا خلاله نحو ثلاثة أطنان من اللحم البشري.

وفترات الإضراب كانت تصاعدية، ففي سجن «عوفر» مثلاً بدأت بسبعة أيام، وتدرجت إلى أن وصلت إلى تسعة عشر يوماً، كما كانت أعداد المشاركين بالإضراب في كل فترة تصاعدية أيضاً، بدأت بعشرة ووصلت إلى اثنين وثلاثين مشاركاً في سجن «عوفر» وحده،

وإلى مئة وعشرة أسرى في مختلف السجون، وكان هذا أمراً جديداً أربك إدارة السجون التي لم تكن تعرف ما هي الخطوة التالية، ولا متى وكيف ستنتهي هذه الخطوات.

قرار وخيار

كان قرار الإضراب وتكتيكه قد رسم بشكل سريع؛ ففي اليوم التالي لشروع الكايد في إضرابه الذي بدأه فور إبلاغه بتجديد اعتقاله إداريّاً، كانت خطة مركزية للإضراب قد أقرت، ووضعت موضع التنفيذ الفوري، مع ترك هامش مناورة صغير لكل سجن يجري التحرك في نطاقها وفقاً لظروف وإمكانيات السجن.

كان إرجاع الوجبات يشمل جميع أسرى الجبهة الشعبية دون أي استثناء. أما دخول الإضراب، فهو خيار فردي لكل رفيق، له الحق في أن يشارك أو لا يشارك فيه، وله الحق في أن يختار المدى الزمني الذي بإمكانه أن يبقى مضرباً طواله. لكن في الواقع، فإنه باستثناءات قليلة، وخاصة من المرضى الذين يهدد الإضراب حياتهم بشكل جدي، فلم يتخلف أحد عن الالتحاق بالإضراب، بل كان السباق والمنافسة على من سيكون ضمن الدفعة الأولى، أو ضمن الدفعات التي ستخوض الإضراب لفترة أطول، أو التي ستخوض الإضراب مرتين، إذ كانت التقديرات منذ البداية أن معركة الكايد ستمتد لما بين ٦٠-٧٠ يوماً، وهو ما حدث فعلاً.

اتخاذ القرار

يقرر كل مشارك، أو تقرر قيادة التنظيم الذي ينتمي اليه موعد وفترة إضرابه بعد أن يكون قد أبدى استعداده وسجل اسمه في قائمة المرشحين للمشاركة، وعند اتخاذه مثل هذا القرار، يكون مدركاً تماماً صعوبة المهمة المقبل عليها، وما سيتحمله قبلها وخلالها وبعدها من معانيات وصعوبات وأضرار جسدية محتملة، حيث تسبق اتخاذ القرار مشاركته في جلسات توعية وإرشاد وتهيئة تشمل شرحاً وافياً لكل الجوانب الصحية والنفسية، وتشحذ الهمم، وتعطى خلالها التعليمات لكيفية التصرف في المراحل الثلاث، وعندها بالطبع، عليه استشارة وإبلاغ ذويه ومن يريد من أهله، فيكون قراره واعياً ومحصناً.

التحضير للإضراب

يتوقف الأسير عن تناول الطعام العادي قبل يومين من شروعه في الإضراب، ويقتصر طعامه خلالها على الشوربات والسوائل، وخاصة الحليب، وبالتركيز على خلطات من السوائل التي تساعد على التخلص من كل ما في المعدة والأمعاء من طعام وفضلات، وهي خطوة ضرورية لتهيئة المعدة وتقليص حجمها تدريجيّاً، ولتنظيف الأمعاء تماماً من البقايا والفضلات، كي لا تبقى في الجسم طوال فترة الإضراب فتتقبض وتتحجر. وبالطبع، فإن النجاح التام في هذه التهيئة الضرورية يعتمد على طبيعة الجسم أولاً، وعلى مقدرة الأسير على تنفيذ التعليمات دون أن يضعف أمام مغريات الوجبة أو الوجبات الأخيرة، أو اشتهاء بعض أنواع المأكولات في الساعات

الأخيرة التي تسبق ساعة الصفر. وهنا، يلعب المحيطون وباقي نزلاء الغرفة الذين لن يشاركوا في الإضراب دوراً داعماً ومسانداً، بحيث يمتنعون هم أيضاً -ما أمكن- عن تناول الأطعمة التي قد تستثير شهيته، ويحاولون مشاركته بنفس نمط طعامه وشرابه، وخاصة في اليوم الأخير.

الإبلاغ

في اتصال أخير، يبلغ كل أسير ذويه بأنه بدأ أو سيبدأ في اليوم التالي إضرابه، ويبلغهم بأن شخصاً ما سيتواصل معهم لإطلاعهم على صحته وأحواله خلال فترة إضرابه التي سيكون خلالها معزولاً في الزنازين، أو في قسم خاص معزول إن كان عدد المضربين أكبر من الطاقة الاستيعابية للزنازين، ويبلغهم عن مدة إضرابه إن كان محدوداً، أو بأن إضرابه مفتوح وغير محدد الأجل، فيكون الاتصال كوداع الجندي الذاهب إلى معركة مجهولة النتائج.

اليوم المحدد

صباح يوم الإضراب، تسلم قائمة بأسماء الأسرى المضربين إلى إدارة السجن التي تقرر بالعادة معاقبة المضربين بسلسلة معروفة من العقوبات، تبدأ بعزلهم، وأحياناً نقلهم إلى سجون أخرى، وفي كلتا الحالتين، تقوم بعد إخراجهم من الأقسام العادية بتفتيشهم بشكل كامل ودقيق لمنع تهريب ما تعتبره الإدارة ممنوعاً عليهم،

والممنوع هنا يشمل كل شيء عدا الملابس التي يرتدونها، والتي ترغمهم الإدارة أيضاً على استبدالها بملابس بديلة من مخزون ما لديها، بما في ذلك الملابس الداخلية.

ظروف العزل قاسية؛ مجموعات صغيرة في كل زنزانة أو غرفة عزل، فرشات نوم بلاستيكية خاصة بالمعاقبين لا تصلح للنوم المريح، دون مخدة أو وسادة، ودون مواد تنظيف، أو بشكل شحيح أحياناً، والخروج من الزنزانة أو الغرفة لمدة نصف ساعة يوميّاً أو كل يومين للاستحمام فقط، والاتصال والتواصل مع العالم يقتصر فقط على تواصل ممثل السجن أو ممثل التنظيم معهم مرة كل يومين أو ثلاثة، وزيارة المحامين لهم عبر إجراءات خاصة، وأحياناً زيارة لممثل الصليب الأحمر لا معنى لها.

التفتيش العاري ممنوع

كإجراء عقابي وإذلالي، تلجأ إدارة السجن إلى محاولة إجراء تفتيش عارٍ للأسرى المضربين عن الطعام، إلا أن هذا النوع من التفتيش مرفوض من قبل الأسرى، أو جزء منهم، وعادة ما تحدث حوارات وجدالات تصل إلى الصدام والضرب في حال رفض الأسير التعري، ومع ذلك، فإن غالبية من يقررون الإضراب وتجري محاولة تفتيشهم عراة، يصرون على رفض التفتيش، ليكون هذا الرفض أولى خطوات التحدي والتمرد، ويرفع درجة الصدام ووتيرة العداء.

العدد والتفتيش العقابي

في الغرف بالأيام الاعتيادية، يتم عد الأسرى ثلاث مرات يوميّاً، ويكون العدد بوقوف الأسرى لحظة دخول ضابط العد، وهو إجراء قديم لم يتمكن الأسرى من كسره رغم أن العديد من الإضرابات السابقة المطلبية كانت تتضمن مطلباً بعدم الوقوف على العدد، ولكن دائماً ما كانت تتم مقايضة هذا المطلب بمكتسبات أو منجزات أخرى بديلة، إذ إن إدارة السجون تتمسك بهذه الطريقة في العدد لأسباب أمنية وسيادية لا تتنازل عنها تحت أي ظرف.

أما خلال الإضراب، فإن الأسرى المضربين يتمردون ويمتنعون عن الوقوف على العدد، فلا منجزات لديهم ولا شيء يخشون خسارته، وكرد على ذلك، تقوم الإدارة بإجراء تفتيشات انتقامية عند كل عد، بل وبإجراء التفتيشات عدة مرات يوميّاً، ليلاً ونهاراً، وبفاصل زمني بين تفتيش وآخر لا يتعدى بضع دقائق أحياناً، وهي بهذا تبقي المضربين في حالة توتر دائم، وترهقهم جسديّاً، إضافة إلى أنها تبحث بالفعل عما يمكن أن يكون قد تم تهريبه للمضربين من ممنوعات، وخاصة الملح أو السجائر أو الأقلام والدفاتر، وكل ما يعين المضربين على التخفيف من معاناتهم خلال الإضراب.

المدعمات

وفقاً للقانون الساري، فإن إدارة السجون ملزمة بتقديم مدعمات غذائية للأسرى المضربين بعد اليوم الثاني عشر لإضرابهم، دون

أن يعتبر هذا إخلالاً بالإضراب أو كسراً له، والمدعمات هنا تقتصر على محلول ملحي أو بضع حبيبات من السكر، وفي الإضرابات المطلبية، أو التضامنية، فإن الأسرى يتناولون هذه المدعمات غالباً للتخفيف من آثار الإضراب.

ولكن في الواقع، فإن إدارة السجون لا تقدم هذه المدعمات إلا بعد فترة طويلة قد تصل لثلاثين يوماً، فخلال كل الإضرابات التضامنية مع الأسير الكايد، لم تقدم الإدارة أو تعرض المدعمات على أي أسير، رغم أن بعض الأسرى قد جاوز إضرابهم العشرين يوماً.

أما في حالات الإضراب الفردي، فإن الأسير المضرب نفسه يمتنع عن تناول هذه المدعمات حتى لو عرضت عليه في أي وقت، إذ إن تعاطيها يطيل أمد الإضراب ومعاناته، فمن دونها، فإن أقصى ما يستطيع الإنسان تحمله هو ما بين ٦٠-٧٠ يوماً، وهو ما يضطر إدارة السجون ومرجعياتها القضائية والأمنية والسياسية إلى الاستجابة لمطلب الأسير أو الوصول إلى حل مرضٍ له. أما إذا ما تناول المدعمات، فإن فترة الإضراب تطول، وقد تصل إلى مئة يوم أو أكثر.

الأكل بين الحاجة والإرادة

الأكل حاجة طبيعية لازمة لاستمرار حياة الإنسان، وهو أيضاً استجابة لرغبات بيولوجية ونفسية. والأسير المضرب عن الطعام يجد نفسه في مواجهة هذه الاحتياجات والرغبات الإنسانية الأساسية، ولئن كان الإضراب خياراً، إلا أنه خيار مر وصعب،

تتصارع فيه هذه الرغبة والشهوة، وتحمل لآلام المعدة الحادة، وخاصة في الأيام الثلاثة الأولى من الإضراب، لتبدأ بعدها رغبة الأكل بالتلاشي تدريجيّاً، لتنتهي بشكل كبير بعد سبعة إلى عشرة أيام، ويصبح الإضراب من هذه الناحية مجرد عد أيام. ولكن للإضراب مناحي وزوايا أخرى يستمر معها الألم والمعاناة، وتزداد فيها المخاطر.

آلام الإضراب

عدة أنواع من الآلام والأعراض الصحية تكون ملازمة للإضراب، قد يصاب الأسير ببعضها أو كلها، وتتفاوت هذه الآلام وحدتها تبعاً لطبيعة الجسم والعادات الغذائية وطبيعة الظروف وقسوة القمع التي يعيشها الأسير المضرب.

إن أول وأبرز هذه الآلام الصداع الحاد وأوجاع الرأس والمعدة التي تبدأ منذ اليوم الثاني للإضراب وتستمر حتى اليوم السابع تقريباً. وتزداد هذه الآلام عادة لدى المدخنين والمعتادين على شرب القهوة بكثرة، إذ تنخفض في الجسم نسبة النيكوتين والمنبهات والأملاح اللازمة للحفاظ على ضغط الدم والوصول الاعتيادي للدم إلى الدماغ، ويستمر ذلك إلى أن يعتاد الجسم مجدداً على وضعيته الجديدة.

وثاني هذه الآلام هي آلام المفاصل والعضلات، وينتج هذا عن تدني أو انعدام تغذية المفاصل بالمواد اللازمة لعملها الاعتيادي، وتزداد أيضاً بسبب قلة الحركة الاعتيادية للجسم، وتغيير مواعيد وفترات النوم، وطول المدة التي يقضيها المضرب على فراشه، إذ تقل قدرته

على الحركة الطبيعية تدريجيّاً، فيما آلام العضلات تنتج أيضاً عن ضعفها التدريجي لكون الجسم يتغذى عليها وعلى الشحوم والدهون المختزنة لديه، وهذه الآلام تبدأ عادة من اليوم الخامس وتستمر حتى اليوم الخامس عشر، حيث تختفي تدريجيّاً أو ربما يتكيف معها جسم الإنسان، وينتهي الشعور بها، ولكن تحل محلها آلام واختلالات جسدية من نوع آخر.

الدوخة

تبدأ الدوخة بالظهور تدريجيّاً بعد اليوم السابع، نتيجة نقص الأملاح وما يصاحبه من انخفاض لضغط الدم وقلة تدفقه إلى الرأس والدماغ، ويسهم أيضاً فقدان أو هبوط السكر في الدم والجسم عموماً باختلال وضع الجسم، فيشعر المضرب بالدوخة، خاصة إذا قام من نومه أو جلوسه ووقف بشكل مفاجئ أو فوري، فيختل توازنه، وقد يفقد الوعي للحظات أو بضع دقائق، وغالباً ما يؤدي فقدان الوعي إلى الوقوع على الأرض، لتكون له نتائج صعبة إذا كان الوقوع على الأرض الصلبة أو البرش الحديدي.

وقد يكون من السهل تجنب هذه الحالة إذا كانت حركات المضرب بطيئة ومحسوبة، بحيث تكون عملية القيام من النوم أو وضعية الاستلقاء بشكل بطيء وتدريجي على مراحل، كما يساعد الانتظام في تناول الملح -إذا ما توفر- على الحد من الدوخة، ويسهم في الإبقاء على مستوى معقول من ضغط الدم.

حرب الملح

وكما أن للملح فائدة في الحد من انخفاض الضغط، فإن له أيضاً فوائد أخرى، أهمها منع تعفن المعدة والأمعاء التي لا يدخلها شيء طوال فترة الإضراب، والماء والملح، الذي يعتبر أيضاً عنصراً مغذياً، خاصة أنه يحتوي على نسبة -وإن كانت محدودة- من اليود، ويساعد الملح أيضاً في حث المضرب على الشعور بالحاجة للماء والرغبة به، خاصة أن شرب كميات كبيرة من الماء ضروري جدّاً للحفاظ على توازن الجسم ونسبة السوائل فيه، واستمرار عمل بعض الأعضاء وخاصة الكلى والمثانة والمجاري البولية، كما أن الماء يحتوي أيضاً على بعض الأملاح والمعادن بشكل ضئيل.

وإن كان من حق الأسير المضرب، وفقاً للقانون الدولي الإنساني، أن يضرب عما يشاء، ويتناول ما يشاء، فإن إدارة السجون تمنع الملح عن الأسرى المضربين منذ لحظة شروعهم بالإضراب، وتعتبر وجوده معهم أو في أماكن إضرابهم من الممنوعات الكبرى، حتى أن عمليات التفتيش المتواصلة أثناء الإضراب تستهدف، إلى جانب كونها عقوبة وإزعاجاً، البحث عن بعض من حبيبات الملح التي قد يتمكن المضربون من تهريبها والاحتفاظ بها.

حرب على السجائر أيضاً

كما أن إدارة السجن تعاقب الأسرى المضربين عن الطعام بحرمانهم من التدخين، فيما يسعى المدخنون من المضربين إلى تهريب ما أمكنهم

من السجائر، بالإضافة إلى الملح، فبالنسبة للمدخنين، وحتى في حالة الإضراب، حيث تنخفض الرغبة في التدخين، لكن السجائر تبقى وسيلة للتخفيف من معاناة المضرب وإبعاد الشعور بالجوع.

وإضافة للملح، فإن مسعى إدارة السجن من خلال تفتيشاتها المتكررة هو البحث عن السجائر المهربة وكذلك الولاعات، حتى أنها تمنع ممثلي الصليب الأحمر الذين يزورون المضربين من حمل سجائرهم معهم، خشية أن تسرب سيجارة إليهم، وكذلك تمنع ممثل الأسرى وممثلي الفصائل الذين يسمح لهم في بعض الأحيان بزيارة المضربين، من حمل سجائرهم أثناء الزيارة حتى لا يزودوا المضربين ببعض منها.

ثلاث شفطات وثلاث لحسات

مع كل الإجراءات والتفتيشات التي تقوم بها إدارة السجن ووحدات القمع، فإن الأسرى المضربين ينجحون عادة، وبطرق مختلفة، في تهريب كميات صغيرة من الملح وبعض السجائر.

وبالعادة، فإن المضرب عن الطعام، يتناول من الملح بقدر ما يشعر بحاجته إليه «لحستين إلى ثلاث» من الملح، على ثلاث فترات، وهي تعتبر كمية كافية لكل يوم، ويجب على المضرب تناولها نظراً لضرورتها، حتى وإن لم يكن يرغب أو يشعر بالحاجة إليها.

يتطوع أحدهم لإخراج حبيبات الملح من مخبئها، وبشكل سريع، خشية من تفتيش مفاجئ، يأخذ كل مضرب «لحسته»، ثم يعيد ما تبقى إلى مخبئه، وتتكرر العملية ثلاث أو أربع مرات يوميّاً، لتكون بديلاً أو مرادفاً

لوجبات الطعام التي يتناولها الإنسان في يومه العادي.

أما السجائر، فيكون نصيب الأسير المضرب المدخن عادة سيجارة واحدة إلى ثلاث سجائر يوميّاً، وفقاً لممكنات التهريب، وهو ما يضطر المدخنين في كل زنزانة أو غرفة عزل إلى تجميع سجائرهم بشكل مشترك، وإلى تقاسم كل ثلاثة أو أربعة مدخنين للسيجارة الواحدة، يتناوبون على التدخين منها ليكون نصيب كل منهم «شفطتين طويلتين أو ثلاث شفطات متوسطة»، وغالباً ما يراقب البقية زميلهم صاحب الدور في «الشفط» ويحسبون أجزاء الثواني التي تستغرقها «شفطته»، وفي حال أطال أحدهم «شفطته»، يتم توبيخه بالكلام أو بنظرات العيون، وربما بحرمانه من السيجارة التالية، فيما يتم بالتناوب منح آخر السيجارة «القرموعة» لأحدهم، باعتبار أن فيها المتعة الكبرى، وكمية النيكوتين الأدسم.

وأثناء عملية التدخين هذه، التي تتكرر بالطريقة ذاتها، بما يعادل عدد سجائر الصندوق المشترك، يكلف أحد غير المدخنين بمراقبة تحركات السجانين خوفاً من «كبسية» مفاجئة، وفي حال وقوع عملية التفتيش بالفعل أثناء التدخين، يضطر المدخنون إلى إتلاف ما تبقى من سيجارتهم، ويخيم الوجوم عليهم، ويبدأ كيل الشتائم لإدارة السجن ووحدات القمع.

الحاضر الغائب

يحضر الأكل خلال أيام الإضراب، نظريّاً وليس واقعيّاً، الطعام بأنواعه وأصنافه، وطرق إعداده، يكون الحديث المستمر وشبه الدائم بين المضربين، كل يشتهي أكلاته المفضلة ويتلذذ بالحديث عنها وعن وصف مذاقها بدقة، وبتشبيهات لا تخطر على بال، ينظر

الآخرون فيشعرون أنه أكلها بالفعل، ويشاركه في اشتهائها وأكلها كل من يحب ذات الأكلة. ويتحدث آخر عن طريقة أو طرق أخرى لإعدادها، يضيف إليها مادة ما، أو يقلل مادة أخرى، يضيف أو يختصر صنفاً أو آخر من البهارات أو التوابل. وكل واحد يدافع عن طريقته ويعتبرها الأطيب والألذ، فيبدو الأمر وكأنهم مشاركون في برنامج تلفزيوني تنافسي عن الطعام والطهي، يتسابقون ويتبارون لإقناع الحكام أو الجمهور بأي مذاق هو الأفضل، ويوغلون أحياناً في الشرح والوصف وفي تقديم الإثباتات، فيوضح أحدهم أن والدته باعتبارها من المنطقة التي تشتهر بها هذه الأكلة، تعدها بالطريقة الفلانية، فيقاطعه أخر بأن زوجته قد طورتها وحسنت مذاقها، وبأن طريقتها أفضل من الطريقة الأصلية، فيقاطعهم ثالث بالحديث عن أكلة جديدة وطريقة جديدة لإعدادها بعد أن يكون الجميع قد شبع من الأكلة الأولى وجاء أوان مقارنتها بأخرى ألذ، وهكذا تتوالى الأدوار ويتوالى حضور ما طاب ولذ من المأكولات ووصفات إعدادها والطرائق المختلفة في المدينة، وفي الريف، وفي المخيم، وفي شمال الضفة ووسطها وجنوبها، وفي داخل فلسطين وخارجها، إن كان أحد الحاضرين قد تذوق الأكلة في مكان ما.

يكاد لا ينتهي الحديث عن الأطباق والوجبات الرئيسية حتى يتحول إلى الحلويات والمقبلات بأنواعها المختلفة، ثم المكسرات والنقارش والمشروبات، ثم ينتقل الحديث إلى وقائع بعينها؛ عزومة رمضان في السنة الماضية، مائدة العيد الأخير قبل الاعتقال، العشاء في عرس فلان الذي تزوج قبل ثلاث سنوات، الزرب الذي دعي إليه قبل خمس سنوات، وهكذا تستمر الأحاديث يوماً بعد آخر.

ولكن المفارقة أن كل هذا الحديث عن الطعام لا يسيل اللعاب، ولا يشكل إزعاجاً لأحد أو دافعاً بأي شكل للانشداد فعليّاً إلى الأكل أو انتظار أو تمني انتهاء الإضراب، بل أقصى ما في الأمر، قطع الوعود بأكل أطباق معينة حال انتهاء الإضراب إذا كان إعداد هذا الطبق في الأسر ممكناً، أو بأكله فور الخروج من السجن إن كان إعداده في الأسر متعذراً.

وهكذا، فإن إعداد الطعام بالكلام في ظل الجوع المتواصل لا يؤثر على صمود أو معنويات المضربين، ولا يعكس ضعفاً بقدر ما يعكس قوة إرادة واحتمال، وأملاً بمستقبل قريب يتمتع معه المضرب بما طاب له من الأكل.

يوم العودة

يكون اليوم المحدد لإنهاء الإضراب معروفاً مسبقاً في حال الإضراب التضامني المسقوف، ولكن اليوم المحدد ليس قطعيّاً، ففي أي ساعة أو لحظة قد تحدث تطورات ومستجدات تلغي الخطط المقررة مسبقاً، وقد تؤدي إلى تقديم أو غالباً إلى تأخير موعد إنهاء الإضراب.

وأيّاً كانت وضعية وظروف ومعنويات المضربين، فإن تهيئة النفس ليوم محدد لإنهاء الإضراب تصبح وكأن ذلك نهائي وقطعي، ويبدأ عد الأيام والساعات المتبقية على موعد الإنهاء، تماماً كما عد الأيام والساعات المتبقية على موعد الإفراج، وهو بالفعل أشبه بنصف إفراج، لا بسبب العودة للأكل بالطبع، بل بسبب العزل وظروفه القاسية والتوق للعودة إلى القسم الاعتيادي والحياة اليومية بين جموع الأسرى.

في الإضرابات المسقوفة أو المحددة الأجل، عادة ما ينهي المضربون إضرابهم صباحاً، ولكن أحياناً، لأسباب تكتيكية، يتم تأجيل ذلك لبضع ساعات، فتكون هذه الساعات بمثابة دهر يعادل مجمل أيام الإضراب، وتبدأ خلالها النفس بتهيئة ذاتها للعودة للأكل، ويرسم كل مضرب سيناريو خاصّاً لما سيبدأ به من أكل، أو ما يتوقع أن يكون زملاؤه من غير المضربين قد أعدوه له، ويتخيل لحظة استقباله عند عودته للقسم أو الغرفة العادية، وعادة ما يكون أول ما يريد معرفته هو معرفة وزنه وحساب كم خسر من لحمه وشحمه.

إنهاء الإضراب أصعب مراحله

رغم أن إنهاء الإضراب هو اللحظة التي ينتظرها كل مضرب، ورغم ما تحمله اللحظة بالفعل من شعور بالارتياح لإنجاز مهمة صعبة، فإن مهمة أصعب وأخطر على صحته تكون بانتظاره، وهي التعامل العقلاني مع كيفية إنهاء الإضراب، فهناك مسألتان غاية في الأهمية، إن لم يحسن المضرب التعامل معهما، فقد يقع في مشاكل صحية لا تحمد عقباها، وقد تعيش معه العمر كله.

الأولى تتعلق بكمية ونوعية الأكل التي عليه البدء بتناولها فور إنهاء إضرابه، حيث تكون المعدة قد تقلصت بشكل كبير خلال الإضراب، واعتادت الخمول والكسل، وكفّت عن إفراز المادة الصفراء اللازمة للهضم، والمطلوب هو بدء الأكل بكميات صغيرة، ومن ثم الانتظار حتى يتم هضمها، وبعد ذلك تناول كمية أكبر، وهكذا، لحين العودة بعد عدة أيام لكمية الطعام الاعتيادية.

وإلى جانب الكمية، فإنه يجب أيضاً التركيز على نوعية الطعام سهل الهضم، مثل الشوربات والسوائل، وأنواع محددة من الخضار والفواكه، ثم توسيع قائمة المواد وضم أصناف أخرى في اليوم الثاني، وهكذا حتى يتم الوصول إلى المواد الأصعب على الهضم، وأخيراً البدء بتناول اللحوم، وخاصة الدجاج والحبش، قبل اللحم الأحمر.

تستمر المسألة عدة أيام، يحتاج خلالها الأسير العائد من الإضراب إلى ضبط نفسه، وكبح جماح شهيته المفرطة لتناول أكبر كمية من الأصناف التي يشتهي، وهذه عملية ليست سهلة، وغالباً ما يقع ضحيتها وضحية مشاكلها وتبعاتها الشباب المندفعون، اعتقاداً منهم أن قوة أجسامهم وصحتهم قد تحميهم من عواقبها.

وفي موضوع الأكل أيضاً، يأتي تناول الحلويات والسكريات ليشكل خطراً جديّاً، لا سيما خلال الأسبوع الأول بعد إنهاء الاضراب، حيث إن البنكرياس، وهو العضو المسؤول عن هضم وتحليل السكر في الجسم، يحتاج لفترة طويلة ليبدأ العمل بفاعلية كاملة وليستعيد قدرته على تحليل ما يدخل الجسم من السكر، إذ يؤدي تناول السكريات، حتى ولو بكميات صغيرة، إلى حدوث انتفاخات في الجسم تظهر بوضوح في الوجه والأيدي، وبشكل حاد في الأرجل، ورغم أن حدوث الانتفاخات لا يصاحبه ألم، إلا أنه ضارّ جدّاً، ويحتاج الجسم لأيام حتى تعود المناطق المنتفخة إلى حجمها وشكلها الطبيعيين.

أما المسألة الثانية الأكثر خطراً، فتتمثل بضرورة التخلص من الفضلات التي تكون قد بقيت في الأمعاء قبيل الإضراب، وتكون قد تعفنت وتحجرت بشكل كبير خلال فترة الإضراب، ما يعيق إخراجها

وإخراج فضلات الطعام الجديد، وبهذا، تصبح عملية الإخراج دون حدوث جرح في الشرج أو ظهور بواسير هي مسألة مهمة للخروج من الإضراب بشكل آمن ودون نتائج سلبية صحية.

في العادة، فإن الإخراج يكون في اليوم الثاني لإنهاء الإضراب، أما تأخره، فينذر بنتائج سلبية، ولهذا، فليس غريباً أن يصبح الهم الأكبر للعائد من الإضراب كيف ومتى يتمكن من الإخراج، لا متى وماذا يأكل، وعندما يفعل ذلك بنجاح، فإنه يتنفس الصعداء، ويبشر جميع زملائه بذلك، بل وقد يتلقى التهاني والتصفيق إن كان أمره قد طال.

الانتصار

في معظم الإضرابات، تنتصر الإرادة على السجان، ويثبت أن بإمكان الكف مناطحة المخرز، وهي معادلة أفرزتها إضرابات السجون منذ أن كانت، رغم أن إضراب عام ٢٠٠٤ شكل انتكاسة ومخالفة للقاعدة، واعتقد كثيرون أنه بفشله قد تم وضع حد لفكرة الإضرابات، ولكن تجارب عامي ٢٠١٢ و٢٠١٤ وعدد من الإضرابات الفردية الناجحة أعادت للمعادلة اعتبارها، وللإضرابات وهجها كوسيلة فاعلة لتحقيق مطالب ومنجزات، وجاء إضراب الأسير بلال الكايد، والإضرابات المساندة له، التي أفضت إلى انتصاره، جاءت لتؤكد مجدداً أن الإضراب لا يزال سلاحاً رئيسيّاً فعالاً، وأن انتكاسة إضراب عام ٢٠٠٤، كانت شذوذاً عن القاعدة التي ما زالت صالحة وستبقى.

الحرية
أسامة نزال

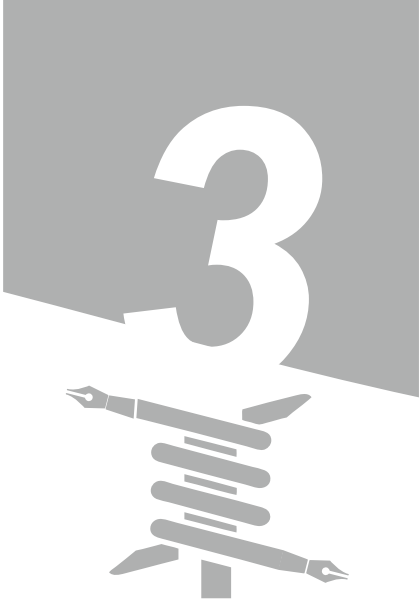

الألبوم الثالث

لأني أعشق النهار

إن ثمن الحرية
والكرامة فادح
لكن ثمن الذل أفدح

تجربتي في الإضراب

كنت قد اتخذت قراري بالإضراب تضامناً مع الكايد، واخترت الظرف والدفعة التي سأكون من ضمنها، بما يحقق أكبر جدوى من الإضراب، فقضية الكايد تتعلق أساساً بالاعتقال الإداري الذي تستخدمه سلطات الاحتلال على نطاق واسع، استناداً إلى قوانين الانتداب البريطاني البالية التي يستهجن كل العالم لجوء الاحتلال إليها بهذه الطريقة وبهذا الشكل الواسع الذي يطال نحو ٧٠٠ أسير، كما في صيف ٢٠١٦. وباتت سياسة الاعتقال الإداري هي الحلقة الأضعف ضمن سياسات الاحتلال وإجراءاته القمعية، وهي سياسة تلقى أوسع إدانة من المجتمع الدولي ومؤسسات حقوق الإنسان الدولية، وبالتالي، فإن العالم يتفهم أكثر مناهضة الأسرى الفلسطينيين لهذه السياسة والإجراءات المتعلقة بها، سواء كانت الخطوات المناهضة جماعية أم فردية، وتزداد أهمية ذلك عندما يتعلق الأمر باعتقال الصحافيين إدارياً، الذي عادة ما يتم على خلفية عملهم الصحافي وإبداء الرأي والتعبير عنه، وهو الأمر الذي كان صارخاً في ملف اعتقالي، بل أضيف إليه كوني ممثلاً للصحافيين في إطار نقابة الصحافيين الفلسطينيين، وعنوان الدفاع عن قضاياهم وحقوقهم، وهي حقيقة يعرفها الصحافيون الفلسطينيون والعرب والدوليون على نطاق واسع، ما أدى إلى خلق حالة تضامن واسع معي منذ لحظة اعتقالي، وبالتالي، فقد كنت أدرك أن انضمامي للإضراب سيوسع دائرة الفعل التضامني محلياً ودولياً مع المضربين، وسيخدم قضية الكايد وملف الاعتقال الإداري عموماً، واعتقال الصحافيين خاصة.

وقد اخترت أن تكون فترة إضرابي متزامنة مع موعد مثولي أمام

المحكمة العليا التي ستبحث قضية اعتقالي، وهي أيضاً مناسبة لحملة تحركات مساندة لقضيتي وقضية الأسرى الصحافيين، وكان الموعد مناسباً أيضاً كي أكون ضمن دفعة تخوض الإضراب لفترة طويلة نسبيّاً، بحيث يأخذ الإضراب مداه وصداه ويحقق جدوى أكبر، وهكذا، فقد حققت بانضمامي للدفعة المحددة أفضل جدوى ممكنة، أو هكذا اعتقدت.

التحضير

قبل الموعد المحدد للانضمام إلى الإضراب في الرابع من آب ٢٠١٦ بثلاثة أيام، بدأت عملية التحضير بالتقليل التدريجي من الأكل الاعتيادي، والتركيز على تناول الشوربات والسوائل، واستطعت اجتياز المرحلة بنجاح نسبي، حيث أفرغت بقدر كبير ما في معدتي، وكما كل إنسان يعرف كيف يستجيب جسمه للأنواع المختلفة من الأطعمة والمشروبات، فقد كنت أعرف كيف بإمكاني أن أفرغ معدتي وما في أمعائي. تناولت الحليب بكثرة، الذي نادراً ما كنت أشربه، تناولته فاتراً مع الكثير من السكر والشوكو الحلو، وما توفر لي من محرشات، وعملت بشكل تدريجي على تقليل كمية القهوة التي اعتدت شربها بكثرة، وعلى تقليل عدد السجائر التي كنت أدخنها يوميّاً، وتقليل كمية الملح الذي اعتدت تناوله بكثرة أيضاً، وكل هذا في محاولة لتجنب الإصابة بالصداع الذي كان أكثر ما أخشاه عند بدئي بالإضراب، خاصة أن تجربة سابقة لي بالإضراب عن الطعام قبل زمن طويل كنت عانيت خلالها كثيراً من الصداع الحاد، وهيأت ذاتي نفسيّاً لمدة الإضراب التي كانت محددة سلفاً بثمانية عشر يوماً.

ساعة الصفر

كانت دفعتنا من عشرة رفاق، وكان اثنان وعشرون آخرون قد سبقونا على دفعات، ولا يزال إضرابهم مستمرّاً، بالإضافة إلى أربعة أسرى إداريين كانوا قد بدأوا إضراباً مفتوحاً بهدف إنهاء اعتقالهم أو تحديد سقف له، وهم الأخوان محمد ومحمود البلبول، وعياد الهريمي، ومالك القاضي.

وبهذا، فإنه مع انضمام دفعتنا، يرتفع عدد المضربين في «عوفر» إلى ٣٦ أسيراً، وحيث إن الزنازين التي عادة ما يتم عزل الأسرى فيها لا تتسع لأكثر من ٢٦، فقد كانت إدارة السجن أمام خيارين: إما نقلنا أو نقل جزء منا إلى زنازين في سجون أخرى، وإما أن تضطر لنقلنا جميعاً إلى قسم ٢٠ الذي كان مغلقاً وفارغاً بسبب انخفاض عدد المعتقلين الإجمالي في «عوفر» في ذلك الوقت، وهو ما تم فعلاً، حيث نقلنا مباشرة إلى قسم ٢٠، وكان قد سبقنا إليه باقي المضربين الذين كانوا في الزنازين التي تم إغلاقها بسبب عدم قدرة إدارة السجن على متابعة قسمين للمضربين في آن واحد، فأفرغت الزنازين وأغلقتها، وتحول قسم ٢٠ إلى قسم عزل للمضربين جميعاً، وهكذا، فقد أنقذ انضمام دفعتنا كافة من سبقونا من بؤس العزل في الزنازين، وأصبحنا جميعاً موزعين على ٧ غرف، في القسم الذي تم عزله كليّاً عن باقي أقسام السجن.

صباح الرابع من آب، اقتادونا من حيث نحن في قسمي ١٥ و١٦، إلى ما يسمى «المخلول» للتفتيش، فكان الصدام الأول حول التفتيش العاري. كان رامي الأول الذي دخل إلى غرفة التفتيش، طلبوا منه التعري فرفض بإصرار، وضعوه في زنزانة منفردة للإيحاء للآخرين بأن من سيرفض سيعاقب، ولكن عندما جاء دور الثاني والثالث

والرابع واستمر الرفض رغم الضغوط والتهديدات، استسلموا لإرادتنا، وأيقنوا أن موقفنا برفض التفتيش العاري هو موقف جماعي قطعي، فاكتفوا بالتفتيش الروتيني بشكل دقيق دون أن يعثروا بحوزتنا على أي شيء، وهكذا كان الصدام الأول والانتصار المعنوي الأول لنا.

الكوميديا الإلهية

قراءة الكتب ممنوعة خلال الإضراب، فإدارة السجن لا تريد لأحد أن ينهل من العلم والثقافة، ولا حتى أن يسلي نفسه بالمطالعة ويقتل جزءاً من وقته، ولكننا، لنفعل ذلك، ارتأينا أن نأخذ معنا الكتب السماوية، وهي الوحيدة المسموح بها خلال الإضراب.

أخذت أنا القرآن الكريم مع تفسير الجلالين، فسمح لي به، وأخذ رامي كتاب «الكوميديا الإلهية» لدانتي أليجري، فقالوا له إن هذا كتاب، والكتب ممنوعة، لكنه تحايل عليهم بعد أن وجد على الغلاف الخلفي للكتاب كلمة «مسيحية»، فأقنعهم أن هذا هو الإنجيل، فسمحوا له به أيضاً، فكانت فرصة لنا لقراءته، وأيضاً قراءة ما تسنى من سور قرآنية وتفسيرها وفقاً لاجتهاد جلال وجلال.

وهكذا، فقد كسبنا معرفة وثقافة، وقتلنا جزءاً من وقتنا، رغم أن القراءة تكون مرهقة للدماغ والعينين خلال فترة الإضراب، وخاصة كلما تقدمت الأيام.

اليوم الأول

بعد انتهاء التفتيش وإجراءات النقل، دخلنا إلى قسم ٢٠، حيث كان المضربون القادمون من الزنازين قد سبقونا إليه، فكان لقاء الأحرار الماضين إلى المعركة كتفاً لكتف، ودبت الحياة في القسم، وبدأ الحديث بيننا عبر الأبواب والشبابيك الخلفية للغرف. تفاعلنا معهم ونقلنا لهم آخر الأخبار والمستجدات، واتفقنا على تنظيم أمورنا في مواجهة إجراءات الإدارة، وانتزاع ما يمكن من مطالب لتخفيف وطأة العزل، وتقليص قائمة الممنوعات.

مساءً، بدأنا فقرة التفاعل والغناء للتسلية ورفع المعنويات عبر الأهازيج والأناشيد الوطنية، فانقضى اليوم الأول بعد أن استحضرنا «الطريق إلى الزنزانة» لشاعرنا الكبير معين بسيسو، وأنشدنا جميعاً:

نعم لنْ نموتَ، ولكننا

سنقتلعُ الموتَ من أرضنا

هناكَ.. هناكَ.. بعيداً بعيدْ..

سيحملني يا رفاقي.. الجنودْ..

سيُلقونَ بي في الظلامِ الرهيب

سيُلقونَ بي في جحيمِ القيودْ

نعم لنْ نموتَ، ولكننا..

سنقتلع الموت من أرضنا
لقد فتشوا غرفتي يا أخي
فما وجدوا غيرَ بعضِ الكتبْ
وأكوامِ عظمٍ هم... إخوتي
يئنّون ما بين أمٍّ... وأبْ
لقد أيقظوهم.. بركلاتهمْ
لقد أشعلوا في العيونِ الغضبْ

نعم لنْ نموتَ، ولكننا..
سنقتلع الموت من أرضنا

أنا الآنَ بين جنودِ الطغاةِ
أنا الآنَ أُسحبُ للمعتقلْ
وما زال وجهُ أبي ماثلاً
أمامي.. يُسلّحُني بالأملْ
وأمي.. تئن.. أنينا طويلْ
ومن حولها إخوتي يصرخونْ

ومن حولهم.. بعضُ جيراننا
وكلٌّ له.. ولدٌ في السجونْ

نعم لنْ نموتَ، ولكننا..
سنقتلع الموت من أرضنا

ولكنني رغم بطش الجنودْ
رفعتُ يدًا أثقلتها القيودْ
وصحتُ بهم: إنني عائدٌ
بجيشِ الرفاقِ.. بجيشِ الرعودْ

نعم لنْ نموتَ، ولكننا..
سنقتلع الموت من أرضنا

هناكَ أرى عاملاً في الطريقِ
أرى قائد الثورةِ المنتصر
يُلوِّحُ لي بيَدٍ من حديدْ
وأخرى تطاير منها الشررْ

لنْ نموتَ، ولكننا..
سنقتلع الموت من أرضنا

أنا الآن بين مئات الرفاقِ
أشدّ لقبضاتهم.. قبضتي
أنا الآن أشعرُ أني قويٌّ
وأني سأهزمُ.. زنزانتي

نعم لنْ نموتَ، ولكننا..
سنقتلع الموت من أرضنا

نعم لنْ نموتَ، نعم سوف نحيا
ولو أكلَ القيدُ من عظمِنا
ولو مزقتنا سياطُ الطغاة
ولو أشعلوا النارَ في جسمِنا
نعم لنْ نموتَ، ولكننا
سنقتلعُ الموتَ من أرضنا

أوجاع ومعاناة محتملة

كما اللاعب الذي ينتظر خصمه في أرض الملعب، كنا ننتظر بدء المعاناة والألم، انقضت الأيام الثاني والثالث والرابع دون شعور قاس بالجوع، ودون آلام حادة، فكانت الأمور أسهل مما توقعنا وانتظرنا، ربما بسبب التحضير الجيد والتهيئة الجسدية والنفسية، وربما بسبب المعنويات العالية التي تسلحنا بها، أو على الأغلب بسبب كليهما.

كان هذا حال المتضامنين جميعاً، أما الأخوين بلبول، والهريمي، والقاضي، الذين كانوا قد سبقونا بحوالي ١٥-٢٥ يوماً، فقد كان حالهم مختلفاً، حيث بدا عليهم التعب والهزال والإرهاق، ولكنهم استمدوا من وجودنا قوة ومعنويات عالية، آزرناهم وقدمنا لهم ما أمكن من مساعدة وخدمات عون، مثل تزويدهم بالماء البارد، أو حتى غسل ملابسهم، كما تمكنا من تحقيق بعض مطالبنا بتوفير مواد النظافة الأساسية، من صابون وفراشي ومعاجين أسنان، إضافة إلى فسحة يومية لمدة ساعة لكل غرفة على حدة، وهو ما جعل التواصل بين جميع من في القسم متاحاً.

مصطلحات المرحلة

من واقع وجودنا في العزل، أعدنا إحياء مصطلحات خاصة كنا نتداولها فيما بيننا، كان يبتدعها أحدنا، وما إن يستعملها أول مرة، حتى تصبح مفهومة من الجميع، ومن ثم يصبح استخدامها دارجاً وكأنه شائع ومتفق عليه منذ الأزل.

غيّمت: وهو مصطلح كان يستخدم في فترات سابقة في السجون،

وأعدنا استخدامه للدلالة على دخول السجان إلى الساحة، أو وجود حالة مريبة توحي بأن دخولاً أو تفتيشاً مفاجئاً سوف يتم، فيأخذ الجميع حذره ويتم إخفاء كل «الممنوعات» في مخابئها.

شمّست: تعني أن السجان أو فرقة التفتيش خرجت من القسم، وأن الوضع هادئ جدّاً وآمن، وبالإمكان إخراج «الممنوعات» والتعامل معها.

إخلاء: أي إخفاء كل «الممنوعات» في أماكنها الآمنة المتفق عليها والمعروفة مسبقاً، وعادة ما يطلب الإخلاء عند توفر معطيات عن تفتيش جدي أو استنفار أو وجود ما يوحي بحركة مريبة، وهي من حيث المغزى أقوى من «غيّمت»، وتحمل صفة الإلزام.

تلكؤ: وتعني القيام بخطوة احتجاجية ضد الإدارة والسجانين، وهي الإبطاء في الحركة بشكل ملحوظ ومتعمد عند العد أو التفتيش، بحيث يجبرون على الانتظار طويلاً لتنفيذ مهمتهم. وكانوا بالفعل يفهمون مغزى الحركة «التلكؤ»، ويبدأون بالمفاوضات لمعرفة المطالب وتحقيقها.

المُخبر: الراديو.

لوز: أي أن الأوضاع ممتازة والمعنويات عالية.

المحكمة العليا

انقضت الأيام الأربعة الأولى من الإضراب بالنسبة لي بمعاناة وألم محتملين، مع بعض الملل والضيق الناتج عن ساعات الحشر الطويلة في الغرفة، ومحدودية الأشخاص الذين كان متاحاً التفاعل معهم في الغرفة، حيث كنا خمسة فقط.

بعد عصر اليوم الخامس، وعشية جلسة المحكمة العليا المقررة للنظر في التماس كان قد تقدم به محاميّ ضد قرار اعتقالي، تم نقلي إلى «معبار» سجن الرملة، كان بإمكانهم نقلي مباشرة من سجن «عوفر» إلى المحكمة العليا التي لا يبعد مقرها في القدس أكثر من ٢٠ دقيقة عن «عوفر»، لكن روتين وبيروقراطية الإجراءات التي تتبعها إدارة السجون اقتضت أن تستغرق عملية النقل للعليا يومين كاملين، فيهما ٦ ساعات فقط من السفر الفعلي.

مساء السابع من آب، أُخرجت من قسم المضربين في «عوفر» إلى عربة «بوسطة» النقل التي تشرف عليها الوحدة الخاصة بالنقل المسماة «قوات النحشون». قبل خروجي من السجن، كتب الضابط المناوب على ملفي بضع كلمات بالعبرية، تبين لي لاحقاً أنها إشارة إلى ضرورة عزلي ومعاملتي بشكل خاص كوني مضرباً عن الطعام، في «بوسطة» النقل، وضعت بشكل منفرد في مكان خاص بالمعزولين بحيث لا أتمكن خلال السفر من التواصل مع أي من الأسرى الآخرين في «البوسطة»، ومكان العزل هذا أشبه بخزانة ضيقة تتسع بالكاد للشخص وهو جالس، وهي معتمة بالكامل، عندما وصلنا مساء إلى «معبار» الرملة، تم أيضاً اقتيادي بشكل منفرد بعد إخضاعي لتفتيش دقيق إلى غرفة معزولة في الـ «معبار»، ولم يسمحوا لأي أسير آخر بالتحدث إليّ أو التواصل معي، لم يكن يهمني العزل وقسوة الظرف الذي وجدت نفسي فيه، في غرفة خالية تماماً إلا من فرشة سجن واحدة، دون غطاء أو مخدة، ولكنني بحاجة لأن أدخن سيجارة، حيث كنت قد تمكنت من تهريب قليل من الملح، وثلاث سجائر كسرت إحداها أثناء النقل، كنت بحاجة لإشعال سيجارة، وكان أحد السجناء المدنيين مكلفاً من إدارة «المعبار» بالتجوال على الغرف الأخرى لخدمتها وتلبية

احتياجاتها، طلبت منه إشعال سيجارتي، تجاهلني بدعوى أن ذلك ممنوع، وبعد إلحاحي عليه بما يشبه التهديد، استجاب، ورمى لي من مسافة بعيدة سيجارة مشتعلة، دخنتها بنهم، وحينها أشعلت قبل انطفائها سيجارة ثانية مما كان لدي، فقد كنت أتوقع أنني قد لا أنجح بالحصول على «ولعة» مرة أخرى.

جاءني في وقت متأخر سجان طبيب، سألني عن عمري وكم مضى على إضرابي، وبدأ بإلقاء نصائحه بضرورة إنهاء الإضراب، فرفضت التعاطي معه، عرض إجراء فحص لي، فرفضت ذلك أيضاً، إذ إنني أعرف أن إجراء أي فحص هو مقدمة لممارسة ضغوط إضافية لوقف الإضراب. بعد نحو ساعة، جاءني السجين المدني ذاته وعرض عليّ إحضار وجبة طعام بطريقة توحي بأنه سيقوم بذلك دون معرفة الإدارة، طردته بعد أن وبخته بشدة، وبعدها أيضاً جاءني سجان يسألني إن كنت أريد طعاماً، محاولاً إقناعي بأن رحلتي في اليوم التالي ستكون طويلة وصعبة، وأنه ليس بإمكاني البقاء دون طعام، فابتسمت لأقهره، وقلت له إنني أعي تماماً ما أمامي من مشقة، ولكن إضرابي مستمر مهما كانت أو طالت معاناتي.

كان الليل قد انتصف، وكان واضحاً أنني لن أستطيع النوم في هذه الظروف، خاصة أنها كانت ليلة من ليالي آب شديدة الحرارة، ركنت نفسي قبالة شباك الغرفة، ومن زاوية محددة، بالكاد تمكنت لأول مرة منذ اعتقالي من رؤية القمر، تابعت مسيره البطيء، وبدأت أستدير بجسدي معه لأستمر في التمتع في رفقة صديقي الوحيد، إلى أن حان موعد الرحيل.

في الساعة الرابعة فجراً، يبدأ إيقاظ الأسرى في «المعبار» المخصص

كمحطة نقل من سجن إلى آخر، أو من سجنٍ إلى مراكز التحقيق أو المحاكم أو المستشفى، فهو يعج بالنزلاء ليلاً، ويخلو من أيٍ منهم نهاراً، لم أكن بحاجة لمن يوقظني، حيث إنني لم أنم أصلاً، ولكنني مجدداً كنت بحاجة لإشعال سيجارة. بعد قليل، جاء سجين مدني آخر يحمل الماء الساخن لتوزيعه على الأسرى لإعداد ما يريدون من مشروبات، طلبت منه أن يشعل سيجارتي، فادعى أن لا ولاعة لديه، وبدا لي أنه يكذب، فقلت له إنني من جماعة «أبو جبل»، وأنه يهديه السلام، فارتبك وأخرج ولاعته وأشعل سيجارتي، وبعدها بنصف ساعة، عاد وأحضر لي سيجارة مشتعلة، أعطاني إياها دون أن يقول شيئاً. كان استخدامي لاسم «أبو جبل» مجرد ضربة حظ، فأبو جبل لقب لأسير كان معي في سجن «عوفر»، كان قد حدثني عن اعتقال مدني سابق له، قضى معظم فترته في سجن الرملة المدني، وأن السجناء يعرفونه هناك باسم أبو جبل، وأنهم كانوا يهابونه لسبب أو لآخر، وفي الحقيقة، فلم أدر إن كان هذا المعتقل المدني يعرف بالفعل أبو جبل ذاته، أم يعرف أبو جبل آخر، أم أنه لا يعرف أي أبوٍ جبل، وأن مجرد ذكر الاسم أوحى له بشيء ما، ولكنني أعرف تماماً أن السجناء المدنيين يخشون ويهابون أي أسير سياسي.

لكوني معزولاً، فقد كنت أول أسير يخرجونه إلى المكان المسمى «الأقفاص»، وهو عبارة عن ثمانية أقفاص من شبك حديدي، كل منها بمساحة غرفة، يتم حشر نحو ثلاثين أسيراً في كل قفص، كمحطة لتحضير وتوزيع الأسرى، كلاً إلى حيث يجب أن يتم نقله. وضعوني في قفص المنقولين إلى القدس. كنت الوحيد بينهم الذي وجهته المحكمة العليا، بينما الآخرون إما إلى المحاكم المدنية، أو مركز تحقيق المسكوبية. مكثت في القفص مع بقية المنقولين نحو ساعة، بعدها انتبهت قوات النحشون أنها أخطأت بوضعي مع

المجموع، فتم اقتيادي إلى أحد قفصين صغيرين مخصصين للعزل، كنت وحيداً في أحدهما، وفي الآخر قبالتي، كانت فتاة واضح من لباسها أنها معتقلة لأسباب غير سياسية.

بعد أن تم حشو «البوسطة» المتجهة إلى القدس بكل الأسرى المنقولين، أُخرجت من القفص إليها، ومرة ثانية إلى خزانة العزل الانفرادي. تحركت «البوسطة» نحو السابعة صباحاً، وقبل الثامنة بقليل، وصلنا إلى مركز المسكوبية الذي أعرفه من زمن كنت فيه أسيراً ذات يوم قبل أكثر من ٣٠ عاماً، ولكن الجديد في المسكوبية، إلى جانب كونه مقرّاً للشرطة، ومركز تحقيق، هو أنه أصبح أيضاً مركزاً رئيسيّاً لقوات النحشون، وفي ساحته عشرات الحافلات والسيارات ذات حمولات مختلفة تابعة للنحشون.

أفرغت البوسطة كل حمولتها في المسكوبية، بعضهم أُدخل إلى المبنى، والبعض الآخر إلى حافلات أو سيارات، كل إلى وجهته، وكنت الأخير، حيث تم اقتيادي وحيداً في حافلة صغيرة جالت بي قليلاً في شوارع القدس دون أن أتمكن من تحديد أين تتجه أو معرفة أين يقع مقر المحكمة العليا، حيث كانت وجهتنا، وصلنا إلى مقر المحكمة عبر مرآب «كراج» فسيح في الطابق الأرضي للمبنى، وتم اقتيادي على عجل إلى داخل المقر الذي بدا فخماً بكل تفاصيله، إلا الزنزانة التي وضعت فيها بانتظار بدء الجلسة المخصصة للنظر في قضيتي، فقد بدت وكأنها في مبنى آخر، زنزانة صغيرة سيئة الإضاءة، فيها مقعد واحد طويل وعريض جدّاً، مصنوع من شرحات خشبية متباعدة المسافات، بحيث لا تصلح لا للنوم ولا للجلوس، وفي زاوية منها حفرة أريد لها أن تكون مرحاضاً، سيئ الشكل والمظهر، وسخاً ورائحته نتنة، مكثت فيها بعضاً من الوقت إلى أن

حان موعد الجلسة، جاء اثنان من أفراد النحشون واصطحباني إلى مصعد يؤدي مباشرة إلى داخل قاعة المحكمة، أجلساني في المنتصف وبقيا ملتصقين بي، أحدهما على يميني والآخر على يساري. بدا المشهد كساندويشة، نحشونان يرتديان الأبيض، وفي وسطهما أنا بلباس إدارة السجون «الشاباص» البني القاتم.

جلسة المحكمة

هيبة من حيث الشكل، قاعة فسيحة في صدرها ثلاثة قضاة، يتوسط القاعة إداريو المحكمة، على يمينهم ممثلو النيابة، وعلى يسارهم المحامون، وفي الثلثين الأخيرين مقاعد تتسع لأكثر من مئة من الحضور. كانت شبه مليئة، وفي أقصى اليمين مقاعد يبدو أنها مخصصة للصحافيين، حيث كانت تجلس الصحافية عميرة هس مراسلة صحيفة هآرتس، التي حضرت لتغطية قضيتي، ومقابلها في أقصى اليسار، ساندويشة النحشون وأنا.

بالكاد تمكنت من رؤية زوجتي، رغم أنها كانت تجلس في الصف الأول، ولكن بعيدة عني، وقبل بدء الجلسة، كانت قد دخلت ابنتاي مرح وغزل. تبادلت معهن الابتسامات والتحايا بالإشارة. وفي كل مرة كنت أحاول أن أوصل لهن فكرة أو أبتسم لهن أو يشرن لي، كان النحشونان يحشرانني أكثر، في إيماءة إلى أنه ممنوعٍ عليّ التواصل معهن حتى بالإشارة، وأن الابتسامة والفرح أيضاً ممنوعان، رغم أنني لم أكن بحاجة لتذكير من أحد بأنني أسير معزول ممنوع من ممارسة إنسانيتي حتى مع أقرب الناس لي.

بدأت الجلسة بالعبرية التي لا أفهم معظمها، وعندما طلبت أن

تكون هناك ترجمة للعربية لمجريات الجلسة، أجابوني بأن لا ترجمة في المحكمة العليا، وأن لا مشكلة بأن تناقش قضيتي دون أن أفهم شيئاً، وعندما طلبت أن أمارس حقي بالتحدث لتوضيح موقفي من اعتقالي ومن ملف الاعتقال الإداري عموماً، رفض طلبي أيضاً، فبدوت «كالأطرش بالزفة!»، مع أنها «زفتي» وقضيتي. ومع ذلك، فلم أندم على حضور الجلسة، رغم أنه كان من حقي ألا أحضرها، فقد كانت تكفيني قراءة ما تقوله عيون زوجتي وبنتيّ من عبارات التضامن والتشجيع الممزوج بالحب والاشتياق، كما كان بإمكاني أن أنقل لهن بعيني وببعض الإشارات أنني، ورغم جوعي وألمي، قوي بما يكفي لمواجهة محنتي والصمود بوجه سجاني وبوجه الاحتلال وكل أدواته العسكرية والقضائية، وأنني أستمد قوتي من وجودهن وابتسامتهن وخفقات قلوبهن، بانتظار عناق سيكون يوماً ما.

فقط محاميّ محمود حسان، من تحدث في الجلسة التي اعتبرت علنية، ثم رفعت الجلسة. وتم إخراج جميع من في القاعة، بمن فيهم عائلتي وأنا والمحامي، لتبدأ الجلسة السرية بحضور ممثلي النيابة وقضاة المحكمة فقط، وكأنهم بحاجة لمثل هذه الخلوة لإيضاح أسباب اعتقالي «السرية»، فكانت هذه الجلسة تعبيراً مكثفاً عن جوهر الاعتقال الإداري: نيابة الاحتلال التي تمثل عمليّاً مخابرات الاحتلال «الشاباك»، تقدم لقضاة محكمة الاحتلال ملفّاً، أو ربما لا تقدم شيئاً، وبناء على اتفاق بين طرفي الاحتلال، يصدر الحكم بحبس فلسطيني دون أن يعرف لماذا، ولا حتى كم من الوقت سيقضي في الاعتقال!

بعد نحو نصف ساعة هي مدة هذه الجلسة «السرية»، أعيد الجميع لحضور الجزء الثالث والأخير من المحكمة، جلسة القرار، فيها

تلا قاضي الوسط قراراً مقتضباً بأن المحكمة ترفض الالتماس، ولكنها حصلت على «تعهد» من النيابة بأن تمديد اعتقالي سيكون لثلاثة أشهر بدلاً من أربعة، ودون أن يعني ذلك أن هذا التمديد هو الأخير، وأنه بانتهاء فترته ينتهي اعتقالي. هذا ما ترجمه لي المحامي الذي بدا حائراً ومصدوماً من مثل هذا القرار الغريب والغامض، حيث إن اختصاص المحكمة ينحصر في قبول الالتماس والإفراج عني، أو رفضه والإبقاء على اعتقالي حتى نهاية المدة التي كانت ستنتهي بعد أسبوعين من يوم المحكمة. أما أن تقرر المحكمة أو «تبشر» بأن هناك تمديداً قادماً للاعتقال، مهما كانت مدته، فإن هذا سابقة غير مألوفة، وخارج نطاق اختصاص المحكمة.

رفعت الجلسة

منعت من الحديث مع محاميّ، ومنعت من التواصل مع زوجتي وبنتيّ، فاكتفيت بالتلويح لهن، ولبعض من عرفتهم من الحضور، وتم اقتيادي سريعاً إلى زنزانة المحكمة مجدداً لأمكث فيها لبعض الوقت قبل أن يتم نقلي.

العودة للمسكوبية

انتهت الجلسة مع انتصاف النهار تقريباً، ولم يحن بعد موعد عودة البوسطة إلى الرملة، فنقلت إلى المسكوبية من جديد، حيث وضعت هناك في زنزانة منفرداً، رغم أن الزنازين الأخرى المجاورة كانت مكتظة وبالكاد تتسع لمن فيها، وهي زنازين انتظار كانت قد

استحدثت من خلال تقسيم إحدى غرف هذا البناء القديم الذي كان قد بناه الروس عام ١٨٥٠، في إطار دعمهم وعلاقتهم التحالفية مع الإمبراطورية العثمانية التي كانت تتبع لها القدس في ذاك الزمان، بدت زوايا وأقواس سقف البناء على حالها وعلى قدمها وعمرها الذي يوشك على الانتهاء، فيما القواطع بين الزنازين بدت دخيلة وحديثة البناء لتشوه جمال هذا العمران الروسي. بقيت وحيداً ومعزولاً عن الآخرين إلى أن حان موعد السفر إلى «معبار» الرملة.

لهيب آب حليف النحشون

عصراً كان الوقت، ولهيب يوم الثامن من آب كان كاوياً، كنت الأول الذي اقتادوه إلى «البوسطة»، إلى خزانة العزل فيها طبعاً، واستغرقهم الوقت أكثر من ساعة لتجميع بقية المنقولين، خلالها، تحولت خزانة العزل إلى ما يشبه الفرن، وشعرت أن القليل من الهواء الذي تحتويه كابينة العزل قد نفد، عندها تحركت البوسطة، فخفت وطأة الحر قليلاً، وتحرك الهواء وتبدل خلال نحو ساعة من السفر إلى «معبار» الرملة.

عندما وصلنا، بدأت عملية تفريغ الحمولة بشكل عكسي، أي أنهم بدأوا بإنزال الأسرى الذين دخلوا «البوسطة» في الآخر، في عملية روتينية استغرقت لسبب ما وقتاً أطول من وقت التحميل، فعادت كابينة العزل تغلي، خاصة أن درجة الحرارة في الرملة أعلى بكثير مما كانت عليه في القدس، مع بعض الرطوبة الخانقة بسبب قربها من البحر، ومجدداً، أحسست أن الهواء في الكابينة قد نفد، وفي

الواقع، فإن كمية الأوكسجين قد تناقصت بشكل كبير، ما جعلني أشعر بالضيق وأتنفس بصعوبة شديدة، وكان أول ما تبادر إلى ذهني سؤال غسان كنفاني في روايته «رجال في الشمس»: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟»، فبدأت بالطرق على باب الكابينة وجنباتها مستعيناً بالقيود الحديدية في يديّ وقدميّ، وهو ما أسمع بل وأزعج أفراد النحشون، لكنهم وقد عرفوا سبب قيامي بالطرق، لم يفعلوا شيئًا، وتعاملوا مع احتجاجي وطرقي المتواصلين ببلادة وتجاهل، وهو ما أكد لي أن إبقائي بهذه الظروف والوضعية متعمد، وشكل من أشكال العقوبة، ونوع من أنواع الضغط عليّ لإنهاء إضرابي.

انقضى وقت غير قليل وأنا على هذه الحال، فتوقفت عن الطرق بعد أن استنفدت قواي التي كنت أدرك أنني بحاجة لها كي لا أفقد الوعي، إذ كنت أشعر أنني أقترب من هذه اللحظة، عندها، فتحوا الباب وأخرجوني من خانة العزل في «البوسطة»، وما إن استنشقت الهواء النقي، حتى أغمي عليّ أو كاد، فجلست على الأرض لبعض الوقت إلى أن استعدت وعيي وتوازني، وهم ينظرون إليّ كما لو أنهم توقعوا ما حصل معي، فلم يجبروني على النهوض ومواصلة المشي، بل اكتفوا بالتحلق حولي ومراقبتي، بمن فيهم بعض الضباط.

في «المعبار» من جديد

مجدداً، تم إدخالي إلى غرفة العزل ذاتها التي قضيت فيها الليلة الفائتة، وكنت قد تركت فيها نصفي السيجارة المكسورة، كانت قد مرت عليّ نحو ١٤ ساعة دون تدخين، وهو زمن طويل جدّاً بالنسبة لمدخن مثلي، بدأت أفكر كيف بإمكاني أن أشعل أحد

نصفي السيجارة، جاءني الإنقاذ سريعاً، وبالصدفة، حيث مر من أمام غرفتي رفيق كان معي في ذات القسم في سجن «عوفر» قبل أن ينقل إلى سجن النقب قبل ثلاثة أشهر، ولسبب ما، يتم نقله الآن عبر «معبار» الرملة إلى سجن آخر.

خلال ثواني مروره من أمام غرفتي أخبرته بوضعي، وقد فهم الأمر تماماً بسبب معرفته المسبقة بأنني مضرب عن الطعام، ولخبرته بأنه يتم عزل المضربين ومنع السجائر عنهم، وبعد وقت قصير، وصلتني منه بطريقة ما علبة سجائر كاملة وولاعة، كانت بالنسبة لي كمن جلس على مائدة طعام فاخرة بعد جوع شديد، وبدأت أدخن بنهم سيجارة تلو أخرى.

لم تكف إدارة السجن في «المعبار» عن الضغط عليّ. جاءني السجين المدني المكلف بتوزيع الطعام والماء الساخن، وسألني إن كنت أريد أن آكل أو أشرب شيئاً، فصرفته وطلبت منه ألا يعود، لكنه عاد بعد نحو ساعة يرافقه سجان. فتح السجان باب الغرفة بينما همّ السجين المدني بإدخال صينية عليها أصناف عديدة من الطعام، وبكمية تكفي لخمسة أشخاص، قال لي إنها لك إن أردت أن تأكل، وإن لم ترد، اتركها في الغرفة. رفضت إدخالها، وبجسدي منعت السجين المدني الذي كان يحملها من دخول الغرفة، فوضعها أمام الباب وانصرفا، وبدا لي أنهما يسعيان لإثارة شهيتي، حيث إن رائحة ما عليها من طعام كانت قوية ومشهية بالفعل، لكنني لم أعر حركتهما أي اهتمام، دخلت إلى الحمام وأشعلت سيجارتين، واحدة تلو الأخرى، وما إن انتهيت وخرجت، حتى كانت صينية الطعام قد اختفت، وبهذا الوضع، اقتنصت لحظات هدوء وغرقت نتيجة التعب والإرهاق في نوم عميق حتى الرابعة فجراً، موعد العد

الصباحي وبدء عملية النقل.

مرة ثانية أخرجوني قبل الجميع إلى أقفاص العزل مباشرة بانتظار رحلة العودة إلى «عوفر»، كنت قد أخفيت الولاعة وما تبقى لدي من سجائر، ورغم تفتيشهم الدقيق، فلم يعثروا عليها، وبعد انتظار نحو ساعة في قفص العزل، حشروني مجدداً في خزانة العزل في «البوسطة» المتجهة إلى «عوفر»، حوالي العاشرة صباحاً وعند وصولي سجن «عوفر»، سألني ضابط السجن عما إذا كنت أريد العودة إلى القسم العادي، أم إلى قسم العزل حيث المضربون، وما إن دخلت قسم ٢٠، حيث المضربون المعزولون، حتى أحسست بأن كل ما واجهته في رحلة العذاب والشقاء قد انتهى لصالحي، وأنني تفوقت على السجان وعلى «النحشون».

دومينوز

لم يخطر ببالي يوماً أن ألعب أو حتى أن أتعلم لعبة الدومينوز، رغم أن مناسبات عديدة كانت أتاحت لي ذلك، كنت أعتقد أنها لعبة مملة وتخلو من التحدي، لكن ظروف السجن وفائض الوقت ومحدودية وسائل التسلية، حيث لا ورق لعب ولا أحد ممن كانوا في غرفتي يجيد لعب الزهر أو الشطرنج، دفعتني لتعلم لعبة الدومينوز، وقد بدأت أتقنها تماماً.

في ظروف العزل خلال الإضراب، كان لا بد من لعبة ما للتسلية وإضاعة الوقت، لم تكن الدومينوز متاحة كما كل الأشياء الأخرى، فكان لا بد من تصنيعها بشكل بسيط وبدائي، قمت بتقطيع علب الكرتون الخارجية لمعجون الأسنان بطريقة مستطيلة مماثلة لأحجار الدومينوز، وبواسطة قلم كان قد تم تهريبه، رسمت على كل قطعة الأرقام المطلوبة، فأصبحت

لدينا لعبة دومينوز تفي بالغرض ويسمح حجمها بإخفائها عن أعين أبالسة التفتيش. ليلاً، كنا نخرجها من مخبئها ونبدأ اللعب والتحدي، كان السجانون يمرون على الغرف ليلاً كل نصف ساعة، ينظرون باستغراب إلى ما نفعله ولكن لم يفهموا، أو لم يخطر ببالهم أننا قد نصنع شيئاً ممنوعاً كهذا، وهكذا، فقد لعبنا طيلة فترة إضرابنا، وعندما انتهى إضراب دفعتنا، أورثناها لمن كانوا في الدفعات التالية وبقوا بعدنا في الإضراب.

الملح والسجائر

كان الملح ضرورياً لنا في الإضراب، لذا، كان لا بد من الحصول عليه رغم مسعى الإدارة الرئيسي في التفتيشات لمنعنا من حيازته، وضبط ما يمكن أن نكون قد نجحنا في تهريبه، فهم يعرفون أن الملح ضروري للحفاظ على التوازن الجسدي خلال الإضراب، ويدركون أن وجوده وتناولنا له لا يضيرهم بشيء سوى أنه يعيننا على الصمود ويخفف من معاناتنا.

وكانوا يلاحقون السجائر أيضاً، وهي التي تعين المدخنين منا على التخفيف من وطأة الإضراب، والتدخين بالطبع يلزمه وجود ولاعة في كل غرفة من الغرف السبع التي كنا نشغلها، وهو ما تقدر الإدارة أنه يستحيل علينا توفيره. أما بالنسبة لنا، فهو تحدٍّ لا بد من النجاح فيه.

لم يكن ممكناً أن نهرّب من الأقسام التي أتينا منها كميات من الملح تكفينا لفترة الإضراب، ولا ولاعات بعدد الغرف السبع، فكان لا بد من «الاستعانة بصديق»، وكان الصديق جاهزاً للمساعدة؛ فخلال أيام الإضراب كلها، كانت تصلنا بانتظام كميات كافية من الملح وعدد من السجائر تكفي لأن يحصل كل مدخن على ثلاث سجائر يومياً،

وهو عدد غير كاف، ولكنه أفضل من العدم. كنا أربعة مدخنين في غرفة العزل نحصل على ١٢ سيجارة يوميّاً، ندخن أربعتنا من السيجارة نفسها، سيجارة واحدة كل ساعة ونصف الساعة تقريباً، ونترك سيجارتين لآخر الليل يتقاسم كل اثنين واحدة منهما، فتكون بذلك هي الوجبة الأدسم التي تكفينا حتى صباح اليوم التالي. أما الولاعات، فقد حصلنا عليها أيضاً من ذات الصديق عند وصولنا للقسم، وبقينا نحافظ عليها بحرص شديد باعتبارها أغلى ما نملك.

وجريدة لكسر العزلة

الهدف الأساسي من العزل هو منعنا من التواصل مع العالم الخارجي، بل وحتى مع بقية الأسرى، ومنعنا من متابعة الأخبار والمستجدات، وخاصة ما يتعلق منها بالإضراب والتحركات الجماهيرية والإعلامية المساندة لنا في الخارج، وكذلك منعنا من معرفة ما يحصل من تطورات في السجون الأخرى. لم تتوقع إدارة السجن، ولم نتخيل نحن أيضاً أنه بالإمكان تهريب راديو، ولكن ذلك حصل، وبمساعدة من نفس الصديق، فمنذ اليوم الأول، كان الراديو بين أيدينا، ننقله بين الغرف لبعض الوقت، فيما كنت أستمع أنا باعتباري صحافيّاً لنشرات الأخبار والبرامج المتعلقة بالأسرى وأخبارهم، وأكتب ملخصاً يوميّاً كان أشبه بالجريدة اليومية الصغيرة، يتم تناقلها بين كافة الغرف بالتتابع، يقرأها أحدهم على مسمع جميع من في الغرفة، ثم يتم نقلها بسرية تامة للغرف الأخرى، إذ إن وجود الورق والأقلام ممنوع أيضاً بالطبع، فكيف سيكون الحال إن ضبطت لدينا أوراق مكتوبة عليها أخبار من السهل معرفة أنها مستجدة وحديثة. أما ضبط راديو، فستكون عاقبته أكبر، ونتيجته مزيد من العزل والعقوبات قد تصل حد النقل العقابي إلى سجون أخرى، لذا، فقد كنا نتعامل مع

الراديو بمنتهى الحرص والجدية، وكنا «نخليه» نخبأه باستمرار في أكثر الأماكن أمناً، وعندما يحين موعد نشرة الأخبار، نستنفر جميعاً لمتابعة أي حركة غير عادية للسجانين قد توحي باحتمالية تفتيش.

كان موعد نشرة أخبار الأسرى في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً على راديو أجيال أحد المواعيد المهمة، ففيها ملخص مكثف وقصير لكافة المستجدات المتعلقة بالأسرى، وبشكل خاص آخر أخبار الإضرابات بما فيها إضراب الكايد وإضراب الأربعة الإداريين الذين كانوا معنا في نفس القسم، وكان يذكر اسمي يومياً وعدد أيام إضرابي مع الأسرى الخمسة، باعتبار أن هدف إضرابي هو إنهاء ملف اعتقالي الإداري، وهو ما كان مخالفاً للواقع، ومع ذلك، فقد كنت أرجح أن زميلتي الصحافية سماح نصار التي تعدّ وتذيع الأخبار كانت تزج باسمي رغبة في إبراز قضيتي ودعمي وإسنادي، فأقول في داخلي: شكراً سماح، فأنت وفية تحترمين زمالة المهنة وتحفظين المعروف.

زيارة راديو

كتبت في عنوان سابق عن زيارة الشاشة، وهذا ما كان مستحيلاً أن يتحقق خلال الإضراب والعزل، ولكن كان ممكناً أن تتحقق زيارة الراديو، أي أن يسمع أحدنا صوت قريب أو شخص يخصه عبر الإذاعة، وهو ما جرى خلال موجة مفتوحة لتغطية الإضراب الذي بات يتسع مداه وصداه، كنا قد عرفنا موعد بث الموجة المفتوحة من خلال الإعلانات الترويجية «البرومو» المتكررة عبر صوت فلسطين والإذاعات الشريكة في الموجة التي كان يتم الإعداد لها، وبقينا ننتظرها لحظة بلحظة، خاصة أن من بين المتحدثين وفقاً للإعلان ستكون والدة الأسيرين البلبول، وزوجتي.

كان الأخوان بلبول في غرفة رقم ١، وكنت أنا والراديو بحوزتي في غرفة رقم ٣، وتفصل بيننا غرفة ٢ التي يقيم فيها الهريمي والقاضي، ومع ذلك، فقد تمكنت من إيصال صوت الراديو للأخوين بلبول. استمعا إلى صوت والدتهما التي دعت لهما بالصبر والثبات بكلمات سيدة مفجوعة على زوجها الشهيد، ويحترق قلبها على ولديها المعلق مصيرهما بين الحياة والشهادة. كانت كلمات مؤثرة وموجعة حملت معاني الصمود والتحدي.

تحدثت بعدها زوجتي ملخصة وضعي ووضع المضربين عموماً رغم شح المعلومات التي كانت متوفرة لديها بسبب العزل، وأشارت إلى حراك الدعم والإسناد الجماهيري، وإلى التقصير على المستوى الرسمي. بالنسبة لي، لم تكن تهمني تفاصيل ما تقول، بقدر ما همني أن أطمئن عليها وعلى معنوياتها في ظل محنتها ومحنتي، سمعت قوة في نبرة الصوت ممزوجة بعاطفة إنسانية وحنين زوجة لزوجها ودعم له بلا حدود، فكانت تلك زيارة راديو مميزة للأخوين بلبول ولي في ظل ظروف العزل.

همّة مارسيل خليفة وعصفور أميمة الخليل

كان الراديو مخصصاً فقط لسماع الأخبار وبرامج الأسرى، فلا الاحتياطات الأمنية ووجوب الحذر، ولا ضرورة الحفاظ على عمل البطاريات، تسمحان بغير ذلك. ولكن ذات يوم سبت، انتهت نشرة أخبار الساعة الثانية على صوت فلسطين، فأزاح عبد الله مؤشر الراديو قليلاً لنلتقط صوت مارسيل خليفة قادماً عبر إذاعة النجاح. دون تشاور أو اتفاق، سمحنا لأنفسنا، وكنا قد بقينا أربعة في غرفة رقم ٣، بأن نستمع إليه، فقد كنا بحاجة لشحنة كهذه، لكنها لم تكن أغنية واحدة فقط، بل واحدة تلو أخرى، ومقطوعة موسيقية من إبداع خليفة تلو أخرى، وبينهما أحياناً صوت أميمة الخليل الشجي. وهكذا سرحنا كلاً في عالمه، وغفونا جميعاً على

أنغام مارسيل وصوته لنحو ساعتين، واستيقظنا وكان صوته لا يزال يصدح، فواصلنا الاستماع بصمت وخشوع دون أن نكترث لعواقب ذلك، لكن الحظ كان حليفنا، فلم نداهم خلال نحو خمس ساعات بأي تفتيش مفاجئ، وكأن عصفور أميمة الخليل كان حارساً لنا، وحافظت البطاريات على طاقتها وكأنها استمدت طاقة إضافية من قوة صوت مارسيل، وشددنا الهمة التي كانت أصلاً قوية.

الصليب الأسود

كانت منظمة الصليب الأحمر الدولي قررت في حزيران عام ٢٠١٦، وعلى نحو مفاجئ، أنها لم تعد قادرة لأسباب مالية على تنظيم الزيارة الشهرية الثانية لأهالي الأسرى لأبنائهم في السجون، وهو إجراء كان يتبعه وينفذه الصليب الأحمر منذ سنوات طويلة. لم يقنع تبرير الصليب الأحمر أحداً بأن قراره يعود لأسباب مالية، حيث إن السلطة الفلسطينية أبدت استعدادها لتغطية العجز المالي المفترض، لكن الصليب لم يستجب، فبدا قراره وكأنه تواطؤ مقصود مع إدارة السجون، في ممارسة مزيد من الضغط على الأسرى وذويهم، وسحب الحق المكتسب في الزيارة الثانية، والإبقاء على زيارة شهرية واحدة شهرية فقط، وهو ما يريح إدارة السجون ويوفر جهداً ومالاً على إدارة السجون والصليب الأحمر، وفي المقابل، يحرم الأسرى من حق إنساني بالتواصل مع ذويهم. وما زاد الطين بلة، أن قرار الصليب تزامن مع موجة الإضرابات عن الطعام التي طالت نحو ١٤٠٠ أسير أضربوا لمدد مختلفة ولأسباب مختلفة، تتعلق إجمالاً بتحسين ظروف اعتقالهم، فازداد الحنق على الصليب الأحمر، حتى وصل الأمر إلى الإعلان عن إضراب عن الطعام ليوم واحد خاضه الأسرى السبعة آلاف رفضاً

لقراره واستنكاراً لدوره.

في خضم ذلك، وخلال فترة إضرابنا، حضر ممثلان عن الصليب الأحمر لقسم الإضراب في «عوفر»، التقيا فقط مع محمد البلبول وعياد الهريمي ولم يلتقيا ببقية الأسرى المضربين تضامناً مع الكايد، بعد نحو أسبوع، وبعد أن تم نقل الأسرى الأربعة المضربين للمطالبة بإنهاء اعتقالهم الإداري إلى المشافي نظراً لتدهور وضعهم الصحي، جاء ممثلا الصليب الأحمر ثانية إلى القسم، تشاورنا على عجل، وقررنا أن أقوم أنا بإبلاغ ممثلي الصليب بموقفنا.

تحدث معي أحدهما، وبدا من لهجته أنه مصري الجنسية، فيما الثاني، وهو الأعلى مرتبة وظيفية، كان أجنبيّاً، عرف بنفسه وزميله وأوضح مهمتهما وسبب زيارتهما، وساق تبريراً لسبب تأخر «الصليب» عن زيارتنا رغم أن بعضنا كان قد انقضى على إضرابه أكثر من أسبوعين، فقاطعته ملخصاً موقفنا الجماعي: «نحن لا نرحب بكم، ونرفض لقاءكم وإعطاءكم أية معلومات عن وضعنا، أو تقديم أي شكوى، مع أن لدينا الكثير، وذلك بسبب تقاعسكم عن أداء دوركم بضرورة زيارتنا منذ أن شرعنا في الإضراب، وبسبب موقفكم المتواطئ مع إدارة السجون بحرماننا وكافة الأسرى من الزيارة الشهرية الثانية». وأبلغته أن هذا موقف كافة المضربين عن الطعام الموجودين في قسم العزل هذا.

حاول مواصلة الحديث، فقلت له إن الزيارة انتهت. استأذنني إن كان بإمكانه أن يزور الغرف الأخرى، ويقابل آخرين، فقلت له إنني لست من إدارة السجن لأمنعه من التحدث مع أي أسير، وإن له ذلك، فتوجه للرفاق في الغرفة المجاورة فرفضوا الحديث معه بالمطلق، وتوجه للغرفة الثالثة فنصحوه بألا يتعب نفسه بإكمال جولته وأن ما أبلغته إياه هو موقف يعبر عن الجميع، طأطأ رأسه وزميله وقفلا عائدين، وفهما بأن صليبهما بات أسود لا أحمر.

المحامون نافذتنا على الخارج

تشكل زيارة المحامين للأسرى المعزولين نافذة لهم على الخارج، وصلة وصل مع الخارج، فهم ينقلون وإن بشكل مقونن الأوضاع في الخارج وأخبار الأهل، وفي الوقت ذاته، يحملون رسائل المضربين عن الطعام إلى ذويهم في الخارج ويطمئنونهم عنهم وعن أوضاعهم.

وللحقيقة، فإن محامي الجهات الثلاث التي تعنى بشؤون الأسرى، وهي هيئة شؤون الأسرى والمحررين، ومؤسسة الضمير، ونادي الأسير، لم يتركوا يوماً من الأيام المخصصة لهم لزيارة الأسرى، وهي يوما الثلاثاء والخميس من كل أسبوع، إلا وكانوا حاضرين لمقابلة عدد من المضربين. وبحكم علاقتي بالجهات الثلاث، ولخصوصية وضعي كصحافي وناشط نقابي في الجسم التمثيلي للصحافيين، فقد كنت باستمرار على قائمة الأسرى الذين يزورهم المحامون. كنت أنقل لهم صورة أوضاع المضربين عموماً ورسائلهم للخارج، بالإضافة إلى رسائلي لأسرتي.

وزيارة المحامي تعطي للأسير المضرب فرصة للخروج من ضائقة العزلٍ ولو لوقت قصير، وتشعره بوجود سند يستمد من خلاله مزيداً من الصمود، ويتغذى مما ينقله له المحامي منٍ نسائم الخارج، فيقلل من وقع عزلته ويعيده لحقيقة كونه جزءاً من كل، بل إنه الجزء الذي ينظر إليه بفخر واعتزاز.

صادف أن زارني محامي هيئة شؤون الأسرى لؤي عكة، ولم أكن قد التقيته من قبل. وأثناء الحديث، تبين أنه يعرف زوجتي بصفة شخصية من خلال سفر سابق لهما ضمن مجموعة كانت موفدة إلى مصر، وهو ما عمق العلاقة بيننا وأكسبها بعداً شخصياً بالإضافة للبعد المهني. وبعد زيارتين أو ثلاث، تبين أيضاً أنه يعرف بصفة

شخصية أسماء ابنة شقيقتي المقيمة في مصر، فكانت فرصة نادرة لي لأبعث لها تحياتي ومحبتي، وهكذا، تعمقت العلاقة الشخصية معه، وواصل زيارتي بعد انتهاء الإضراب.

فتح الصديقة والشريكة

ذكرت أن معظم ما تم تهريبه إلينا كان بمساعدة صديق: الراديو، والملح، والسجائر، والأوراق، والأقلام، ونحو ٦٠ سيجارة يومياً. وكان كل ذلك عوناً أساسياً لنا في التخفيف من وطأة العزل وظروفه، وأشعرنا بأننا لسنا وحيدين في المعركة، وبأن سنداً قوياً يقف خلفنا؛ إنه الصديق، إنه فتح.

حركة فتح التي يشكل أسراها الكم الأكبر من حجم الأسرى عموماً، بمن في ذلك الأسرى في سجن «عوفر»، حيث يبلغ عددهم نحو ٦٠٠ أسير من أصل ١٢٠٠. لم تبخل فتح بعطائها، بل كانت مبادرة بتزويدنا بكل ما أمكنها تهريبه إلينا، لتجسد بذلك عمق العلاقة التاريخية داخل السجون وخارجها، وفعلت ذلك لتعبر عن أصالة قيادييها في سجن «عوفر»، وخاصة ممثل السجن أبو تامر.

كانوا يعتبرون أن ما قدموه لنا واجب تفرضه وحدة الخندق وشراكة النضال والمعاناة من ذات السجان.

إنهاء الإضراب

في اليوم السادس عشر لإضرابي، كانت قد تبقت أربعة أيام على موعد انتهاء اعتقالي. تسلمت قرار تمديد الاعتقال لثلاثة أشهر

أخرى، وهو ما كان متوقعاً ومتوافقاً مع قرار المحكمة العليا. ورغم ما في ذلك من ظلم وقسوة يعكسان غطرسة الاحتلال ونظرته لنا كبشر من طينة أخرى تستحق كل عقوبة ممكنة، إلا أنني قرأت في اختصار فترة التمديد من أربعة أشهر إلى ثلاثة مؤشراً إيجابيّاً قد ينهي محنتي، خاصة أن تجديد الاعتقال لفترة ثانية، أيّاً كان أمدها، يعني إمكانية اللجوء مجدداً إلى المحاكم من الدرجات الثلاث: محكمة التثبيت، ومحكمة الاستئناف، والمحكمة العليا. وبالتالي، فإن أمامي فرصة لتقليص مدة أمر الاعتقال الجديد، أو على الأقل ضمان عدم تجديده لمرة ثالثة، وهو ما يحدث في كثير من الأحيان مع المعتقلين الإداريين، إذ لا أمد محدداً لفترة الاعتقال الإداري أو عدد المرات التي يجدد فيها قرار الاعتقال. وبما أن موعد إنهاء إضراب دُفعتنا كمتضامنين مع الكايد سوف ينتهي بعد يومين من ذلك، فقد قررنا أن ننهي إضرابنا صباح الأحد ٢٠١٦/٨/٢١.

في ذلك الصباح، سلمنا ما في عهدتنا من «ممنوعات» إلى الذين سيواصلون إضرابهم من الدفعات التي كانت قد لحقت بنا، وأبلغنا الإدارة بقرارنا إنهاء الإضراب وعودتنا إلى أقسامنا حيث نقيم. ولأن إدارة السجن كانت تخشانا وتخشى حفاوة استقبالنا ممن هم في القسم، فقد أصرت على إعادتنا إلى القسم على دفعات، كل دفعة من اثنين فقط، ومع ذلك، فإن هذا الإجراء المرتبك لم يمنع الرفاق من الاحتفاء بنا، كما كان الاحتفاء بعودة كل دفعة كانت قد أنهت إضرابها وفقاً لما هو مخطط دون انكسار.

عانقنا الجميع، رفاقاً ومجاهدين، ودخلنا إلى غرفة رقم ١، وتم إعداد الشاي بشكل خاص، ليكون أول ما يدخل في جوفنا منذ ١٨ يوماً، ثم بعده مباشرة طبق أو اثنان من الشوربة التي أعدت في

المطبخ المركزي خصوصاً لنا . ارتحنا قليلاً وتمشينا لبعض الوقت، قبل أن يعود كل منا إلى غرفته للراحة ومواصلة الأكل بالتدرج اللازم. التزمت تماماً ببرنامج الأكل التدريجي: سوائل وشوربات فقط في اليوم الأول، ثم الحليب واللبن والفواكه في اليوم الثاني، ثم كسرة خبز وقليل من الأرز والبطاطا في اليوم الثالث، ثم العودة للأكل الاعتيادي بكميات متزايدة في الأيام التي تلت.

عانيت في اليوم الأول من دوخة وعدم اتزان ناجمين فيما يبدو عن عودة الضغط إلى مستوياته الطبيعية، لكن هذه الحالة انتهت تماماً في اليوم الثاني. في اليوم الخامس، يبدو أنني تجاوزت الكمية اللازمة من السكر بعد أن أكلت الديسة (حليب مع سميد)، وهي حلوة المذاق أصلاً، ولكني أضفت إليها مزيداً من السكر وملعقة شوكولاتة، ما أدى في اليوم التالي إلى حدوث انتفاخات في بعض أنحاء جسمي وخاصة القدمين. انتبهت لذلك وتوقفت عن تناول السكر نهائيّاً لخمسة أيام تلت، حتى انتهت الانتفاخات تماماً، ثم عدت تدريجيّاً لتناول كميات من السكر والحلويات، فمضت الأمور على خير ما يرام، بعد مرور عشرة أيام على إنهاء الإضراب.

اضطرابات النوم

واحد من التغيرات والاضطرابات التي تصاحب الإضراب هو اختلال في مواعيد وفترات النوم، خلال وبعد انتهاء الإضراب، سواء من حيث عدد الساعات التي يقضيها المضرب نائماً، أو من حيث توزيع هذه الساعات وأوقات النوم، فلا يعود الليل بالضرورة وقتاً للنوم، ولا يعود النهار وقتاً للاستيقاظ، فخلال الأيام الأولى من الإضراب، تزداد عموماً ساعات نوم المضرب، حيث يحاول إضاعة الوقت وقتله، أو

يحاول الهرب من آلام الجوع والصداع إن وجدت، ولكنه مع مرور الأيام يبدأ بالتأقلم مع ظرفه الجديد، وبإيجاد طرق لتمضية وقته. ومع بدء الأسبوع الثاني والدخول في مرحلة التخلص من الآلام التي تترافق مع استنفاد مخزون الطاقة لديه، وبالتالي قلة حركته وجهده المبذول، فإن حاجة الجسم للراحة والنوم تبدأ بالتناقص، فبدلاً من ثماني ساعات نوم، تكفي ثلاث أو أربع، وحتى هذه المدة القصيرة لا تكون متواصلة، وبهذا تحدث اختلالات كبيرة تتواصل خلال فترة الإضراب كلها، وتستمر إلى ما بعد انتهاء الإضراب ببضعة أيام.

في اليوم الأول لإنهاء إضرابنا، كنا ثلاثة الذين عدنا إلى نفس الغرفة. لم يتمكن أحد منا من النوم قبل الرابعة فجراً. نمت أنا ساعتين فقط. استيقظت في السادسة فجراً وأنا منتعش وبكامل نشاطي، ولم أشعر بالحاجة للنوم حتى الثالثة من فجر اليوم التالي. وهكذا استمر التشويش بالنوم من حيث وقته وعدد ساعاته، بما يشبه حالة المسافر الذي يطير من بلد لآخر ويكون بين البلدين فارق كبير في التوقيت وفي ساعات الليل والنهار. استمر ذلك لما لا يقل عن أسبوعين حتى عادت المسألة للانتظام وتجددت حاجة الجسم للنوم المتواصل ليلاً.

أسامة نزال

4

الألبوم الرابع

على عتبات الإفراج

إن أكثر ساعات الليل حلكة
هي تلك التي تسبق انبلاج الفجر

سيدنا إبراهيم

من الأعراف المتبعة في السجون، ومنها سجن «عوفر»، أن يتم توزيع الأسرى من حركة فتح، وكذلك الأسرى من حركة حماس، على الأقسام المختلفة الخاصة بكل فصيل، وفقاً لأماكن سكناهم وتوزيعهم الجغرافي، فيصبح توزيع الأسرى على الأقسام وفقاً للانتماء السياسي متبوعاً بمكان السكن، فيكون هناك مثلاً قسم لحماس مدينة الخليل، وقسم لحماس قرى محافظة الخليل، وقسم لفتح بيت لحم، وآخر لفتح مخيم الأمعري أو فتح قلنديا .. إلخ من هذه التقسيمات المقيتة التي تستند على ثقل وعدد الأسرى من كل منطقة، وبهذا، تكون لكل قسم سماته، وأحياناً تسمياته. فعلى سبيل المثال، كان أسرى حركة حماس من محافظة رام الله يشغلون قسم ١٢ بالكامل، وكان يطلق على هذا القسم تندراً (قسم مكة المكرمة)، ومن يقوم بزيارته من أسرى حماس من الأقسام الأخرى، يقال إنه حج إلى مكة.

قسم ١٦ في «عوفر» كان يشغله مناصفة أسرى حماس وأسرى الجبهة الشعبية: ستون أسيراً لكلٍ منهما. أسرى حماسٍ فيه جميعهم من مدينة الخليل، وهم تبعاً لهذا يتشاركون إجمالاً نفس العادات والتقاليد ونمط السلوك، بما فيه الأكل والشرب. أسرى حماس «الخلايلة» في قسم ١٦ يولون الأكل اهتماماً أكثر من غيرهم كما بدا لي، فهم مثلاً يهتمون باقتناء وأكل العسل بشكل دائم، ويعدون منه خلطات خاصة بإضافة المكسرات إليه، مثل الكاشو والجوز واللوز، ويهتمون بالحلويات المعروفة في مدينة الخليل، وأغلبها يعتمد إعداده على الحليب والنشا والسميد والبسكويت والمكسرات، بالإضافة إلى الهريسة. أما أكلاتهم المفضلة، فهي

المناسف والقدر.

ومعروف عن مدينة الخليل ما تقدمه تكية سيدنا إبراهيم الخليل من حساء خاص يسمى «شوربة سيدنا إبراهيم»، يوزع مجاناً على من يرغب من أهالي المدينة وزائريها، فالخليل مدينة معروفة بكرم وسخاء وعطاء أهلها، حتى قيل فيها إنها المدينة التي لا يجوع فيها أحد. وعملاً بهذا التقليد، فقد اعتاد أسرى حماس في القسم على إعداد كميات وافرة من هذا الحساء وتقديمه عقب كل صلاة جمعة، حيث توضع حلل الحساء في ساحة القسم، ويدعى جميع الأسرى في القسم لاحتساء ما يشاؤون منها، ويصنع الحساء بمذاق فريد، يجمع الحلو بالمالح، وأحياناً كان الحساء يقدم بنسختين: إحداهما مالحة أشبه بمذاق الحساءات الأخرى التي تقدم مع وجبات الأكل، والثانية حلوة المذاق أقرب إلى الحلويات. وثلاثتها لذيذة، وكانت تلقى إقبالاً واسعاً وخاصة مع برد الشتاء.

دجاج وطني

بالإضافة إلى ما تقدمه إدارة السجن من طعام للأسرى، وهو من نوعيات محددة وبكميات غير كافية، فإنه يمكن للأسرى أن يشتروا كميات إضافية من ضمن قائمة الطعام المسموح به، ولكن أيضاً ضمن معايير وسقوف كمية محددة من إدارة السجن، ارتباطاً بسياستها الخاصة بالحرمان والتجويع، وهذه الكميات الإضافية تُدفع أثمانها من حساب مشترك لكل أسرى السجن، ومن ثم يتم توزيعها حسابيّاً على كل فصيل وفقاً لعدد أسراه في السجن، ثم يوزعها كل فصيل بدوره على أسراه وفقاً لسياسته المالية التي من

ضمنها اقتطاع مبلغ لصالح الصندوق العام للفصائل، الذي يتم من خلاله شراء ما هو مشترك ومتفق عليه لكافة الأسرى، ومن ضمن ذلك كميات الطعام الإضافية المسماة لدى الأسرى اختصاراً «الوطنية» لتمييزها عما تقدمه إدارة السجن.

و«الوطنية» تصرف عادة بطريقتين: الأولى أنه يتم في الخامس عشر من كل شهر، أو بموعد حوله، شراء كمية من الخضار والفواكه التي لا تقدم مثلها إدارة السجن، أو تقدمها بكميات ضئيلة، والتي تراعى فيها أيضاً إمكانية تخزينها لتكفي أطول فترة ممكنة من الشهر، وتشمل عادة: البقدونس، والنعناع، والثوم، وصنفاً آخر من الخضار، وصنفاً أو اثنين من الفواكه. وموعد وصول «الوطنية» واستلامها هو موعد مهم ينتظره الأسرى، وخاصة الذين يتشوقون أو يُمنّون النفس بأصناف معينة قد يصدف أن تكون ضمن أصناف «الوطنية» لذلك الشهر، وينتظره بشغف أيضاً المسؤولون عن إعداد الطعام، كونه يخفف عنهم عبء توفير وجبات كافية ومكتملة العناصر والاحتياجات.

وفي يوم إحضار وتوزيع «الوطنية» على الغرف، يتولى بعض الأسرى الاعتناء بها، حيث ترى أحدهم يقوم بتنقية وتقطيع البقدونس وتخزينه في ثلاجة القسم، وآخر يعمل على تنقية وتفريط النعناع وتجفيفه ليتم استخدامه لاحقاً، وثالث يعمل على احتساب حبات الموز وكيفية توزيعها على زملائه على أطول فترة ممكنة.. وهكذا.

أما الطريقة الثانية، فتتم عبر اقتطاع جزء من الميزانية العامة لتصرف من خلال مشتريات المطبخ المركزي الذي تتولى إدارة السجن توريد الأصناف والكميات المحددة إليه، التي لا تكفي ولا تفي باحتياجات الحد الأدنى المعقول، وهو ما يضطر الأسرى

لشراء كميات إضافية وخاصة من اللحوم والدجاج وبعض أصناف الخضار، وهذه أيضاً تخضع لقيود وضوابط الإدارة وسياستها. ومن ضمن ما تقدمه إدارة السجن الدجاج، حيث تقدم الدجاج مرتين أسبوعيّاً بواقع ثُمن دجاجة لكل أسير، أي دجاجة لكل ثمانية أسرى. ولكون قطعة الثُمن غير كافية، يلجأ الأسرى إلى مضاعفة الكمية ليوم واحد في الأسبوع هو يوم الجمعة، يدفعون ثمناً للدجاج بقدر ما تدفعه الإدارة، فيصبح الدجاج أرباعاً بدل أثمان، وتكون حصة كل أسير ربع دجاجة، أي دجاجة لكل ٤ أسرى، فأصبح دارجاً لدى الأسرى تعبير «أثمان إدارة» لوجبة يوم الاثنين، و«دجاج وطني» لوجبة يوم الجمعة.

السنابل

مع نهاية عام ٢٠١٦، كان ستة وعشرون صحافيّاً لا يزالون في سجون الاحتلال، قضى بعضهم سنوات طويلة، وبعضهم أشهراً، وبعضهم رهن الاعتقال الإداري. وطوال السنوات الماضية، كان الاحتلال يدعي أن اعتقال هؤلاء الصحافيين لم يأتِ على خلفية عملهم الصحافي، وإنما لأسباب أخرى أمنية وسياسية، وهي ادعاءات زائفة لا يمكن إثباتها، كما لا يمكننا نحن إثبات غيرها، بما في ذلك ما يتعلق بالصحافيين المعتقلين إداريّاً الذين لا تقدم بحقهم اتهامات محددة واضحة مسنودة ببينات وأدلة، وهو ما يتيح لسلطات الاحتلال حبس ومعاقبة الصحافيين بسبب عملهم وأدائهم الصحافي، دون أن تكون مضطرة للإفصاح عن ذلك، وبما يسهل عليها إنكاره عندما تتعرض لضغوط ومساءلات دولية، وهو ما ينسحب أيضاً على اعتداءاتها على وسائل الإعلام ووقف بثها

ومصادرة معدات عملها، كما حصل بشكل مكثف عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦ بحق عدد من الإذاعات، وخاصة في منطقة الخليل، إضافة إلى مكاتب قناة «فلسطين اليوم» في الضفة الغربية.

ومع نهاية آب عام ٢٠١٦، اقتحمت قوات الاحتلال مقر إذاعة السنابل فى مدينة دورا بمحافظة الخليل، وصادرت معداتها وأجهزتها وأوقفت بثها، واعتقلت خمسة من الصحافيين العاملين فيها، بمن فيهم مدير الإذاعة ومالكها أحمد الدراويش. وبعد التحقيق السريع معهم، صدرت بحقهم لوائح اتهام متماثلة تقريباً، وبدأت محاكمتهم بتهم تتعلق جلها بعملهم الصحافي وأداء الإذاعة، وهي سابقة لم تحصل من قبل.

وكشفت لوائح الاتهام الموجهة إليهم بوضوح، أن اعتقالهم وإغلاق الإذاعة لم يكونا إلا لأسباب تتعلق بأدوارهم ومواقعهم في إذاعة السنابل، العاملة والمرخصة من قبل السلطة الفلسطينية صاحبة الولاية والحق بمنح الترخيص. وورد في لائحة الاتهام الموجهة إلى الدراويش والمكونة من خمس صفحات وتتضمن ثلاثة اتهامات، أن إذاعة السنابل تبث على تردد ٩٩,١ FM منذ ثلاث سنوات، ويمكن الاستماع لها من مستعمرات إسرائيلية، وأن لها صفحة على الفيسبوك يتابعها ٥٨٩١٧ مستخدماً. وجاء في اللائحة أيضاً أنه خلال البث المباشر والبرامج التي تتعلق بقوات الأمن وأنشطتها، تقفز نسبة المستمعين إلى حوالي ٤٠٠٪، وهو ما يخالف الواقع، إذ لا توجد أي إمكانية علمية أو عملية لمعرفة نسب وأعداد المستمعين لأي بث إذاعي عبر أثير مفتوح.

وتشير اللائحة ضمن تفاصيل بنود كل منها إلى عدة نقاط يتعلق أغلبها ببث أغانٍ وطنية، وإلى نصوص هذه الأغاني الوطنية، وهي

ليست من إنتاج الإذاعة بالطبع، وتورد في تفاصيل الاتهامات بعضاً من كلمات هذه الأغاني، مثل «دورا والعز باراضيها ورجالها اسود الليل». وفي تفاصيل بند اتهام آخر، ورد أن إحدى الأغنيات على صفحة الراديو على موقع فيسبوك قد حققت ٤٣٤٩ مشاهدة و٤٥ إعجاباً! وأن أغنية ثانية حصلت على ٤٦٠٠ مشاهدة و٣٩٢ إعجاباً و٥ مشاركات! وهكذا، فإن الاتهامات الثلاثة، بتعدد بنودها وتفاصيلها، لم تخرج عن سياق أداء الإذاعة وبرامجها الإخبارية وما تبثه من أغانٍ. وهو ما يقطع الشك باليقين بوجود استهداف ممهنج للصحافيين ووسائل الإعلام الفلسطينية، وأن سلطات الاحتلال تسعى لإسكات كل صوت لا يروق لها، وأن سيف الاتهام بالتحريض حاضر لجز الورود والسنابل.

«أشكحاه»

ضمن أوهام وتخيلات يعيشها ويتعاطى معها بعض الأسرى، فإن نفراً قليلاً منهم يعتقد، مع أنه ليس لاعتقاده ما يدعمه، أن وضعه الصحي، أو إصابته بأمراض واعتلالات صحية أو عقلية، قد تقيه من السجن، أو تخفف من فترة حكمه أو بقائه في السجن، أو على الأقل أن تتم معاملته بطريقة مختلفة تهوّن عليه وطأة الاعتقال وإجراءات الإدارة.

واستناداً لهذا الوهم، فإن بعض الأسرى يدّعون أو يمثلون إصابتهم بأمراض معينة، خاصة الأمراض العقلية، إذ يسهل عليهم تمثيل ذلك، ويصعب على إدارة السجن وطبيبته المختصة دحض الزعم أو كشف زيف الادعاء، خاصة أن لا ضرر أو عبء إضافيّاً تتحمله

الإدارة من وراء ذلك في مثل هذه الحالة، سوى وضع الأسير ضمن تصنيف «أشكحاه»، وهي كلمة عبرية تماثلها بالعربية تقريباً كلمة «أهبل»، أو وضعية أقل من درجة الجنون.

والمصنف «أشكحاه»، يصرف له دواء يومي مهدئ للأعصاب، غالباً ما لا يتعاطاه الأسير، فيؤول إلى سلة القمامة، وحتى عندما تلزمه طبيبة السجن بابتلاع حبة الدواء أمامها، فإنه يحتال بطريقة ما كي لا يبتلعها، نظراً لعدم حاجته إليها أصلاً. وحيث إن هذا التصنيف يوضع على ملف الأسير، فإن أنظمة السجن توجب على السجانين مراقبة سلوك أولئك «المأشكحين»، وخاصة أثناء الليل، ولكن لأن السجانين يدركون أن أغلب الحالات، إن لم تكن جميعها، لا توجب أي اهتمام خاص، فإن أغلبهم لا يلتزمون بأي نوع من الرقابة، ولكن بعضهم، وخاصة المستجدين على العمل، يأخذون ذلك على محمل الجدية والمسؤولية، فيقومون بمراقبة سلوك «الأشكحاه»، ويتوقفون أمام غرفهم للسؤال عنهم أثناء جولاتهم الليلية، ما يضع هؤلاء موضع السخرية والاستهزاء، والتوبيخ أحياناً، من بقية الأسرى، فيندم بعضهم على ما فعل، ويبدأ بالمطالبة بإزالة هذا التصنيف من ملفه، مدعياً الشفاء، والعودة إلى الاتزان والوضع الطبيعي، لكن هذه المطالبة تخضع أيضاً لفحوصات واختبارات صحية حتى يتم اتخاذ قرار من طبيبة السجن بالشفاء وانتهاء الحاجة للعلاج، فلا يكون قد طال الأسير من كل هذه المسألة سوى وصفه بـ«أشكحاه»، التي تبقى تلازمه لفترة طويلة حتى وإن نجح بإزالتها من ملفه.

أبواب

لحظة دخولي سجن «عوفر»، خطر ببالي أن أقوم بتعداد البوابات والأبواب التي تغلق خلف الأسير الداخل إلى السجن إلى حين الوصول إلى غرفته، وهي بالطبع ذاتها التي تفصل بين وجوده في السجن وبين الإفراج عنه، ليس فقط فعليّاً بل أيضاً نفسيّاً ومعنويّاً، لأنه مع دخول كل باب جديد، يستشعر الداخل بغوصه في متاهة ودهاليز السجن الذي يتحكم بأبوابه السجانون، ممثلو الاحتلال وظلامه وظلمه طيلة فترة الاعتقال.

البوابة الأولى هي بوابة عامة لمجمع «عوفر» الذي يحتوي بالإضافة إلى السجن على منشآت وإدارات عسكرية وأمنية وقضائية أخرى. ومن البوابة الأولى لمجمع «عوفر» العسكري، يتجه كل داخل إلى مقصده. والبوابة الثانية، هي بوابة الدخول إلى نقطة تسليم السلاح والعتاد العسكري، حيث يمنع إدخال أية أسلحة نارية إلى السجن، والبوابة الثالثة هي بوابة الخروج من نقطة تسليم السلاح والدخول إلى منطقة السجن. أما البوابة الرابعة، فهي البوابة الرئيسية لمدخل السجن، وهي آخر نقطة تصلها المركبات، يليها الباب الأول الرئيسي لمبنى إدارة السجن، وهو الخامس فعليّاً، ومنه يتم الدخول إلى صالة التفتيش الإلكتروني واليدوي للأسرى، ومن ثم بعد اتخاذ الإجراءات الإدارية إلى الباب السادس، الذي يفصل مبنى الإدارة عن أقسام السجن. أما الباب السابع، فهو الباب الخارجي الذي يفصل كل قسم عن بقية الأقسام والممرات التي تفضي إليها، ومنه إلى الباب الثامن الموازي له، ويبعد عنه ثلاثة أمتار فقط، يحشر فيها الداخل بين البابين لحين إغلاق الباب السابع، إذ لا يجوز مطلقاً فتح البابين السابع والثامن في ذات الوقت. والباب التاسع

هو مدخل القسم الذي يفضي إلى ساحته ومرافقه وغرفه. أما الباب العاشر والأخير، الذي يقود إلى الغرفة التي ينتهي إليها الأسير ليقضي ما قدر عليه من زمن يمكثه داخل الأسر، وإلى أن يحين موعد الإفراج عنه والعودة عكسيّاً عبر البوابات العشر.

وبما أن باب الغرفة هو الوحيد الذي يفتح ويمر عبره الأسير في يومه العادي، فإن بعضاً من الأبواب الأخرى يمر عبرها من وقت لآخر، حين خروجه للمحاكم أو زيارة الأهل أو للقاء المحامين، أو عند انتقاله من قسم لآخر.

وحيث إن كافة الأبواب يتم التحكم بها إلكترونيّاً، فإن نغمة الطنين الملازمة لعملية فتحها تصبح جزءاً ومكوناً من حياة الأسير ومن روتين ما يسمعه يوميّاً، لكن لهذا الطنين وقعاً خاصّاً عندما يسمعه الأسير عشر مرات متتالية للأبواب والبوابات العشرة، في يوم اعتقاله أو في يوم الإفراج عنه.

مسؤول إبرة

تقتضي العلاقات بين الأسرى في مختلف جوانب حياتهم داخل الأسر مستوى عالياً من التنظيم حتى تكون سلسة ومريحة. ودون ذلك، فإن اختلالات وإشكالات عديدة ستسود وتحول حياتهم إلى جحيم، وتقتضي عملية التنظيم من بين ما تقتضيه تحديد مسؤوليات، وإيلاء كل منها إلى أسير يتدبرها ويكون مسؤولاً عن الجانب الموكل إليه تنظيمه وضبطه، وتنفيذ ما يرد بشأنه من أنظمة ولوائح، سواء كانت مكتوبة بنصوص، أو كانت أعرافاً متفقاً عليها شفويّاً.

والعلاقات بين الأسرى تبدأ من مستوى العلاقات الفصائلية الوطنية على مستوى السجن ككل، وتتشارك في تنظيمها القوى التي يعيش عناصرها في ذلك السجن لتعالج وتنظم الشؤون الخاصة بالأسرى، سواء ما يتصل بالعلاقات الداخلية أو العلاقة مع إدارة السجن، ثم من ذلك إلى العلاقات داخل كل قسم من أقسام السجن، ومن ثم إلى الحلقة الأضيق داخل كل غرفة من غرف القسم، حيث تتوزع المسؤولية بين نزلاء كل غرفة، مع الإشارة إلى أن العلاقات على مستوى السجن، وأحياناً الأقسام، تتشاركها الفصائل المكونة لها، بينما العلاقات داخل الغرفة أقرب إلى التراتبية التنظيمية، إذ إن نزلاء كل غرفة هم دائماً من نفس التنظيم، فلا اختلاط فصائلياً في الغرف، وبالتالي، تتداخل فيها المسؤوليات الحياتية مع المسؤوليات التنظيمية، ولهذا نراها تختلف من غرفة لأخرى وفقاً لتابعية الغرفة الفصائلية. كما تختلف تسميات المسؤولين وأدوارهم داخل الغرف بين تنظيم وآخر، إذ لكل تنظيم هيكلية وتراتبية وتسميات مختلفة، لذا، سأقصر حديثي هنا على المسؤوليات الإدارية تجاه الحياة اليومية، وهي موحدة تقريباً لدى كافة الفصائل.

على مستوى السجن ككل، هناك مسؤول أول يسمى عادة «ممثل المعتقل»، ومرجعيته هي منسقو الفصائل التي يتواجد عناصر منها في السجن المحدد، ولكنها في أغلب السجون تتكون من فتح وحماس والشعبية والديمقراطية والجهاد، وممثل المعتقل هو صلة الوصل مع إدارة السجن، ومسؤول عن القضايا العامة والمشتركة لكل الأسرى والأقسام.

وعلى مستوى القسم، كل قسم، يوجد «دوبير»، أي متحدث باسم القسم لمتابعة قضاياه الإدارية واحتياجاته، وله مساعدان اثنان

يسمى كل منهما «أزكان»، يعاونانه على إدارة شؤون القسم، وفي كل قسم أيضاً يوجد عمال ساحة، يتولون مهام واختصاصات مختلفة، لكل منها مسؤول: مسؤول الكانتين «مرفق البيع» وله مساعدون، مسؤول توزيع الطعام وله مساعدون، مسؤول النظافة وله مساعدون، مسؤول الرياضة وله مساعدون، مسؤول الحلاقة وله مساعدون، مسؤول الغسالة وله مساعد، مسؤول الثلاجة، مسؤول المكتبة، ومسؤول الإبرة. وكل مسؤول يعرف مهامه وحدود صلاحياته.

أما على مستوى الغرفة، فهناك مسؤول عام، على الأغلب هو أيضاً مسؤول تنظيمي وله نائب، ومسؤول إداري تتحدد مهامه بتوفير الاحتياجات اليومية الحياتية للغرفة، وتوفير الأكل والشرب، ومتابعة النظافة والنوم والاستيقاظ والتلفزيون، ومسؤول مالي توكل إليه ميزانية الغرفة ومشترياتها، ومسؤول ثقافي يُعنى بالكتب الموجودة بالغرفة والمطالعة والجلسات الثقافية. ووفقاً لهذا الهيكل الإداري، فإن لكل أسير عادي في أي غرفة ما لا يقل عن ١٤ مسؤولاً لتلبية احتياجاته وتنظيم قضاياه الحياتية، هذا بالطبع عدا مسؤوليه في الحركة أو الحزب.

أما في حالة الأقسام المشتركة التي يعيش فيها عناصر من أكثر من تنظيم، فإن بعض المهام يتعدد مسؤولوها، فيكون مثلاً مسؤول الثلاجة لدى فتح، ومسؤول ثلاجة آخر لدى حماس، ومسؤول ثالث للشعبية، وحلاق لفتح، وآخر لحماس، وغيرهما للشعبية والجهاد والديمقراطية، ومسؤول رياضة لحماس، أو الشعبية.. وهكذا.

ولكل مسؤول مرجعيات وقواعد لعمله ومهامه، إلا واحداً، هو

مسؤول الإبرة، إذ يكفي أن يحصل على إبرة بطريقة ما، والحصول على إبرة أمر صعب للغاية كونها من الممنوعات، حتى ينصب نفسه أو يعترف به كمسؤول إبرة، ولأن الإبرة أداة نادرة الوجود في السجن، فإنها تصبح قيمة ومهمة جدّاً، ويصبح بالتالي مسؤول الإبرة من أهم المسؤولين. فكل أسير يحتاج إليه بين فترة وأخرى، يحتاج لخدماته أو لاستعارة إبرته، وهذا لا يتم بسهولة نظراً لحاجة الأسرى المستمرة للإبرة ولندرة وجودها. ومسؤول الإبرة هو من يحدد أولويات استخدامها، فيعطي الأولوية مثلاً لمن لديهم موعد محكمة أو زيارة أهل قريبة، ويضع في الاعتبار عند تحديد الأولويات ماهية القطعة المراد استخدام الإبرة لإصلاحها أو مواءمتها، فهو يقرر مثلاً أن البنطال أهم من القميص، أو أن الملابس الداخلية أهم من بيت المخدة، أو أن الملابس القطنية أهم من الملابسة الصوفية، وقد يقرر أن الأولوية لاستخدامها لملابس كبار السن، أو ربما صغار السن، وقد تضطر لوضع اسمك على لائحة انتظار ولا يعرف متى يأتي دورك! وهكذا، فإن رؤية ومزاج مسؤول الإبرة تصبح مهمة، ويصبح قراره حاسماً بشأن ما يمكنك أن ترتديه من ملابس في ذاك اليوم أو الأسبوع، وربما بشأن مستقبل قطعة ما من الملابس. ولأنه مسؤول، فإن قراره يكون قطعيّاً، لا تراجع عنه، ولا طعن فيه.

إذاعة زغلول

لتعامل الأسرى مع وسائل الإعلام التي تصلهم أو يمكنهم تلقيها قواعد خاصة، تختلف من وسيلة إلى أخرى، ومن سجن إلى آخر، وتتداخل معها الاحتياجات والأمزجة الخاصة بكل أسير

والمرتبطة بمستواه الثقافي والمعرفي واهتماماته، وأحياناً، بانتماءاته التنظيمية. ووسائل الإعلام المتاحة للأسرى تخضع لضوابط وقيود إدارة السجن، إلا الإذاعات، إذ يكفي أن يكون لدى الأسير أو في غرفته راديو ترانزستور، ليلتقط ويستمع إلى ما يشاء من الإذاعات المتاحة، ووقتما يشاء، على أن ذلك رهن بإمكانية وجودة الالتقاط، أو بمعنى آخر، بقدرات كل إذاعة على إيصال أثيرها إلى السجون المختلفة.

وحيث إن غالبية الإذاعات الفلسطينية هي إذاعات محلية خاصة يغطي إرسالها مناطق محدودة، فإنه في كل سجن عدد من الإذاعات المعروفة التي يمكن للأسرى فيها التقاط بثها بوضوح، فتصبح وكأنها إذاعته، وهو ما يماثل واقع الإذاعات ذاتها التي تعرف أغلبها بأنها إذاعة محافظة أو منطقة محدودة، تعنى بشؤونها وتغطية قضاياها، بما في ذلك قضايا الأسرى من ذات المنطقة.

وضمن هذه المعادلة، فإن من بين الإذاعات التي يتم التقاط بثها في سجن «عوفر» هي إذاعة بيت لحم ٢٠٠٠، وهي إذاعة متنوعة البرامج، تولي تغطيتها شؤون منطقة بيت لحم أهمية خاصة، ومن ضمن برامجها برنامج خاص للأسرى يبث مساء كل يوم جمعة، ويختص بإيصال رسائل اجتماعية وتحيات للأسرى من ذويهم وأصدقائهم، ولكون الإذاعة، بثّاً والتقاطاً، تتركز في منطقة بيت لحم، فإن المتصلين بالبرنامج هم من أبناء المنطقة غالباً، ولكون مقدم البرنامج أسيراً سابقاً من أبناء مخيم الدهيشة، فإن غالبية المتصلين هم من ذوي أسرى مخيم الدهيشة، وبالتالي، فإن غالبية مستمعي البرنامج من الأسرى أبناء منطقة بيت لحم، ومخيم الدهيشة خاصة.

ولأن البرنامج المذكور يبث في نفس موعد برنامج «أرب آيدول» التلفزيوني الشهير، ذي الشعبية الواسعة، بما في ذلك لدى الأسرى الذين تتاح لهم متابعته، كون فضائية MBC هي واحدة من حزمة المحطات التلفزيونية العشر المسموح بمشاهدتها، فإن نسبة الاستماع لبرنامج الأسرى تنخفض بشكل كبير، وينقسم الأسرى في الغرف التي يتواجد فيها أسرى من منطقة بيت لحم، إلى أغلبية تتابع برنامج «أرب آيدول»، وأقلية تنزوي في إحدى الزوايا للاستماع إلى البرنامج وانتظار سماع الرسائل والإهداءات المقدمة لهم أو لمعارفهم من الأسرى في ذات السجن، أو في السجون الأخرى. ويتضمن البرنامج مداخلات وتعليقات من مقدمه محمد عبد ربه، الملقب ب «زغلول»، ولهذا، بات الأسرى يطلقون على البرنامج اسم «إذاعة زغلول».

فوج أول

جملة من الإجراءات والضوابط والقيود المتعلقة بزيارات الأهالي تفرضها إدارة السجن على الأسرى، بعضها تقع على عاتق الأسير مسؤولية التقيد به، وبعضها تتوجب على عائلته ضرورة اتباعه، وبعضها يتدخل الصليب الأحمر الدولي في ضبطه وتنظيمه. وتتغير هذه الإجراءات بين فترة وأخرى، وتختلف من سجن لآخر، ولكنها دائماً وسيلة للضغط على الأسرى وأهاليهم، وباب للقهر والعذاب الإضافي.

وتبدأ هذه الإجراءات المتبعة، بإعلان إدارة السجن نهاية كل شهر عن مواعيد الزيارة للشهر الذي يليه، وتحدد أياماً معينة لزيارة أسرى

كل منطقة؛ فيوم الأحد مثلاً لذوي الأسرى من الخليل، والإثنين لبيت لحم، والأربعاء لرام الله.. وهكذا. ويبلغ هذا الإعلان للأسرى أنفسهم، وترسل نسخة منه للصليب الأحمر للعمل بموجبها، حيث يقوم الصليب الأحمر بدوره بإعلانه لأهالي الأسرى، وفتح باب التسجيل للزيارات والحصول على تذكرة تتيح لهم ركوب الحافلة في اليوم المحدد للزيارة. ويشترط على من يرغب من الأهالي بالزيارة أن يكون من أقارب الأسير من الدرجة الأولى، وأن يحصل على تصريح زيارة خاص من الجهات الأمنية الإسرائيلية، وبالتالي، ألا يكون اسمه ضمن قائمة الممنوعين أمنيّاً من قبل مخابرات الاحتلال، وهي قائمة لا ينجو منها عادة إلا قلة من الفلسطينيين، إذ إن كل من اعتقل سابقاً، أو تم الاشتباه به، أو قام بفعل ما، أو عبر عن رأي ليس على مقاس الاحتلال؛ فإنه يدرج ضمن هذه القائمة. والمدرجون ضمن القائمة قد يمنعون من الزيارة نهائيّاً، بغض النظر عن درجة قرابتهم للأسير، أو قد يتم منحهم ما يعرف بالتصريح الأمني، مرة كل سنة أو كل ستة أشهر، وحتى في هذه الحالة، فقد تعترض الحواجز العسكرية طريقهم، وتقوم بسحب وتمزيق تصاريحهم الخاصة دون سبب.

في الجانب المقابل، فإن على الأسير نفسه ألا يكون خاضعاً لعقوبة منع الزيارة من قبل إدارة السجن، وهي عقوبة تفرض على الأسرى لأسباب مختلفة ولمدد مختلفة. وفي حال لم يكن تحت العقاب، فإن عليه أن يسعى للحصول على تصريح أو إذن إذا كان يرغب في إدخال ملابس أو صور أو كتاب. والإدخال أمر متاح مرة كل شهرين فقط، ووفق ضوابط وقيود معينة.

وبعد أن تتم كل هذه الإجراءات، ويصار إلى حصر وتحديد عدد

الأسرى الذين سيزورهم أهاليهم في اليوم المحدد، تبدأ عملية أخرى داخل السجن، وهي عملية تقسيم الزائرين إلى أفواج. كل فوج يتكون من ٤٠ أسيراً، وهو الحد الأقصى لاستيعاب قاعة الزيارات المقسمة لأربعين خانة. وفي العادة، فإن عدد المسجلين يكون نحو ١٠٠-١٢٠ أسيراً، وهو ما يستوجب تقسيمهم إلى ثلاثة أفواج، ويراعى في تقسيم الأفواج أن يتكون كل منها من ٤٠ أسيراً أو نحو ذلك، وأن يكون كافة الزائرين من قسم محدد من الأقسام العشرة ضمن نفس الفوج؛ فإذا كان في قسم ١١ مثلاً أحد عشر زائراً، وفي قسم ١٢ أربعة عشر زائراً، فإنه يجب البحث عن القسم الذي يكمل العدد ٤٠، أي الذي فيه خمسة عشر زائراً، وهكذا يتم تقسيم الزائرين إلى ثلاثة أفواج، لتبدأ بعد ذلك عملية تحديد الأفواج وتقسيمها إلى أول فوج، وثاني فوج، وثالث فوج، وهي عملية تراعي التدوير بين الأقسام، بحيث يكون الزوار من قسم «س» فوجاً أول ضمن زيارات يوم الأحد، والزوار من نفس القسم «س»، ضمن الفوج الثاني لزيارات يوم الإثنين، وضمن الفوج الثالث لزيارات يوم الأربعاء. وتتكرر عملية التقسيم بشكل معكوس للأسبوع الذي يليه، وهكذا. وهي عملية حسابية منطقية معقدة، تسعى لعدالة توزيع الأفواج دون أن تصلها تماماً، لأن الزوار من قسم «س» مثلاً ومن منطقة معينة يكونون متغيرين، وليسوا بالضرورة ثابتين.

وكل تعقيدات هذا التوزيع والتدوير لا تعني شيئاً بالنسبة للأسير نفسه، فهو موجود في السجن، إلى أن يدعى للزيارة فيخرج، ويعود عندما تنتهي زيارته، ولا فرق عنده إن كان هذا ضمن الفوج الأول الذي يزور صباحاً، أو ضمن الفوج الثاني الذي يزور ظهراً، أو ضمن الفوج الثالث الذي يزور مساءً. لكن ذلك يعني كثيراً بالنسبة للزوار

من الأهالي، خاصة عندما يكونون قادمين من مناطق بعيدة، إذ يضطرون إلى التجمع وركوب الحافلات عند الخامسة أو السادسة صباحاً، ويصلون بعد المرور بالحواجز وإجراءات التفتيش بين الثامنة والعاشرة صباحاً إلى السجن، لتبدأ هناك عملية فرزهم وفقاً لتقسيم الأفواج المشار إليه، ومن ثم الخضوع لإجراءات تفتيش السجن وتدقيق الهويات وفحص صلات القرابة، ومن ثم تسليم ما لديهم من ملابس أو كتب أو صور لفحصها وإجازة إدخالها أو رفضها، ومن ثم إلى مكان إيداع نقود الكانتين، وبعدها إلى مكان شراء السجائر لذويهم من الأسرى.

وبهذا، فإن زيارة الفوج الأول لا تبدأ قبل الحادية عشرة صباحاً، وتنتهي مع نهاية الدقائق الخمس والأربعين المقررة للزيارة، ومن ثم فإن على زوار الفوج الأول العودة للحافلات التي ستقلهم إلى الأماكن التي جاءوا منها، التي لا يصلونها قبل الثالثة عصراً. فيما يصل زوار الفوج الثاني عند حوالي الخامسة مساء، وزوار الفوج الثالث عند السابعة أو الثامنة مساء، وذلك تبعاً لبطء الإجراءات وحالة الطرق، أو في حال حدوث خلل ما أو إشكال طارئ في أي واحد من أفواج الزيارة.

ولهذا، فإن متابعة الأسرى باهتمام عالٍ لتصنيف الزيارة يأتي انطلاقاً من حرصهم على راحة ووقت زائريهم، وحرصهم على عودتهم إلى بيوتهم بشكل مبكر، لتخفيف الإرهاق والتعب عن كاهلهم، ومن هنا ينبع ارتياح الأسير إذا ما كانت زيارته ضمن الفوج الأول، بينما يتكدر إذا ما كانت ضمن الفوج الثالث، ويصبح بالتالي التوق لمعرفة ضمن أي فوج زيارته، وهو ما يتم قبل يوم واحد من موعد الزيارة، وهو توق من منطلق الحرص على راحة الأهل. وتبعاً لذلك إلى راحته النفسية لكونه كان مسبباً في إرهاق أقل

أو أكثر لأهله وزائريه. ويكون بالطبع زائرو الفوج الأول هم الأكثر سعادة، يليهم زوار الفوج الثاني، فيما يتكدر زوار الفوج الثالث.

سراي وكنزة

كان قد تبقى يومان فقط على موعد الزيارة الشهرية، حيث كانت ثمينة قد زارت حسن آخر مرة قبل ذلك بثلاثة عشر يوماً، وكانت كل الأمور تبدو اعتيادية، بما في ذلك ما كان يصله منها باستمرار من أخبار مطمئنة عن وضعها الصحي، وعن تطورات حملها لتوأمين من البنات كان من المنتظر أن تقفزا إلى الحياة بعد نحو شهرين من ذلك التاريخ.

تواصل معها في ذاك الصباح عبر «الغزال» ليطمئن إلى أنها قد جهزت كل ما يمكنها إحضاره له من ملابس خلال الزيارة، وإيداع مبلغ مالي في حسابه لدى إدارة السجون ليتصرف به لشراء حاجياته اللازمة من مرفق البيع خلال الفترة الفاصلة بين الزيارتين. جاءه الجواب مخالفاً لكل توقع، فهي لن تحضر له أي ملابس، ولن تضع في حسابه أية فلوس، بل إنها لن تأتي البتة لزيارته في اليوم التالي! إذ كيف يمكنها ذلك وقد وضعت بالأمس فقط مولودتيها «سراي وكنزة»، من خلال عملية ولادة قيصرية تمت بنجاح وهي في شهرها السابع للحمل.

التوأمان سراي وكنزة، وولادة قيصرية، وقبل شهرين على الموعد الطبيعي المحدد، ما يعني أن المولودتين في حاضنتين في غرفة خاصة في المشفى لحين اكتمال نموهما، والتأكد من تمتعهما بالصحة والوضعية الطبيعية اللازمة لتسريحهما من المشفى. إنه خبر

مركب يصعب التعاطي معه، ومع الوضعية التي نشأت عنه، حتى لو كان هو حرّاً طليقاً، فكيف الحال وقد وصله الخبر وكانت قد مرت على اعتقاله ثلاثة أشهر؟ وهو ما يعني حرمانه من حقه بأن يكون إلى جانب زوجته في هذا الوضع الاستثنائي، وحرمانه من حقه بتمتيع ناظريه باللحظات الأولى لتنفس ابنتيه أكسيد الحياة المستجدة، ومتابعة وضعيتهما الحرجة ساعة بساعة كما تقتضي الأصول الطبية، وحرمانه أيضاً من الإحساس الطبيعي بالأبوة المزدوجة لأول مرة، ومن عيش لحظة تحول مهمة لأسرته التي أضحت بشكل مفاجئ رباعية الرؤوس، وحرمانه تالياً من تلقي فيض التهاني ومشاعر العطف والإسناد من عائلته وعائلتها ومن محيطهما.

وخلال فيض التهاني التي كان يتلقاها حسن من رفاقه في الأسر، حاولت استقراء مشاعره ومكنوناته، قلق ممزوج بالغضب والحنق، وسعادة متوترة تجلت بما يشبه الابتسامة الصفراء، أو لنقل ابتسامة وردية غير عريضة، ارتباك في التعبير عن مكنوناته بما يشبه لحظة إنكار حين يكون الموت، لا يدري بماذا سيحلم الليلة، وما الذي ينتظره في الغد، بل ماذا يريد أن يحمل له الغد أو بعده.

جاء يوم الزيارة بعد يومين من ولادتهما، خرجنا نحن للزيارة، أما هو فلا، وكان طبيعيّاً ألا تحضر زوجته، ولا أي فرد آخر من عائلته الممنوع على أي من أفرادها زيارته وفقاً لشريعة الاحتلال، ولكن ابنتيه سراي وكنزة حضرتا، حيث كان أحد أشقائه قد تنبه للأمر فالتقط لهما صوراً فور ولادتهما، وقام بإيصال الصور لزوجتي قبيل دخولها لزيارتي، وبالتالي، فقد وصلتني الصور وتعرفت إلى ابنتيه قبله.

كانت سعادته غامرة حين سلمته الصور، احتضنها لوقت طويل، وتأملها لوقت أطول، إلى أن خطر بباله أن يتساءل: أيهما سراي، وأيهما كنزة؟ أي صورة هي للابنة الكبرى التي سيحمل من الآن وصاعداً اسمها «أبو سراي»، وأي صورة للابنة الصغرى كنزة؟ كيف له أن يعرف ذلك؟ أي موقف محير! كيف سيتعامل مع المجهولتين في الصور؟ في موعد التواصل التالي مع زوجته، حمل الصور وسألها، وبدأت تصف له وتوضح أي الصور لسراي وأيها لكنزة، إلى أن حسم الأمر وبات يعرف كنزة من سراي، أو هكذا اعتقد.

بدأ يتابع وضعهما الصحي يوماً بيوم، أو كل ما أتيح له التواصل مع زوجته ثمينة. خرجت سراي من غرفة الحضانة للأطفال الخدج، وبعدها بنحو ثلاثة أسابيع خرجت كنزة. وبعد أيام تم تسريحهما إلى البيت، البيت الذي ينقصه الأب، ولا أحد يعرف إلى متى سيبقى غائباً، ومتى يمكنه أن يحتضنهما ويقبلهما، فمع الاعتقال الإداري الذي يعتقل بموجبه، لا يوجد موعد قطعي محدد للإفراج عنه.

كان يحدث صورهما باستمرار، يلقي عليهما تحية الصباح، يقبلهما، يتحدث إليهما وعنهما، ويشرك زملاءه في الغرفة في مداعبتهما، وحين يخرج من الغرفة، يطلب من أحد رفاقه حراستهما والانتباه لهما، وعندما يحين موعد الجلسات الثقافية أو موعد المطالعة التي تتطلب الهدوء، كان يطلب إليهما الهدوء وعدم البكاء. أي مجنون هذا الذي يحدّث ويتفاعل مع صور صماء، بل أي عاقل لا يفعل مثلما كان يفعل؟! ففي سجون الاحتلال وظروفها، تكاد تذوب الفوارق بين المجانين والأصحاء.

بات حسن يعد اليوم تلو الآخر، ويحسب متى يمكن إحضارهما

لزيارته وتكحيل عينيه بأول العنقود وثانيه، ربما بعد ثلاثة أشهر من يوم ولادتهما، وربما أكثر، وربما يمنع أو يحرم حينها من الزيارة لأي سبب، وربما تمنع والدتهما من الزيارة، أو ربما يمنع عليها اصطحابهما، وربما .. وربما .. وربما .. من يدري؟!

رسائل عشق صينية

ينتظر كافة الأسرى زيارة أهاليهم لهم بشوق وشغف للقاء من يحبون، وبتوق لتبادل أطراف الحديث معهم، ومعرفة مستجدات ما يحصل في الخارج، وخاصة ما يتعلق بأخبار العائلة والحي والمكان الذي يسكنون، ولا يتسع الحديث لأبعد من ذلك، لأن الأسرى وذويهم يعرفون أن الزيارة مراقبة أمنيّاً ومسجلة بالصوت والصورة، فكل كلمة يجب أن تكون محسوبة، وكل حركة وإيماءة مدروسة.

بعض الأسرى يزداد شغفهم وانتظارهم للزيارات التي يسمح خلالها بإدخال الملابس لهم، وهي ملابس مقيدة بأنواع وألوان محددة، ويتم السماح بإدخالها مرة كل شهرين فقط، وانتظار زيارة إدخال الملابس لا يأتي فقط نتيجة الحاجة أو الرغبة بالملابس، بل لسبب آخر.

غالبية الألبسة التي تباع في الأراضي الفلسطينية هي ألبسة مستوردة، من الصين خاصة، ووفقاً لشروط الاستيراد من الخارج، يتوجب وضع إيضاح على كل قطعة مستوردة، حيث يوضع عليها «ليبل» أبيض يكتب عليه اسم المستورد وجهة الصنع والمواصفات والمكونات، وعادة يكتب ما هو لازم على أحد وجهي «الليبل»، فيما يترك الثاني فارغاً، خاصة أن المنتجين الصينيين يلتزمون بما يطلب

منهم حرفيّاً ولا يجتهدون بإضافة أي معلومة أو كلمة.

تلك المساحات الخالية على الوجه الآخر من «الليبل» الذي يحمل عادة جملة «صنع في الصين»، تستغلها بإبداع الحاجة بعض زوجات الأسرى لكتابة عبارات أو كلمات حب وعشق: «حبيبي الغالي، أشتاقك، قبلاتي، سأنتظرك حتى آخر العمر»، وغيرها من العبارات التي تعكس مشاعر إنسانية رقيقة، وحسّاً عاطفيّاً مرهفاً، تسهم الصناعة الصينية في إيصالها للأسرى، لتصبح رسائل العشق هذه بنكهة صينية.

وكتعبير عن مكنونات ما بداخلهن، تعمد زوجات بعض الأسرى إضافة إلى ذلك، إلى رش الملابس التي يقمن بإدخالها إلى أزواجهن بروائح وعطور متنوعة، أحياناً روائح رجالية من تلك الأصناف التي اعتاد أزواجهن على استخدامها، وأحياناً أخرى رشها بعطور نسائية من الأصناف التي يحب الأزواج أن تتطيب بها زوجاتهم.

ملفوف مربع

من ضمن الخضراوات التي توزع على الغرف كان الملفوف، وعادة ما كان مصيره إلى سلة القمامة، فلا هو من النوع الذي يصلح للسلطة، ولا حجمه يصلح للطبخ، وكنا نتساءل دوماً: لماذا يأتون به؟ ولم يكن ممكناً أن نرفضه، لأن هذا يعني شطبه من قائمة الخضراوات، وبالتالي التوفير على إدارة السجن، إذ لا ضمان بأن يستبدل بصنف آخر.

ادعى شادي ذات يوم أنه يجيد إعداد الملفوف، وأن بإمكانه طبخه.

أوكل لنفسه مهمة جمع كل الملفوف الذي يوزع على غرف القسم على مدى أسبوعين، إلى أن تمكن من جمع ثلاث عشرة ملفوفة من الحجم الصغير، قدر أنها تكفي لنزلاء الغرفة العشرة، وقرر أن يوم الثلاثاء هو يوم إعداد طهي الملفوف، حيث إنه ووفقاً لجدول توزيع اللحوم، فإن يوم الثلاثاء هو اليوم المخصص لتوزيع اللحم الأحمر.

بدأت الورشة منذ الصباح. تم سلق الملفوف ملفوفة تلو أخرى، ومن ثم «سلخ» ما يصلح من أوراقها للف، وهكذا، إلى أن تم تجميع كل الأوراق الصالحة التي قدّر شادي أنها كافية لملء «طنجرتين» تكفيان للأفواه العشرة التي تنتظر أن تأكل وجبة شهية، وأنها لن تندم على السماح لشادي بإهدار حصة اللحمة الحمراء لذلك اليوم، وهي التي ينتظرها الجميع بفارغ الصبر. تم إعداد الأرز وخلطة البهارات اللازمة وغير اللازمة، وتم تقطيع اللحمة يدويّاً إلى قطع صغيرة جدّاً تماثل حجم اللحم المفروم آليّاً، وإن كانت ليست بذات الشكل طبعاً، جاء بعض طباخي الغرف المجاورة علهم يستفيدون من التجربة و«يسرقون» الصنعة، ويجدون بالتالي حلاً لمعضلة الملفوف، ويصلون إلى إجابة عن سؤال: لماذا يوزع الملفوف؟!

كل الأمور سارت على ما يرام باستثناء عملية اللف، فلم يتمكن شادي ولا أي طباخ آخر تمت الاستعانة به من إتقان عملية اللف، ومع استمرار المحاولات، كان الوقت ينقضي ونفقد بالتالي فرصة استبدال الطبخة بأخرى بديلة، وبات علينا الانتظار وقبول المخرجات أيّاً كانت.

كانت النتيجة هي ملفوف من حيث المكونات والمحتوى، ولكن مربع من حيث الشكل. أما الطعم، فكان مقبولاً، بل شهيّاً وفقاً لمقاييس الأسرى، فمقولة «العين تأكل قبل الفم» لا تصلح لكل مكان وزمان،

فمكاننا وزماننا يقتضيان تغيير المقولة لتصبح «لا ضرورة لأن ترى العين ما يأكل الفم»، وأنه لا بأس بأن يكون اسم الملفوف ملفوفاً، بينما شكله مربع أو ما يشبه، طالما أن الطعم يشبه طعم الملفوف، ويكسر روتين الطعام ومحدودية الأكلات التي يمكن تصنيعها، وواظبنا على إعداد الطبخة كلما أتيح لنا ذلك.

سلمت يداك يا شادي.

«بوغير»

طالما دأبت سلطات الاحتلال على اعتقال الأطفال والفتية دون الثامنة عشرة، لكن هذه السياسة تصاعدت وتكثفت منذ اندلاع هبة أكتوبر ٢٠١٥، وهو ما راكم أعداداً كبيرة من الأسرى الأطفال في سجون الاحتلال، قضوا أو يقضون مدداً متفاوتة، حكم على بعضهم لفترات طويلة وصلت إلى السجن المؤبد.

سجن «عوفر» كان أحد السجون التي زج بهؤلاء الأطفال فيها، حيث بلغ عددهم ٢٤٠ أسيراً من أصل ١٢٠٠ أسير، أي بنسبة ٢٠٪ من مجمل أسرى «عوفر». ووفقاً لتفاهمات بين قيادة الحركة الأسيرة وإدارة السجون، فإنه يتم وضع الأسرى الأطفال في أقسام خاصة «أقسام الأشبال»، ويضم كل قسم ١٢٠ شبلاً، وتخصص غرفة واحدة في كل قسم من القسمين اللذين يشغلهما الأسرى الأطفال، لأسرى بالغين، ممثلين عن الفصائل الرئيسية للإشراف على الحياة الاعتقالية للأطفال، وتنظيم أمورهم وإرشادهم لكافة القضايا التي تتعلق بواقعهم وكيفية إدارة حياتهم وتعاطيهم مع إدارة السجون.

وإن كانت للحياة الاعتقالية في قسمي الأشبال خصوصيات ومميزات معينة، في غالبيتها إيجابية ولمصلحتهم؛ فإن الغالبية العظمى منهم يتوقون لمغادرة الأقسام التي يعيشون فيها، والانتقال لأقسام الأسرى العاديين، وهو نزوع طبيعي لدى الفتية الذين يتطلعون دوماً لبلوغ سن الرشد، أو ما ينظرون إليه باعتباره دخولاً إلى «نادي الرجولة».

ووفقاً للتفاهمات المشار إليها ولسياسة إدارة السجون، فإن كل أسير من بين الأطفال يبلغ الثامنة عشرة، يتم نقله إلى الأقسام العادية، ولهذا، فإن هاجس كل طفل أسير يصبح الوصول إلى التاريخ الذي يستحق عنده الانتقال لأقسام الكبار، ويبدأ عدّ الفترة المتبقية له بالأشهر والأيام، كما لو كان التاريخ المحدد لانتقاله هو تاريخ الإفراج عنه.

ويتداول الأسرى الأطفال، بل الأسرى كافة، المصطلح العبري المستخدم لبلوغ سن الرجولة وهو «بوغير»، أي أنه أصبح كبيراً، ويقومون بتعريف وتعريب هذا المصطلح بما يلائم موضع استخدامه في الجملة:

«متى تاريخ بوغيرك؟»، أي متى تاريخ استحقاق انتقالك للأقسام العادية؟.

«أنا أول واحد راح أبوغر»، أي أنا أول من سيستحق نقلي للأقسام العادية.

«متى بتبوغر؟»، أي متى سيتم نقلك للأقسام العادية.

«أنا بوغرت بتاريخ كذا ..»، أي أنا انتقلت للأقسام العادية بتاريخ كذا ...

وهناك العديد من التأويلات الأخرى لهذا المصطلح العبري الذي يجهل كثيرون أصله ومعناه الحرفي، ولكن يتم استخدامه للتعبير عن الحلم الذي يكاد يناظر حلم التحرر من الأسر.

الثنائي الضخم

١- يأجوج وماجوج: نبأ وأمجد، صديقان قريبان من بعضهما، خفيفا الظل، ثنائي متشابه في أشياء كثيرة، أبرزها الوزن الزائد، ١٢٠ كلغم للأول و١١٠ كلغم للثاني، ومتشابهان أيضاً في طريقة التفكير، وفي السلوك الأقرب إلى الطفولة التلقائية. يتبادلان ملابس بعضهما أحياناً، ويتشاركان فيما يتوفر لهما من مال ليشتريا بشكل مشترك من مرفق البيع «الكانتين» كل ما يمكن أن يزيد الوزن من حلويات ونقارش.

يتسابقان على التهام كل ما يتيسر من طعام وحلويات في الغرفة ودون توقف، وكأنهما لم يعرفا الإحساس بالشبع. ويأكلان كل ما يتوفر مهما كان مذاقه، وكأنهما لا يملكان حاسة التذوق. يأكلان دون حساب أو اعتبار لرفقائهما بذات الغرفة، ودون اعتبار لمحدودية كمية الطعام المتاح لكل منهما، أو حتى للغرفة بأكملها. لا يفكران ولا يأخذان بالاعتبار ما يجب أن يتم توفيره لليوم التالي، ولا حتى للوجبة التالية، فعندما يوزع الخبز مثلاً على الغرف صباح كل يوم ليتم استهلاكه طوال اليوم، كانا يلتهمان كل الكمية مع وجبة الصباح، وكذلك يفعلان مع كل ما يوزع من خضار أو فاكهة أو حلويات.

خلال وجبة الإفطار ذات صباح، وضعنا الخبز المخصص للوجبة على الطاولة، وما تبقى منه لوجبة المساء كان إلى جانبي، كان

المخصص اليومي للغرفة التي يعيش فيها عشرة أسرى هو ٣٥ رغيفاً، تأتي مغلفة كل خمسة أرغفة في كيس بلاستيكي يسمى «ربطة». تناول كل منا حاجته من الطعام والخبز حد الشبع، إلا أمجد ونبأ بالطبع، فطلب مني نبأ أن أعطيه «خبزة» إضافية، فأعطيته رغيفاً. نظر إليّ بغضب واستنكار، وقال لي: «بدي خبزة مش رغيف»، فأجبته بأنني أعطيته رغيفاً كاملاً وليس فقط «خبزة»، فأوضح مقصده مجدداً: «بدي خبزة، يعني بدي ربطة مش رغيف واحد!».

هذه الوضعية التي لم يكن بوسعنا نحن باقي نزلاء الغرفة سوى القبول بها وكأنها قدر، فما علينا سوى محاولة انتزاع بعض طعامنا من بين أيديهم، أو أن نضطر إلى «الشحدة» من فائض ما يتوفر لدى كل الغرف الأخرى في القسم، بل وحصل أن اضطررنا للجوء إلى القسم المجاور لنا، وباتت حكاية غرفة ٧ معروفة لدى الجميع، وكل من يتوفر لديه فائض من أي صنف، وخاصة الخبز، كان يأتي به تلقائيّاً لغرفتنا.

وقد حصل أن أقنعنا نبأ وأمجد بضرورة اتباع حمية «ريجيم»، وممارسة الرياضة حفاظاً على صحتهما، ومراعاة لوضع وظروف السجن ومحدودية الإمكانيات والموارد، وبعد مماحكات وجدال طويل، أسند بنصيحة من طبيب السجن لنبأ الذي كان بالفعل يعاني من وضع صحي خطير يستوجب الحمية القاسية، حيث كانت كتل من الدهون تغلف كبده؛ وافقا على اتباع الحمية، وبعد يومين من ذلك، توفر لدينا فائض كبير من الخبز وأصبحنا نعطي الغرف الأخرى بدل أن نأخذ منها.

لم يستمر هذا سوى أيام معدودة، اتفقا معاً وعادا إلى الأكل بشراهة

أكبر، فلم يبقيا ولم يذرا، كما يأجوج ومأجوج.

٢- زينغو ورينغو: بعد أن ازدادت مشاكل «البوعز»، وبدت الشبكة بحاجة لصيانة يومية، أخذ نبأ وأمجد على عاتقهما تجديد الشبكة وإنهاء مشاكلها، رغم أن أيّاً منهما لا يفقه بمثل هذه الأمور، وبالكاد يعرفان السلك الكهربائي من الخيط البلاستيكي.

على مدى خمسة أيام، أشغلا وقتهما بالكامل في هذه المهمة التي يصعب تنفيذها وإتقانها حتى على من له معرفة أو علاقة بالتكنولوجيا والتمديدات الكهربائية أو الصوتية. بدأا يوصلان الأسلاك هنا، ويقطعانها هناك. يمدانها تارة إلى أعلى الجدران وتارة في وسطها أو أسفلها. يربطان هنا فتنفلت من هناك. يبدأان من اليسار فلا يصلان إلى حل. يقرران أنهما بدأا من الجهة الخطأ، فيعيدان المحاولة من جهة اليمين. يحاولان بين وقت وآخر فحص نتيجة ما أنجزاه من تمديدات، فلا يصل صوت ولا صورة، ومع ذلك يواصلان. يزيلان كل شيء. يرسمان على الورق مخططاً جديداً كما لو أنهما مهندسان بارعان. يناقشان تفاصيل كيفية تنفيذ المخطط المرسوم، ويبدأان من جديد.

بين كل محاولة وأخرى، بين كل ساعة وأخرى، يتوقفان للاستراحة، استراحة ساندويشة، أو كاسة شاي وكثير من البسكويت. يأخذان قسطاً من الراحة. يستلقيان ويغطان في النوم والشخير. يستيقظان وكأنهما كانا يفكران أو يحلمان بالحل، فيباشران العمل من جديد. محاولة ثالثة أو سادسة أو عاشرة. يبرران لأنفسهما أسباب الفشل في المحاولات التي سبقت، ويتوهمان أنهما قد اكتشفا القمر، وأن محاولتهما القادمة ستنجح. يتعاهدان على ذلك. يتصافحان بطريقة الشركاء الناجحين. ويبدأان من جديد.

استنفدا كل ما جمعناه من أسلاك، وهي نادرة أصلاً ومن الصعب الحصول عليها، واستنفدا كل أغطية الأقلام التي تصنع منها «البواعز»، وهي أيضاً شحيحة كونها من نوعية محددة لا تتوفر دائماً، تشوه منظر الغرفة لكثرة ما وضعا من أشرطة ولواصق وأزالاها، واتسخت جدران الغرفة تماماً، وعلى مدى خمسة أيام، أشاعا فوضى عارمة، وأثارا ضجة غير معهودة، فتذمر الجميع، رغم حالة الضحك التي انتابتنا جميعاً على محاولاتهما العبقرية المتتالية.

سميتهما «زينغو ورينغو»، كونهما بالفعل أشبه بالشخصيتين الكرتونيتين في العمل التلفزيوني الشهير الذي حمل هذا الاسم، ودرجت التسمية واستمرت حتى بعد أن انتهيا من مهمتهما في إيجاد حل سحري لمشكلة «البواعز» التي لا تحل، بحكم بدائية الفكرة، وشح الموارد اللازمة لإنجازها.

يحيا الذكاء.

قطايف بالشعيرية

إذا كان صحيحاً أن الحاجة أم الاختراع، فإن التحدي أبوه.

في واقع الأسر، ما أكثر الاحتياجات وما أكثر الابتكارات وأبسطها! وكذلك ما أكثر التحديات التي تنتج بالضرورة عن احتياج أساسي وملح، وعن الرغبة في إثبات الذات والقدرة على تحقيق احتياج بدافع تحدي الحرمان الذي يفرضه السجان، حتى لو لم يكن الاحتياج ضرورياً وأساسياً!

ذات مرة، خطر ببال «أبو مارسيل» أن يصنّع القطايف، بدا أن ذلك غير ممكن في ظل عدم توفر الطحين كمكون أساسي في صناعة القطايف، فالطحين ممنوع لأسباب «أمنية». فكر «أبو مارسيل» كثيراً، فأثمر تفكيره. نقع الشعيرية مع الحليب، وبقي يراقب المنقوع إلى أن تحللت الشعيرية في اليوم التالي واختلطت مع الحليب، لتتشكل منها عجينة رخوة تشبه عجينة القطايف، وضع المقلاة على بلاطة التسخين إلى أن سخنت بما يكفي، وبدأ يصب في قعر المقلاة قليلاً من العجينة. وبعد محاولات وتطويرات أضاف خلالها إلى منقوع الشعيرية السميد ليزيد من تماسك العجينة، وأضاف السكر والملح وقليلاً من «الكربونات» كان قد استطاع تهريبها بطريقة ما، خلطها جميعاً، وانتظر وقتاً إضافيّاً، واستمر بتعديل الكميات وبتعديل حرارة المقلى إلى أن نجحت التجربة.

أكمل عملية التصنيع بحشو أقراص القطايف بالجوز والسكر، ثم أعدّ القطر، وشوى الحبات، وتمتع نزلاء الغرفة العشرة بالقطايف المبتكر، وباتوا موضع حسد من باقي الأسرى.

اعتزاز «أبو مارسيل» بابتكاره وقدرته على صنع ما كان يعتبر مستحيلاً، دفعه لتعميم ابتكاره على كل الأسرى في القسم، وحتى في القسم المجاور. بات يعد كل يوم نحو ٨٠ قرصاً من القطايف ويقسمها بين غرفتين، ليكون نصيب كل أسير ٤ حبات قطايف، وهكذا، وخلال ٦ أيام، تذوق الجميع القطايف الشهي واستمتعوا بمذاقه، وتصادف ذلك مع اقتراب موعد تحرره، فعلّم عدداً من الأسرى كيفية تصنيعه، وعمم التجربة، فأصبح القطايف متاحاً متى شئنا وإن كان تصنيعه معقداً ومكلفاً إلى حد ما.

فكرت أنا بمزيد من التطوير، أضفت لذات الخليط بيضتين،

واختصرت منه الملح و«الكربونات»، وصنعت منها أقراص «بان كيك». نجحت التجربة من المرة الأولى، وفي اليوم الثاني أعددت قرصين كبيرين من «البان كيك» لكل زميل في غرفتي، وحشوتها بالشوكولاتة. استمتع بها الجميع، وبتنا نكررها بين وقت وآخر، ولكنها لم تعمم، إذ إن الغالبية لا يعرفون ما هو «البان كيك» ولم يختبروه من قبل.

أربعة أيام من القلق والترقب

كان تمديد اعتقالي للمرة الثانية ينتهي في ٢٠١٦/١١/٢١، ولم يكن هناك أي مؤشر في مجريات قضيتي يمكن أن يستشف منه ما هو مصيري بعد ذلك: هل ينتهي الاعتقال ويتم الإفراج عني في الموعد المحدد الذي تبقى على حلوله يومان؟ أم سيتم تمديد اعتقالي للمرة الثالثة؟ لكن، وبما أن الغالبية العظمى من المعتقلين الإداريين يتم تمديد اعتقالهم المرة تلو الأخرى، ولا يتم الإفراج عنهم إلا بعد حصولهم من النيابة العسكرية أو المحكمة على قرار «جوهري» بإنهاء اعتقالهم، و«الجوهري» هو ترجمة للمصطلح العبري «مهوتيي»، ويعني أن هناك التزاماً من النيابة والمحكمة بأن تاريخ الإفراج المحدد هو نهائي، وأنه لن يتم تمديد الاعتقال الإداري لأي فترة إضافية، «ما لم تتوفر معطيات جديدة أو يتغير الوضع السياسي»، وهذه ديباجة ملازمة لقرار الإفراج «الجوهري»، تحفظ خط الرجعة للنيابة والشاباك للتراجع عن قرارها إن ارتأت ذلك، لكن هذا أمر نادر الحصول، لهذا، فإنني كنت أرجح ألا يتم الإفراج عني، وأن يتم تمديد اعتقالي لفترة ثالثة، وهي مسألة لا يتم حسمها أو التأكد منها إلا قبل أيام وربما ساعات عن موعد

الإفراج المفترض، وهذا يعني أن بقائي فى حالة قلق وترقب خلال الأيام الأخيرة التي تسبق موعد الإفراج المفترض عني. وكلما اقترب الموعد أكثر دون إبلاغي بتجديد الاعتقال، ازداد القلق والتوتر. وخلق مثل هذه الحالة يبدو أنه متعمد ومدروس، ويهدف إلى اللعب بأعصاب المعتقل وأسرته، وإبقائهم في حالة عدم يقين.

بدأت أعيش حالة الترقب والقلق أحياناً، مع أني شخصيّاً كنت أرجح احتمالية تمديد اعتقالي استناداً لقاعدة «الجوهري»، لكن أسرتي كانت ترجح احتمالية الإفراج عني. أما المحامي، فقد وضع رأيه في المنتصف، وقدّر أن الاحتمالين متساويان: ٥٠٪ لكل منهما. وهكذا، بدأت أعد الأيام والساعات المتبقية، ولكن دون وهم، ودون أن أتهيأ نفسيّاً أو من حيث الترتيبات الروتينية للإفراج.

مساء ٢٠١٦/١١/٢٠، أي قبل ١٢ ساعة من الموعد المفترض للإفراج، أبلغتني إدارة السجن أن تاريخ الإفراج عني قد تغير، وأصبح في ٢٠١٧/١٢/٢٠، أي بعد ثلاثة عشر شهراً من تاريخه، لكن هذا تاريخ غير منطقي، إذ إن أقصى مدة لأمر الاعتقال أو التمديد الإداري هي ستة أشهر، فأدركت أن خطأ ما قد وقع، لكن هذا حسم جانباً من المسألة، وهو أن لا إفراج عني في ١١/٢١، ولكنه لم يحسم مدة أمر الاعتقال الجديد، إذ إن الخطأ يحتمل أن يكون التمديد لشهر واحد فقط، وأن الخطأ ورد في خانة السنة ليكون الأصل ٢٠١٦/١٢/٢٠ بدلاً من ٢٠١٧/١٢/٢٠، أو أن يكون التمديد الجديد لثلاثة أشهر، وأن الخطأ ورد في خانة الأشهر ليكون الأصل ٢٠١٧/٢/٢٠ بدلاً من ٢٠١٧/١٢/٢٠. وكان هناك تفسير لاحتمال إضافي قدره بعض المتشائمين من الأصدقاء، بأن ٢٠١٧/١٢/٢٠ هو تاريخ صحيح كتاريخ للإفراج، ولكنني أبلغت

به عن طريق الخطأ، ويستند هذا الاحتمال أو الافتراض إلى أن النيابة العسكرية تحدد بالعادة تاريخ الإفراج النهائي منذ لحظة الاعتقال، وأن مسألة التمديدات والمحاكم مجرد إجراءات وأدوار يقتضيها القانون والأنظمة المتبعة، ووفقاً لهذا الافتراض، فإنه لا تزال أمامي أربع مرات تجديد اعتقال لثلاثة أشهر لكل منها، وبين أكثر الاحتمالات تفاؤلاً وأكثرها تشاؤماً، هناك عام كامل من اثني عشر شهراً، أو من ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً من الاعتقال، تعني بالطبع الشيء الكثير، وهو ما رفع من حدة القلق عندي، ولكن مع جاهزية لتقبل كل الاحتمالات.

استمر هذا حتى اليوم التالي، حين وصلني وبعد مراجعات متكررة قرار رسمي يقضي بتجديد اعتقالي إدرايّاً لمدة ثلاثة أشهر تنتهي في ٢٠١٧/٢/٢٠، وهو ما أراحني نسبيّاً، حيث وضع الأمور في سياقها المنطقي بالنسبة للخطأ في التواريخ، إذ تبين أن الخطأ كان في خانة الأشهر، لكن ذلك لم يلغِ ممكنات تفسير المتشائمين، وهي ممكنات لا تسقط من الحسبانَ حتى يتبين التاريخ النهائي للإفراج عني، أو أن أحصل على قرار «جوهري»، وفق التعبير القانوني السائد.

في اليوم الثالث، ١١/٢٢، تم استدعائي للمثول أمام المحكمة لتثبيت التمديد الجديد، وقبيل إدخالي إلى قاعة المحكمة، كان المحامي محمود حسان بانتظاري ليبلغني أن ممثلة النيابة ستعلن خلال المحكمة أن هذه آخر مرة يتم فيها تجديد اعتقالي، وهو ما يعني حصولي على «الجوهري»، وبالتالي، فإن الموعد الأقصى لبقائي في المعتقل هو ٢٠١٧/٢/٢٠، وإن هناك احتمالية أن يتم تقليص هذه المدة من قاضي محكمة التثبيت، أو محكمة الاستئناف التي سنتوجه إليها لاحقاً في حال أبقت محكمة التثبيت مدة التجديد على حالها.

بدأت جلسة المحكمة، وفعلت النيابة ما كانت قد أخبرت المحامي به، وقدم المحامي مرافعته، وقدمت أنا أيضاً أقوالي كما كنت أفعل في كل مرة أقف فيها أمام المحاكم، لأؤكد أن اعتقالي هو لأسباب سياسية انتقامية استناداً لعملي الصحافي وتعبيري عن مواقفي وآرائي ولكوني مدافعاً عن حقوق وقضايا الصحافيين، بما في ذلك الانتهاكات والاعتداءات الإسرائيلية عليهم، وقلت إنني سأكتب في الصحافة حين الإفراج عني بأنني قد قضيت عشرة أشهر في الاعتقال الإداري لهذا السبب، ودون أن توجه إليّ أية تهمة مسنودة أو بينة، ودون أن توضح النيابة كجهة اختصاص أي سبب آخر لاعتقالي. انتهت الجلسة، على أن أبلغ لاحقاً بالقرار.

ظهر اليوم الرابع، ١١/٢٣، عاد زميلي في الاعتقال الإداري وأستاذي السابق في جامعة بيرزيت علي جرادات من المحكمة حاملاً لي بشرى سارة، وهي أن قرار المحكمة بحقي قد صدر، ويقضي بتخفيض مدة اعتقالي ٥٦ يوماً، وأن موعد الإفراج عني سيكون في ٢٠١٦/١٢/٢٤، أي بعد ٣١ يوماً من تاريخه، وأن هذا القرار أيضاً «جوهري».

انتهى القلق والترقب، وبات الأمر واضحاً وقطعيّاً، فتلقيت سيلاً من التهاني، وتواصلت مع أسرتي التي كانت قد أبلغت بالقرار منذ ساعات الصباح وتلقته أيضاً بسرور وارتياح بعد ثمانية أشهر من الانتظار والشقاء.

بعد أسبوع من ذلك، تلقيت قراراً جديداً من المحكمة يفيد بأن ١٢/٢٤ يصادف يوم سبت، وهو يوم العطلة الأسبوعية التي لا يتم خلالها الإفراج عن أي أسير، وعليه، يتم تقديم موعد الإفراج عني إلى يوم الخميس ١٢/٢٢، وبدأت التحضيرات لاستقبالي

في الخارج، فيما بدأ بعض الزملاء، كما جرت العادة، يعدون أيام بقائي إلى جانبهم بطريقتهم الخاصة: كم وجبة فول بقيت لي؟ وكم بيضة؟ وكم وجبة لحمة؟.. إلى آخره من هذه الحسابات التي لم أكن أعيرها أي اهتمام، بل إنني لم أكن أرغب بها أو بسماعها، وكنت أفضل أن يداهمني تاريخ الإفراج عني دون حسابات أو عد.

في قسم الوحدة الوطنية

كان من المقرر أن أنتقل في أول كانون الأول إلى قسم ١٥ المجاور، الذي يسمى قسم الوحدة الوطنية، لأنه يضم أسرى الفصائل الأربعة الرئيسية: أربعين أسيراً من حركة فتح، وأربعين من حركة حماس، وثلاثين من الجبهة الشعبية، وعشرة أسرى من الجهاد، وهو القسم الوحيد في السجن، وربما في السجون الأخرى الذي يجمع مثل هذه التوليفة، فمنذ الانقسام وأحداث غزة عام ٢٠٠٧ وامتداد الانقسام وتداعياته إلى السجون، كان محظوراً أن يجتمع أسرى فتح وحماس في نفس القسم تحسباً لأي إشكاليات محتملة، ولكن بوجود الشعبية والجهاد، ولطبيعة سجن «عوفر» وأسراه والعلاقات الفصائلية الجيدة بين أقطاب الحركة الأسيرة، فقد كانت تجربة ممكنة، وكانت نتائجها معقولة.

بعد أن تقرر الإفراج عني في الثاني والعشرين من كانون الأول، كنت أفكر بالعدول عن القرار، ولكن بضغط وإلحاح ورغبة عدد من الأسرى في استثمار وجودي لتنظيم دورة تدريبية في الصحافة، كما كنت قد فعلت في قسم ١٦، حيث قضيت معظم فترة اعتقالي؛ فقد وافقت، وانتقلت بالفعل إلى قسم ١٥ في نهاية تشرين الثاني،

على أن أقضي فيه ثلاثة أسابيع لأعود وأقضي الأسبوع الأخير من اعتقالي في قسم ١٦.

كان معروفاً تكرار حدوث المشاكل في هذا القسم، وكثرة العقوبات التي تفرض عليه من الإدارة، ليست مشاكل بين الفصائل، بل غالباً مع إدارة السجن، بسبب غياب الانضباط التنظيمي الصارم والالتزام بالقرارات الوطنية العامة، وأحياناً بسبب مشاكل بين أسرى من ذات الفصيل. في اليوم الأول لانتقالي، كانت أولى المشاكل، حدثت المشكلة في إحدى الغرف حين بدأ الخلاف بين أسيرين على مكان النوم، وتطورت حد الضرب وإسالة الدماء، فكان الاستنفار من إدارة السجن وإغلاق القسم لبعض الوقت، إلى أن تم احتواء الإشكال ومعالجة تداعياته وضمان عدم تطوره.

كانت فترة وجودي في القسم قصيرة ومختلفة، المهم فيها أنني أنجزت بالفعل دورة في التدريب الصحافي لمجموعة متنوعة من الأسرى، ليصبح إجمالي الذين استفادوا من الدورتين ستة عشر متدرباً في حقل الصحافة.

الصور والتصوير

مع تطور تقنية التقاط الصور ونشرها وتوثيقها، والسهولة واليسر المتاحين، خاصة مع أجهزة الموبايل الحديثة؛ لم يعد للصورة ذلك المعنى والرونق الذي تعرفه الأجيال السابقة، حين كان التقاط الصورة حدثاً بحد ذاته، يحتاج لتحضير وتهيئة جسدية ونفسية، وكان لا يتقن التقاط الصور غير مصور مختص، ولا يتم التقاطها إلا داخل استوديو مجهز، وكانت الصورة بعد ذلك تحتاج لعملية التحميض والتظهير قبل الحصول عليها مطبوعة على ورق

مصقول، ومن ثم لاحقاً يصار إلى حفظها بألبومات للتباهي بها، أو العودة إليها لاستذكار مناسبات أو أحداث التقطت معها الصور.

ولأن لحياة الأسر ظروفها وشروطها وقيوداً تفرض عليها، فإنها تعيدنا عمليّاً عشرات السنوات إلى الوراء، ومعها تعيد للصورة قيمتها الغابرة، وأكثر، حيث تغدو وسيلة تواصل بصري مع الأهل والأحبة، وإن كان تواصلاً أصم وأبكم، فمع كل التطورات التكنولوجية الحاصلة، ما زالت إدارة السجون تتعامل مع الصورة بعقليتها الأمنية والقهرية، وتستخدمها كوسيلة لإظهار وتأكيد تحكمها بتفاصيل حياة الأسير، بما فيه، ما يمكن أن يراه من صور، أو ما يريه للآخرين من تلك الصور.

وتحدد إدارة السجون ثلاث صور كحد أقصى لكل أسير تسمح له بإدخالها عبر الزيارة الشهرية من ذويه، بعد أن تمر بالطبع على الفحص الأمني للتحقق من أنه لا يظهر بالصورة أي شخص أو إشارة أو رمز يوحي بأي مضمون وطني أو ذي مغزى سياسي، وبذلك، يصبح حصول الأسير على صورة تتيح له استذكار عالمه في الخارج، أمراً عسيراً مقيداً بأنظمة وضوابط.

لكن الأنظمة والضوابط الأقسى هي تلك التي تتعلق بصور الأسير نفسه داخل سجنه، وإخراجها لذويه ومحبيه، خاصة أن زيارة الأسير ورؤيته تقتصر على أقاربه من الدرجة الأولى فقط، وضمن قيود أمنية مشددة تطال منع زيارته حتى من أقرب المقربين إليه، وهو ما يعني حرمان بقية أقاربه ومحبيه من رؤيته حتى من خلال صور صماء. وهناك حالتان فقط تسمح إدارة السجن معهما بتصوير الأسير وإخراج صوره للعالم الخارجي: الأولى أن يكون قد أمضى في السجن خمس سنوات فأكثر، وأن تكون والدته قد

بلغت أكثر من خمسين عاماً من العمر وحاصلة على تصريح يسمح لها بزيارته، حينها، يسمح للأسير في مثل هذه الحالة النادرة، ووفق ترتيبات وإذن مسبق أن تلتقط له ثلاث صور مع والدته، يجري التقاطها من قبل أحد السجانين خلال وقت الزيارة، ومن ثم تعطى هي نسخة إلكترونية على قرص مدمج CD، ويعطى الأسير نسخة ورقية واحدة عن كل صورة تصله بعد نحو شهر من التقاطها. والحالة الثانية، وهي إنجاز انتزعه الأسرى بعد مطالبات ونضالات طويلة، أنه يجري تصوير كل أسير مرة واحدة كل سنة، حيث يحدد بالعادة أحد الأيام في الشهر الأخير من كل سنة كيوم للتصوير، لكل أسير على حدة، بثلاث وضعيات مختلفة، ويسلم بعد نحو شهر نسخة على قرص مدمج CD ونسخة أخرى مطبوعة لكل صورة من الصور الثلاث، ليقوم لاحقاً بإخراجها لذويه في يوم الزيارة الشهرية.

وفي هذه الحالة، فإن التقاط الصور يشترط أن يتم باللباس المدني العادي لا بملابس الأسر الرسمية «الشاباص»، حيث إن إدارة السجن لا تريد أن تتحول الصور التي يخرجها الأسير لذويه إلى مجال مفاخرة أو إلى صورة لتوثيق فترة السجن. أما التصوير بالزي المدني العادي، وعلى خلفية بيضاء داخل غرفة تُهيأ في كل قسم بشكل يضمن عدم ظهور أي إشارة توحي بأن الصورة التقطت داخل السجن، فهو يفقد الصورة قيمتها التوثيقية وخصوصية اللحظة التي التقطت بها.

ومع ذلك، فإن يوم التصوير السنوي، يعتبر حدثاً خاصّاً لدى الأسرى، ومهمّاً جدّاً واستثنائيّاً لبعضهم، يتم قبله وخلاله وبعده اتخاذ كل استعداد لازم، بل وزائد عن اللزوم في كثير من الأحيان،

حيث يقوم الأسرى بحلق شعورهم باهتمام عالٍ، وبقصة مميزة تواكب الموضة، ويتم حلق اللحى أو تشذيبها، إضافة إلى انتقاء الملابس والأحذية الملائمة والمتناسقة، كل ضمن ذوقه، وما يعتقد أنه جميل وحديث، ولكن، ولأن الملابس المدنية لدى الأسرى محدودة، حيث تقيد إدارة السجن إدخال أعدادها ونوعياتها وأصنافها وألوانها، فإن اقتناء الأسير لملابس مناسبة وضمن ذوقه يعتبر صعباً ونادراً، وهو ما يوجب تبادل الملابس بين الأسرى، بحيث يستعير هذا بنطال ذاك، ويستعير ذاك قميص هذا، وحذاءه، ويجري القياس والتبديل والتبادل للملابس والأحذية، ويصبح الشغل الشاغل لدى بعض الشباب لأيام طويلة قبل موعد التصوير هو الحصول على ملابس مناسبة للتصوير، ويتحول السجن إلى ما يشبه صالة عرض، وغرف قياس للملابس والأحذية وتنسيقاتها وألوانها، وقد حدث مثلاً أن بنطالاً من نوع جيد ولون مناسب، ارتداه نحو ٢٠ أسيراً على التوالي في ذات الساعة التي تمت فيها عملية التصوير، وأن جاكيتاً واحداً ارتداه أكثر من ٣٠ أسيراً بسبب ندرة الجاكيتات التي تمنع إدارة السجن إدخالها قطعيّاً، وبهذا، بات جزء من الصور متماثلاً من حيث الزي ومكان التصوير والخلفية البيضاء، ولم يتغير في أي منها سوى وجوه الأسرى.

وما إن ينتهي يوم التصوير وعرض الأزياء، حتى يبرز سؤال: متى يتم تسليم الصور؟

توقعات وتكهنات، وأحياناً وعودات من الإدارة، استمرت شهراً وبضعة أيام، حتى جاءت الصور وسلمت لأصحابها، ليبدأ مع ذلك حديث جديد: أي الصور أجمل؟ وأي لقطة أنسب؟ وأي زي أكثر تناسقاً؟ ثم يبرز سؤال آخر: متى يمكن إخراجها للأهل؟ وكيف

سيتعاملون معها؟ وكيف سيشعرون تجاهها؟ حديث ومشاورات لتبادل الصور، أو اقتناء صور لأكبر عدد من الأصدقاء، وخاصة من قبل من يعرفون أنهم سيقضون سنوات طويلة في الأسر.

وهكذا، تحول التقاط الصورة إلى حدث مركزي، خيل إليّ أنه لا ولن ينتهي الحديث حوله، خاصة أن ثلاثة على الأقل من شركائي في الغرفة من الجيل الشاب، هم يزن ورغد ومصطفى، قد بالغوا في اهتمامهم بكل ما له علاقة بعملية التصوير، كانوا قد بدأوا حديثهم واستعدادهم ليوم التصوير منذ مدة، واستمر واستمر واستمر حتى طفح كيلي، وخرجت عن طوري، ومنعت كل نقاش أو حديث عن كل ما له علاقة بالصور والتصوير، وانتهى.

موسم الانطلاقات.. والسمنة

الكانونان هما موسم الانطلاقات الفصائلية، تفتتح الجبهة الشعبية الموسم بانطلاقتها في الحادي عشر من كانون الأول، تليها حركة حماس في الرابع عشر منه، وغير بعيد عن ذلك في الأول من كانون الثاني تأتي انطلاقة حركة فتح. ولئن تعددت أشكال وسبل إحياء الانطلاقات في الخارج، فإنها في السجون ثابتة ومتكررة كما لو كانت نسخاً كربونية، من حيث الشكل على الأقل: احتفال مركزي عام في قسم الوحدة الوطنية، احتفالات داخلية خاصة بكل فصيل في أقسامه الخاصة أو حيث الوجود الأكبر له، دوري تنس طاولة، دوري كرة طائرة، ودوري شطرنج، تنظم على شرف كل انطلاقة وتوزع في ختامه جوائز من حساب الفصيل المحتفل بانطلاقته.

وبالنسبة للأسير، فسواء كانت الانطلاقة للفصيل الذي ينتمي إليه

أو يعيش تحت قبته وحمايته، المعنوية بالطبع، أو كانت انطلاقة أي فصيل آخر، فإن المهم بالنسبة له هو ما سيحصل عليه من أكل مميز وحلويات، وهذا من التقاليد المرافقة لاحتفالات الانطلاقة، حيث يقوم كل فصيل بمناسبة انطلاقته بتقديم ما يمكنه من أكل مميز وحلويات ومشروبات، بعضها عام لكل الأسرى، وبعضها خاص بالمدعوين لاحتفاله المركزي، وبعضها خاص بأعضائه ومن يعيشون تحت قبته.

فى الحادي عشر من كانون الأول، يوم انطلاقة الجبهة الشعبية، وزعت الجبهة على كافة الأسرى وجبة لحم أحمر بدلاً من لحم الحبش الذي يوزع عادة في أيام الأحد حيث صادفت الذكرى، بالإضافة إلى كمية وافرة من الحلويات المصنعة على نفقتها في المطبخ المركزي. وفي ختام احتفالها الذي أقيم في قسم الوحدة الوطنية، قدمت للمدعوين والمشاركين أصنافاً عديدة من المكسرات والبسكويت والشوكولاتة، فكان يوماً حافلاً التهمنا فيه من الأكل والشرب حد الثمالة.

ثلاثة أيام بعد ذلك، كانت انطلاقة حركة حماس، حيث وزعت لكافة الأسرى أيضاً وجبة لحم أحمر بدلاً من السمك السيئ الذي يوزع عادة في أيام الأربعاء حيث صادفت الذكرى، بالإضافة إلى ثلاثة أصناف من الحلويات: كلاج، وهريسة، ومطبق. ويبدو أن صانع الحلويات الحمساوي في المطبخ المركزي أراد إكرام الأسرى، فزاد من كمية السكر وحلاوة القطر المستخدم، فكانت التحلية بجرعة وافرة جداً أثقلت علينا. أما الاحتفال المركزي، فقد تم إرجاؤه لليوم التالي، حيث كانت عاصفة التفتيش لقسم ١٥ قد وصلت منذ صباح الأربعاء، واستمرت حتى المساء. وفي يوم الخميس، أقيم الاحتفال

المركزي الخطابي، حيث دعي الحضور وكافة أسرى القسم لتناول الحلويات الحمساوية، وكانت طبقاً فيه أربعة أصناف من الحلويات المصنعة خصوصاً، وكل من يحب الحلويات، مثلي، فقد كان بإمكانه تناول أكثر من طبق، أو مشاركة من لا يحبون الحلويات أو أحد أصنافها بأطباقهم، إضافة إلى القهوة والعصير بالطبع، فكانا يومين حافلين من الأكل والشرب حد التخمة، من السكر خاصة.

تبع ذلك في الأول من كانون الثاني احتفال انطلاقة حركة فتح، وكالعادة المتبعة، أقيم الاحتفال المركزي في قسم ١٥، في غرفة المخزن الذي أفرغ من كل ما فيه من أغراض ومخزون الملابس الصيفية. وأحضرت إليه طاولات وكراسي غرف الطابق الثاني الست، زينت الغرفة بالأصفر، وبما تيسر من صور الشهداء، ورسم للقائد الراحل ياسر عرفات، وتم استقبال ضيوف الحركة من ذات القسم وأقسام السجن الأخرى.

بدأ الاحتفال بالمراسم التقليدية، ودقيقة صمت حداداً على أرواح الشهداء، والسلام الوطني الذي أنشده بعض أعضاء الحركة، وكان لافتاً أن عدداً من المكلفين بتيسير الاحتفال دخلوا ملثمين، في مشهد يذكر بالاحتفالات الوطنية خارج السجون في أزمنة الاشتباك مع الاحتلال، حين كانت مثل هذه الاحتفالات محظورة، فيتوشح المنظمون باللثام كي لا يتم التعرف إلى شخوصهم.

الضيافة التي تلت المراسم الرسمية وكلمات الفصائل كانت أيضاً تليق بالمناسبة: مكسرات وموالح وبسكويت وحلويات متنوعة. التهم الحضور كل ما وضع على الطاولات وانصرفوا بعد أن قدموا التهنئة لمسؤولي الحركة في القسم.

جاءت وجبة الغداء جاهزة: دجاج مشوي مع خضار، وتشكيلة

واسعة من السلطات والمخللات، ونوعان من الحلويات اللذيذة.

تفتيش نهاية العام

كنا قد تحضرنا تماماً للتفتيش الشامل للقسم قبل يوم من حصوله بعد أن تسربت لنا أخبار عن احتمالات حدوثه، وبالفعل، فعند إغلاق القسم وإدخال الأسرى للغرف بغرض العد اليومي الثاني، الذي يتم حوالي العاشرة صباحاً ويسمى جزافاً بعدد الظهيرة؛ اجتاح القسم عشرات السجانين وضباط الأمن، وعدد من أفراد وحدة التفتيش الخاصة المسماة «يماس». أوكلت لوحدة «اليماس» مهمة تفتيش المرافق العامة، مرفق البيع «الكانتين» والمغسلة والمخزن ووحدتي الاستحمام والساحة العامة. فيما توزع السجانون وضباط الأمن على الغرف. خلال تفتيش الغرف، يتم إخراج كافة الأسرى من الغرفة إلا واحداً، يتم إبقاؤه كمراقب على عملية التفتيش وكشاهد على مصادرة أو عدم مصادرة مواد من الغرفة، بقيت أنا كمراقب في الغرفة رقم ٣ في قسم ١٥. بدأ التفتيش الدقيق لكل شيء، وبدأت مصادرة كل ما يعتبرونه ممنوعاً، ومعه يتم تخريب عالمنا الصغير والبسيط. خلال التفتيش، حمل أحد السجانين بشكيراً يحمل شعار فريق برشلونة لكرة القدم كان لدى أحد مشجعي الفريق من الغرفة، سألني السجان: هل أنت برشلوني؟ قلت نعم. وبعد أن رأيت أن ذلك لم يعجبه، أضفت: وأنت؟ يبدو أنك مدريدي؟ وبدأ النقاش حول الفريقين. كان هو وسجانان آخران من مشجعي الريال، وسجان رابع من مشجعي برشلونة، فيما كانت السجانة الأعلى مرتبة ومسؤولة التفتيش غير مبالية بالنقاش، وواصلت عملها بهمة أعلى وتدقيق أكثر، كما لو أنها أدركت أنني كنت أرمي

من وراء النقاش إلى إضاعة وقتهم وإلهائهم عن مهمتهم. انتهى النقاش ليبدأ النقاش حول مسألة أخرى استرعت انتباههم جميعاً، بمن فيهم هي. كان أحد السجانين يضع في معصمه ساعة إلكترونية «بلوتوث» مخصصة للهواتف النقالة التي تعمل بنظام أندرويد. كان يستعرض مزاياها بفخر، فأثار الآخرين الذين اهتموا بها بشدة. شاركتهم بالنقاش، حيث كنت أعرف مزايا هذه القطعة، وتشعب النقاش إلى حيث الهدف الذي يسعون إليه من تفتيشهم، وهو الهواتف النقالة والاتصالات داخل السجن، فكان هذا النقاش:

هم: هل لديكم أجهزة اتصالات كثيرة هنا؟

أنا: لدينا بقدر ما نحتاج.

هم: هل هي مرتفعة السعر كثيراً كما نسمع؟

أنا: نعم، مرتفعة بشكل كبير، نظراً لصعوبة تهريبها وتفتيشاتكم الدائمة لملاحقتها.

هم: هل تتحدثون باستمرار مع الخارج؟

أنا: بما يكفي الأسير، ثلاث إلى أربع مرات أسبوعيّاً.

هم: هل ثمن المكالمات مرتفع؟

أنا: بسعر التكلفة، وفقاً للشركة المشغلة.

هم: كيف تحصلون على هذه الهواتف؟

أنا، بتهكّم: من السماء؛ تأتينا مع الطيور التي تتمكن أحياناً من اجتياز الشبك ودخول الساحة.

هم: هل يوجد في هذه الغرفة هاتف مخبأ؟

أنا: ربما! واصلوا البحث وقد تجدون.

هم، وبعد أن استبعدوا من خلال الحديث إمكانية وجود هاتف في الغرفة: لكن في القسم توجد هواتف، أليس كذلك؟

أنا: نعم.

هم: أين؟ وكيف يمكن الوصول إليها؟

أنا: مهمتنا هي إخفاؤها عنكم، ومهمتكم هي الوصول إليها. ألستم هنا في القسم من أجل البحث عنها؟

هم: هذا جزء من مهمتنا، ولكننا نبحث عن كل ما هو ممنوع عنكم.

أنا: إذاً واصلوا البحث.

أثناء النقاش، كان تفتيشهم الذي استمر نحو ساعة يتواصل، ولكن بتركيز أقل. أخذوا بعض الخيطان والحبال البلاستيكية، وأجزاء من ملابس إدارة السجن «الشاباص» الممزقة، وبعض الكراكيب التي لا نحتاجها أصلاً.

ومع نهاية العملية، ملأت الضابطة المسؤولة نموذج التفتيش وضمنته ما تمت مصادرته من طرفهم، وطلبت مني كممثل ومراقب عن الغرفة لعملية التفتيش أن أوقع على النموذج. نظرت إلى ما كتبته في خانة الأشياء المصادرة، حيث كانت قد لخصته بكلمة واحدة بالعبرية: «رابش». قلت لها: صحيح، لقد جمعتم وصادرتم نفاياتنا، ووقعت.

الخميس الذي لم يأت

الاعتقال السياسي قهر، والاعتقال الإداري دون أن تعرف له سبباً قهر، والبعد القسري عن الأهل قهر، والحرمان من الزيارة قهر، والحرمان من أساسيات الحياة قهر، وكل ما في السجن قهر، ولكن، وعلى غرار قاعدة «الموت مع الجماعة رحمة»، فإن القهر مع المجموع أيضاً رحمة، رحمة لأننا ندرك أن كل قهر هو من فعل الاحتلال، وأن نضالنا ضد الاحتلال هو نضال ضد القهر، وأن وجودنا في الأسر لأننا نكافح الاحتلال وما يمارسه علينا من قهر.

الخميس، ٢٢ كانون الأول، كان موعد الإفراج عني، لقد تبقت لي من مدة الاعتقال عشرة أيام فيها خميسان، الخميس ١٥، والخميس الذى يليه ١٢/٢٢ يفترض أن أكون خارج السجن، كان هذا موعداً نهائيّاً وقطعيّاً، فقد وصلتني كل الوثائق التي تثبت وتؤكد ذلك: إعلان عن «الجوهري» من قبل النيابة العسكرية، وقرار من القاضي يؤكد ذلك. لكن ورقة من أربعة أسطر قرر من وقع عليها أن الخميس لن يأتي، ورقة ألغت كل معنى لأيام الخميس وما يسبقها وما يليها من أيام، ورقة قررت أنني ما زلت أشكل خطراً على «أمنهم»، وخاصة أيام الخميس، وأن عليّ أن أبقى في السجن ثلاثة أشهر إضافية، عل يوماً آخر من أيام الأسبوع غير يوم الخميس يقضي بأنني لم أعد أشكل خطراً على «أمنهم».

كان قرار تمديد اعتقالي الإداري للمرة الرابعة سابقة لم تحصل من قبل، على الأقل حسب علمي وعلم كل الأسرى في سجني الذين ذهلوا من الخبر، فرغم حصولي في التمديد الذي سبق على قرار «جوهري» من النيابة بعدم تمديد اعتقالي مرة جديدة، وأن التمديد لمرة ثالثة كان هو الأخير، ورغم أن قرار قاضي محكمة التثبيت

الذي صدر قبل عشرة أيام فقط قد وافق على ذلك، بل وقضى بتخفيض مدة اعتقالي بموافقة النيابة أيضاً، إلا أن قرار القائد العسكري للمنطقة كان له الشأن الأكبر، وكان هو الأعلى والأهم، وهو الذي يفضح زيف المعادلة التي يحاول الاحتلال رسمها عن إجراءاته القانونية والقضائية، وبدلاً من أن يكون للقضاء القول الفصل، فقد ثبت أن قرار القضاء لا يساوي شيئاً أمام قرار قائد عسكري من الدرجة الخامسة أو أقل، له وفقاً لمنطق الاحتلال صلاحية اعتقال من يشاء، متى يشاء، ولأي مدة يشاء.

تسلمت قرار التمديد الرابع قبل عشرة أيام بالضبط من موعد الإفراج عني، صدمني القرار لفترة من الزمن، خلالها مررت على تفاصيل كل الترتيبات التي كانت أسرتي قد أعدتها ليوم الإفراج عني، والتي كانت ترسمها بعناية، وتبلغ بها كل من يهمه أمري بكل الترتيبات التي حرصت زوجتي على إشراكي بها في كل مرة استطعت التواصل معها منذ أن تقرر موعد الإفراج عني. فكرت كيف ستتلقى الخبر الصادم هي وبناتي وعائلتي وكل من ينتظرني. فكرت كيف سأقضي مدة الاعتقال المضافة، وما يمكن أن يتبعها من مدد وتمديدات اعتقال لا سقف لها، لا عدداً ولا زمناً، فكرت بأن هذا القرار الفريد، وهذه السابقة تستهدفني بشكل خاص، تستهدفني وحدي، تستهدف قهري مجدداً. فكرت وقررت بألا أتركهم ينالون من عزيمتي، وبأن محاولتهم قهري هو اعتراف بتفوقي عليهم، وبهذا انتصار لي ولقضيتي بكل تفاصيلها. بدأت بإبلاغ زملائي الذين لم يكونوا قد عرفوا بعد بفحوى الورقة التي تلقيتها من إدارة السجن ذاك الصباح، وبدت الصدمة على وجوه الجميع، ولكن بشكل أكبر على وجوه بعض الأسرى الإداريين الذين قد حصلوا مثلي على قرار «جوهري» بإنهاء اعتقالهم في تواريخ محددة، وبدأت آمالهم تتبخر، إذ لم يعد بعد الآن معنى لأي قرار

قضائي، وأن السابقة التي بدأت معي قد تتواصل لتطالهم أيضاً.

ولقطع الطريق على ذلك، وعدم تمرير القرار دون رد، فقد اتخذت قراراً مبدئيّاً بالإضراب المفتوح عن الطعام حتى أنال حريتي، وشرعت بنقاش كل من يهمه الأمر داخل السجن وخارجه، إذ إن قرار الإضراب وضمان نجاحه يعتمد على عوامل كثيرة، ويجب إشراك جهات عديدة قبل حسمه نهائيّاً، وتم إشعار إدارة السجن بنيتي الشروع بالإضراب، لكن الرأي استقر على التروي قليلاً، وانتظار موعد المحكمة القادمة التي ستبحث في تثبيت القرار، خاصة أن المحامي كان على يقين بأن خللاً ما قد حدث، وأن القرار قد لا ينفذ، أو أن يتم تقليص مدته.

حل يوم الأربعاء حيث كان من المفترض أن يكون يوم وداعي، وحلت ما بعده من أيام وأسابيع، ولكن يوم الخميس الذي انتظرت، وانتظرته عائلتي، لم يأت، فاستمر الاعتقال، واستمرت وجبات الفول والبيض تتوالى، يوم لهذا ويوم لذاك.

برد كانون ودفء الفول

ما إن وطأت حدة حر الصيف وحل شهر أيلول، حتى كان هاجس حلول فصل الشتاء وموسم البرد هو الحديث الدائم والشغل الشاغل للأسرى، وخاصة بين أولئك الذين خبروا برد الشتاء في الأعوام التي سبقت، ومنهم من قضى في سجن «عوفر» شتاء نزل خلاله الثلج، ونزلت معه قساوة البرد «الذي يقطع المسمار» و«يخر في العظام» كما وصفوه، لا سيما أن سجن «عوفر» هو الأكثر برداً بين السجون، كونه مقاماً على جزء من الأراضي المغتصبة في منطقة رام الله التي تتدنى فيها درجات الحرارة كثيراً، وتصل إلى ما دون

الصفر، وتتزين بالثلج الأبيض في أغلب السنين.

بدأ الحديث عن الأغطية الشتوية «الحرامات والبطانيات»، وعما تسمح وما لا تسمح إدارة السجن بإدخاله من مفارش وملابس داخلية وخارجية شتوية، وعن الاستعدادات لتركيب الشبابيك في أماكنها، بعد أن كانت أزيلت في فصل الصيف اتقاءً للحر الشديد.

تدريجيّاً، ومع انخفاض درجات الحرارة، كانت الإجراءات تتخذ، تم توزيع «حرامين» لكل أسير مما هو مخزون لدى الأسرى، وتم توزيع ما أتيح من جاكيتات شتوية من إدارة السجن التي لا توفر عدداً منها يوازي عدد الأسرى، وتمنع بالمقابل إدخالها من قبل الأهل من خارج الأسر، فيتناوب الأسرى على ارتداء ما يتوفر منها عندما يخرجون للساحة أو عندما يخرجون للمحاكم أو زيارات الأهل. وضعت الشبابيك في أماكنها، وبدأ إدخال الملابس الشتوية، وفي خطوة جديدة تحدث للمرة الأولى بعد ضغوط كبيرة من الأسرى، زودت إدارة السجن كل غرفة بمدفأة صغيرة «روديتر من أربع أصابع»، وهي بالكاد تكفي لغرفة مساحتها أربعة أمتار مربعة، فيما مساحة الغرفة الفعلية عشرون متراً مربعاً، أي أن الغرفة تحتاج إلى خمس مدافئ من هذه الشاكلة، وهو ما جعل هذه المدافئ الصغيرة موضعاً للسخرية والتندر، وقد حصل أن قام الاسير «أبو نضال» بلف المدفأة بواسطة «حرام»، وعندما حضر السجانون وشاهدوا ما فعله، استوضحوا عن الأمر فاجابهم: «مدفأتكم بحاجة للتدفئة فغطيناها حتى لا تبرد مثلنا».

ومع دخول شهر كانون الأول واشتداد حدة البرد أكثر وأكثر، وبدء

هبوب الرياح العاتية، سمحت لنا إدارة السجن بتغطية النافذة التي تتوسط باب الغرفة بواسطة قطعة نايلون شفاف، بحيث يتاح للسجان رؤية ومراقبة ما في داخل الغرفة من خلال النايلون، أو إزاحته إذا ما دعت الحاجة، وكانت تلك النافذة -على صغر حجمها- المصدر الأكثر إزعاجاً لتسلل البرد إلينا، ولكنها أيضاً المصدر الأخير للهواء النقي بعد إغلاق النافذتين المتقابلتين في طرفي الغرفة، وكان إغلاق نافذة الباب يعني توفير الدفء بدرجة معقولة، ولكنه يعني أيضاً انعدامٍ التهوية للغرفة التي يعيش فيها عشرة أسرى، ويقضون فيها تقريباً جل وقتهم وحاجاتهم، بما في ذلك الطهي واستخدام المرحاض المقام فى إحدى زواياها، وهو ما يعني وضعنا أمام خيارين: إما إبقاء النافذة مفتوحة وتحمل ما يتسلل منها من قسوة البرد، وإما إغلاقها بالنايلون والحصول على بعض الدفء، لكن مقابل تحمل الروائح الناجمة عما نأكله من فول وحمص وبيض، وتفاعلاته المعوية، وكلا الأمرين مر.

ذيل السنة

وداع عام ميلادي واستقبال آخر جديد له معانٍ متعددة عند الكثيرين، فيه يتبادلون التهاني والأمنيات بعام أفضل وأكثر بهاءً وسعادة، وفيه يتم إجراء مراجعة للعام الذي انقضى واستذكار أبرز لحظاته وأحداثه على مختلف الصعد، بما فيها الشخصي. وفي الليلة الفاصلة بين عامين، يحتفلون كل على طريقته ووفقاً لظروفه، يسهرون ليعدوا الساعات والدقائق والثواني إلى أن ينبلج العام الجديد المليء بالأسرار التي يخبئها، وقد يكون صحيحاً أيضاً أن كل عام جديد يأتي ومعه ما هو أسوأ وأقسى مما سبقه، لكن التفاؤل والأمل يبقيان أمنية يتسلح بها الجميع كي يستطيعوا تحمل

مشاق الغد الآتي، أو ربما لبعضهم تتحقق أمنيات وآمال فعلية.

هنا في السجن، فإن ليلة رأس السنة ليست ككل الليالي، ليست ليلة عادية لدى كثيرين، وإن كانت بالتأكيد ليست مميزة بالقدر الذي يراها أو يتعامل معها من هم خارج السجن، فهي على الأقل تعني أن يوماً آخر في الأسر قد انقضى، وأن رقماً جديداً ستحمله خانة السنوات سيبدأ من اليوم التالي، وأن هذا الرقم الجديد قد يحمل معه بعض الأمنيات الصغيرة بحجم التمنيات الواقعية التي يعيشها أي أسير، لكن المؤكد لكل أسير أن سنته المنقضية كانت سيئة بما يكفي لكونه قد قضاها أو على الأقل قد قضى ذيلها في ظلام الأسر، وأنه سيستقبل رأس لاحقتها في الأسر أيضاً.

لم يرغب أي من الرفقاء التسعة في غرفتي، ولا أنا كذلك، بعمل أي شيء مميز في تلك الليلة، ولا حتى أكل شيء مميز، فكانت ليلتنا كما كل الليالي، حتى بلغت الساعة الحادية عشرة، حيث بقيت ساعة واحدة على حلول العام الجديد. بدأ البعض يتحدث كيف سيودع العام ٢٠١٦، أو كيف سيستقبل عامه الجديد ٢٠١٧. بعضهم قال سأنام حتى ينقضي العام لأصحو على عام جديد، وبعضهم استقر على أن يبدأ عامه الجديد بالمطالعة، تأكيداً على نيته المثابرة على المطالعة بشكل مكثف خلال العام الجديد. أحدهم قرر أن يدخل المرحاض في الدقائق الأخيرة ليبول على العام الذي انقضى، وآخر سرق الفكرة وطورها فقرر أن يدخل المرحاض مع بدء الدقائق الأولى للعام الجديد ليتغوط على رأس العام الذي سيأتي، إذ كان متيقناً بأنه سيقضي العام بأكمله وبضعة أعوام أخرى لاحقة وهو في الأسر. أما أنا، فقد قضيت الساعة الفاصلة بين العامين وأنا أكتب هذه السطور، ومع ولوج العام الجديد، كنت

قد وضعت هذه «الـ».

فكرت في أسرتي وكيف تنقضي عليها هذه الساعة، خاصة أننا اعتدنا خلال السنوات التي مضت أن نحتفل بهذه المناسبة بطريقة أو بأخرى، لا سيما أن الفاتح من كانون الثاني من العام يصادف أيضاً يوم مولدي، فكنا نحتفل بالمناسبتين معاً. فكرت ببعض السنوات التي قضينا فيها في مثل هذا اليوم ساعات ولحظات جميلة بين أصدقاء وأحبة، في رام الله والقدس وبيت لحم والناصرة.

لم أسترسل بالتفكير، وقررت ألا أجول كثيراً خارج السجن، فعدت سريعاً إلى حيث أنا، إلى من هم حولي، اثنان منهم سيتم اقتيادهما باكراً إلى قاعة المحكمة، أحدهما يدعى «أبو سمرة»، كانت لديه فرصة بأن تقرر المحكمة الإفراج عنه، حيث يكون قد أمضى ستة أشهر، وهي الفترة المقدرة «لعقوبته» على تهمة إلقاء الحجارة. تمنيت له الإفراج عسى أن نبدأ عامنا الجديد ببعض الأمل، خاصة أن اليوم التالي هو أيضاً موعد صدور قرار محكمة التثبيت التي كانت قد نظرت في أمر تجديد اعتقالي الإداري للمرة الرابعة، وكان من ضمن الاحتمالات أن يقضي القرار بعدم المصادقة على أمر التجديد وبالتالي الإفراج الفوري عني.

انتهيت من كتابة هذا العنوان، وعدت للكتاب الذي كنت قد بدأت قراءته منذ الصباح: «أوراق محارب الضوء» لمؤلفه الرائع باولو كويلو.

عصر اليوم الأول من السنة، حكم على «أبو سمرة» بعشرة أشهر بدلاً من ستة، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف شيقل غرامة مالية. وعصر اليوم الثاني من السنة، وصلني قرار المحكمة بتثبيت قرار التجديد

الرابع، وتقصير أمده من ثلاثة أشهر إلى شهرين، فكان رأس السنة الجديدة لا يختلف عن ذيل السنة التي سبقت.

أمي بتكره إسرائيل

من بين آلاف المعتقلين الذين غصت بهم السجون منذ هبة أكتوبر ٢٠١٥، كان عشرات وربما مئات المعتقلين «الفيسبوكيين»، أي أولئك المعتقلين على قضايا تتعلق بقيامهم بنشر آرائهم ومواقفهم أو نشر صور تعبر عنهم على صفحاتهم على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، حيث إن الاحتلال يعتبرها تحريضاً أو دعوة للعنف، ويزج بالتالي كاتبيها في الاعتقال، ويقدم لوائح اتهام بحقهم ويحاكمهم بالحبس لمدد مختلفة، وغالبية قضايا هؤلاء مدعاة للدهشة والغرابة؛ دهشة كون أجهزة الاحتلال الأمنية والمستوى السياسي باتوا يقنعون ذواتهم بأن «الفيسبوك» هو سبب رئيسي لاندلاع هبة أكتوبر وما تخللتها وتلتها من عمليات ضدهم، وأن ما يسمونه «التحريض عبر الفيسبوك»، هو أحد دوافع هذه الهبة، وعلى ذلك تم استحداث وتطوير وتوسيع عمل الوحدة الاستخباراتية الضخمة العدد والعدة والمسماة الوحدة ٨٢٠٠، وإحدى أبرز مهماتها متابعة ما ينشره الفلسطينيون على صفحاتهم على مواقع التواصل الاجتماعي وخاصة «الفيسبوك»، وباتت السجون تعجّ بضحايا عمل هذه الوحدة.

والغرابة هي صياغة وحبكة التهم المنسوبة إلى «الفيسبوكيين»، وكيفية تأويلها وتحليل معانيها ومراميها لتتفق مع نصوص «قانونية»

تستوجب المحكمة والإدانة، ومن ثم الحبس والغرامة المالية، والغرابة أيضاً أن تطال الاعتبارات القانونية وأحكام القضاء، ليس فقط كتابة «البوست» بل أيضاً مقدار ما يوضع عليه من تعليقات أو إعجابات؛ وأعداد التعليقات والإعجابات تورد في حيثيّات بنود لائحة الاتهام لتبرير فداحة التهمة، وحجم ما أدت إليه من ضرر يستوجب تشديد الحكم وفقاً لمنطق الاحتلال.

ومن بين القضايا المدهشة والمثيرة للغرابة التي اطلعت عليها، قضية الشاب محمد فرارجة من مخيم الدهيشة، الذي اعتقل وتم التحقيق معه وإحالته للمحاكمة، وصدر بحقه حكم بالسجن لمدة شهرين وغرامة مالية بقيمة ٥٥٠٠ شيقل بسبب كتابة «بوست»: «أنا وأمي بنكره إسرائيل»، وهي العبارة التي حصلت على ٣٧٥ «لايك» وفقاً لما ورد في لائحة الاتهام!، والغرابة بالقضية أن الكره والحب مشاعر أصبحت محرمة وتعد جرماً في عرف الاحتلال، وأن على الفلسطيني ألا يكره محتليه، بل ربما عليه أن يحبهم!، وبهذا، يصبح غريباً أيضاً ألا تعتقل أم الشاب، فهي وفقاً للتعليق تشاركه فى كره إسرائيل، وتباعاً، فإنه غريب أيضاً ألا يعتقل الثلاثمئة والخمسة والسبعون مستخدماً للموقع الذين أبدوا إعجابهم بما كتبه فرارجة!، فهم أيضاً معجبون بكرهه لإسرائيل، أي أنهم يشاركونه نفس المشاعر، وهذا على الأقل يستوجب التحقيق معهم لاستقصاء حقيقة مشاعرهم، ومعرفة إن كانت «لايكاتهم» لكون محمد يكره إسرائيل، أم لكون أمه تكره إسرائيل!

في وداع «الشمبر»

إيهاب مسعود، الملقب والمعروف بالـ«الشمبر»، كان علماً، شخصاً كاريزماتيّاً بمعنى الكلمة، تعرفه كافة السجون، وخاصة تلك التي تنقل بينها خلال سنوات اعتقاله الست عشرة، أو قبلها في اعتقاله الأول الذي استمر سنتين، كان الأسير الأكثر شهرة في سجن «عوفر» خاصة، حيث قضى آخر ٤ سنوات من سني اعتقاله، كان خلاله ممثلاً للجبهة الشعبية في اللجنة الوطنية العامة للسجن، التي تعنى بأمور الأسرى، وتشكل قناة الاتصال والحوار مع إدارة السجن، وعنوان الصدام الدائم معها.

كان علماً وشعلة من الحياة التي تعج بالحركة وتضج بالحيوية والنشاط الذي لا ينضب، كان لخصاله وسماته الشخصية دور في مكانته المرموقة بين كافة الأسرى، من كافة الفصائل، ذو وجه بشوش، متقد الذكاء، واسع المعرفة والاطلاع، مرح وحازم في آن، كان وجوده أو مجرد سماع صوته المميز الحاد مبعث سرور في أي قسم يحل فيه، كان يقسو على بعض الأسرى الشبان وينعتهم بصفات غير محببة، ومع ذلك، فقد كانوا يتقبلونها وكأنها كلمات إطراء ويفرحون لها، وهو بالفعل لم يسئ ولم يقصد الإساءة لأحد، بقدر ما كان ذلك أسلوبه في التربية والتعليم أو التوجيه.

اكتسب الشمبر لقبه من ميزته الشخصية الأبرز، حيث كان يتفاعل وينفعل، فيتقد وجهه بسرعة لافتة وكأنه شمبر يتقد ليضيء على من حوله ليدب فيهم الحياة، ويضيء ما حوله لتتجلي غالباً ملامح فصل جديد من المواجهة مع إدارة السجن، فالتقط أحد رفاقه تلك الميزة، وشبهه بالشمبر، وبات من يومها يعرف بهذا اللقب، حتى أن كثيراً ممن يعرفونه لا يعرفونه سوى بهذا الاسم، أو نسوا اسمه

الحقيقي. كانت إدارة السجن تحسب له ولموقفه كل حساب، وغالباً ما يظفر منها بما يريد من مطالب، أو يجترح لمطالب الأسرى حلولاً تساعد في تلبيتها أو حل أسبابها.

أنهى الشمبر سنوات أسره في الثاني عشر من شباط ٢٠١٧، وقلة هم الأسرى ذوو الأحكام العالية الذين يتحررون من سجن «عوفر»، لذا، فقد كان الإفراج عنه من هذه الزاوية أيضاً حدثاً قلما يحصل في «عوفر»، فكيف كان الحال وهو الشمبر.

لجنة خاصة كانت قد تشكلت للاحتفاء بتحرره، ووضع الترتيبات التي تليق به وبمكانته وحالته، وإعطائها ما تستحق من الفرح والبهجة. أربعة أيام قبل موعد الإفراج، انهمك كل الطباخين ومن يجيدون الطبخ في قسم ١٦ حيث قضى الشمبر فترة اعتقاله في «عوفر»، انهمكوا في إعداد وجبة غداء جماعي للقسم ولضيوف القسم، فقد حصل للمرة الأولى أن وافقت إدارة السجن على حضور ثلاثين أسيراً من قادة وممثلي الفصائل والأقسام إلى قسم محدد، كانت وجبة مناسف باللحم، أعقبتها القهوة والقطايف والهريسة، فكانت وجبة دسمة مميزة، وكان يوماً احتفاليّاً مميزاً.

في اليوم التالي، أعدت وجبة غداء في المطبخ المركزي لكافة الأسرى في السجن: دجاج وخضار مشوي، أيضاً مع صنف من الحلويات. وذهب الشمبر مع عدد من الرفاق لقسم ١٥ المجاور، قسم الوحدة الوطنية، لوداعه هناك والاحتفاء به، وتم تكريمه بشكل خاص من ممثل المعتقل وأسرى حركة فتح.

في اليوم الثالث، عند الظهر، حل الشمبر ورفاقه من مسؤولي الجبهة الشعبية وكبار السن ضيوفاً على أسرى حركة حماس،

في جلسة وداع احتفالية، وأيضاً أعدت وجبة غداء مميزة لكافة الأسرى في السجن: سمك السلمون المشوي، الذي يندر الحصول عليه، وتكفلت الجبهة الشعبية في «عوفر» بتغطية تكاليفها المالية. وفي عصر ذلك اليوم، السبت، كان الوداع التقليدي للشمبر من كافة الأسرى في القسم، وتناولوا قطعة بوظة من صنع الأسرى، وقطعة أخرى من الحلوى، بالإضافة للقهوة.

في يوم الإفراج عنه، جال الشمبر على كافة الغرف في قسمي ١٥، و١٦ مودعاً الجميع، فكان العناق وكان الفرح، وسالت الدموع في لحظات ذات مغزى، فالأعوام الستة عشر التي كانت تبدو بعيدة جدّاً عندما ابتدأ عدها، انتهت الآن، والأمل الذي تسلح به حينها، وخلال كل سنة قضاها وكل يوم، يتحقق الآن، ويتحقق بعد قليل عندما تحتضن «آسيا» فلذة كبدها، ولأنه الأمل ذاته الذي يتسلح به كل أسير، ويعيش على وقعه، فقد سالت الدموع، دموع الأمل والفرح.

حصيلة من المعرفة والإنتاج

ليس السجن مدرسة ولا جامعة، بل أكاديمية في حقول الحياة التي لا تتشابه فصولها ولا أيامها، ففي كل يوم وكل ساعة تتعلم ما هو جديد في مختلف المجالات، لكن الحيز الأرحب من وقتي استغللته في القراءة. قرأت من كتب الفكر والسياسة والأدب ما لم أقرأ خلال آخر عشر سنوات من حياتي، حيث كانت متابعة عملي الصحافي والقراءة الإلكترونية السريعة تأخذ كل وقتي. كنت على احتكاك مباشر ولصيق مع أسرى من مختلف التوجهات والمشارب، وخضت

معهم نقاشات معمقة في العديد من القضايا.

أنجزت خلال فترة اعتقالي أيضاً هذه المجموعة من الصور القلمية التي اخترت تصويرها لأعكس التجربة والوضعية التي وجدت نفسي فيها، وواقع الأسر وحياة الأسرى اليومية، وشرعت بإعداد دراسة حول «تأثير وسائل الإعلام على الأسرى في سجون الاحتلال: سجن «عوفر» نموذجاً»، لتكون دراسة من رحم معايشة الواقع والتجربة، ودربت عدداً من الأسرى على أساسيات العمل الصحافي ومهاراته وفنونه، وكانوا يحتاجون لذلك ويتوقون له.

عايشت بشكل مكثف الأسرى الشبان والفتية من الجيل الجديد، جيل هبة أكتوبر، وتعرفت عن كثب على سبل تفكيرهم وخصائص حيواتهم، خاصة أنهم من مناطق سكنية متنوعة، من الريف والمخيم والمدينة، وخاصة من مناطق رام الله وبيت لحم والخليل، حيث يخصص سجن «عوفر» لأبناء هذه المناطق، وعايشت بالطبع بعض أبناء جيلي، وما بين الجيلين، عشت واقعاً مختلفاً للأسر والمعتقلات، فمع أنني اعتقلت قبل ذلك اثنتي عشرة مرة، لكنها جميعها كانت في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، وخلال الفترة البالغة ثمانية وعشرين عاماً هي الفترة الفاصلة بين خروجي من آخر اعتقال لي في عام ١٩٨٨، واعتقالي هذا، حدثت تطورات هائلة على واقع الأسر والأسرى، مختلفة في كل شيء عما كانت عليه في ذلك الحين، وكانت مختلفة بالطبع بالنسبة لي شخصياً من نواحٍ كثيرة.

فلاشات للغلاف الأخير

آخر الأيام: رغم أنني كنت قد حصلت على قرار «جوهري» يقضي بعدم تمديد اعتقالي لمرة خامسة، لكن التوجس بقي قائماً حتى اليوم الأخير، خاصة أن ما حصل معي في التمديد الأخير كان مبعث قلق، وجعلني محط أنظار الجميع، رغم أن أغلب الأصدقاء كانوا مطمئنين وسعوا لبث الطمأنينة في نفسي.

تصرفت كما أن أمر الإفراج محسوم. دعاني حلّاق القسم لحلقة الإفراج التي لها طقوسها الخاصة، ورغم أن شعر رأسي لم يكن بحاجة لحلاقة، إلا أنه أصر على قص ولو بضعة مليمترات منه، وأزال شعر الوجه الخفيف بالخيط، وقص بضع شعيرات من حاجبي، وجهزني كما جرت العادة. أخذت حمامي الصباحي، ولبست ثياباً تليق بحفل الوداع التقليدي الذي يقام لكل أسير عشية الإفراج عنه.

عند العصر، كان الوداع من كل الأسرى في القسم، جاءوا إلى غرفة ٧ التي تعتبر كبيتي، حيث أقمت فيها معظم فترة اعتقالي، نحو عشرة من الأصدقاء من أبناء جيلي اصطفوا إلى جانبي لاستقبال المهنئين، ونحو مئة وعشرة أسرى هم باقي من في القسم يدخلون الغرفة واحداً تلو الآخر، سلام وعناق وتهنئة ورشفة قهوة وقطعة شوكولاتة ويخرجون لإتاحة المجال للمصطفين في طابور الوداع.

عند المساء، وقبيل إغلاق الغرف بساعة، وداع آخر من الرفاق والأصدقاء المقربين، يأتون لحديث وداعي وتحميل السلامات والتحايا لأهلي وأسرتي ولأسرهم وأصدقائهم بالطبع، جلسة تتضارب فيها المشاعر بين حزن على فراق أصدقاء لا أدري متى

وأين وكيف قد ألتقيهم لاحقاً، وبين فرح على لقاء سيجمعني بأهل وأحبة وأصدقاء آخرين أتوق لهم ويتشوقون لي، فتمتزج دموع الحزن بدموع الفرح المخبأ، وفي عيون المودعين، تقرأ تضارباً في مشاعرهم أيضاً؛ فهم فرحون لفرحك، وفرحون لأن أملهم يتجدد وموعد إفراجهم يضحي أقرب، وهم حزينون لفراقك ولما ستتركه من فراغ عندهم، وحزينون لأن لحظة عناقهم لأحبتهم أبعد من لحظة عناقك لأحبتك، ولبعضهم أبعد بكثير. تقطع جمود الجلسة وتبعد هذه المشاعر المتضاربة أحاديث جانبية، والتهام ما تيسر من حلويات وموالح ومشروبات باردة وساخنة، إلى أن تحين لحظة إغلاق الغرف والمغادرة الإجبارية.

ليلاً، يأتي دور الوداع لزملاء الغرفة: وجبة عشاء مميزة مُنعت من بذل أي مجهود فيها رغم أنني الطباخ الرئيسي للغرفة، وإلغاء الجلسة الثقافية المسائية واستبدالها بجلسة وداع و«ترفيهية». في جلسة الوداع، لكل منهم كلمة يتحدث فيها عني، أشعرتني كلماتهم بحجم الحب وبمكانتي لديهم، فسالت دموعي لداخلي وحزنت أكثر. بادلتهم الكلام الحسن بأحسن، فقد كنت أحبهم بالفعل. قبلتهم كما هم، وكيف هم، ولم أسع قط لجعلهم يعيشون ويتصرفون على مقاسي أو كما يحلو لي.

حان موعد «الترفيهية»، فقطع الأكل حشرجة الكلام، وأذاب الشرب جمود اللحظة، فـ«الترفيهية» هي تشكيلة من التسالي والمكسرات والبسكويت والحلويات وبعض أنواع المشروبات الغازية والعصائر، جرت العادة أن تحضر في الغرفة عشية الإفراج عن أي أسير من ذات الغرفة، وأحياناً في مناسبات خاصة مثل الأعياد الدينية والوطنية وانطلاقات الفصائل، وهي بالتالي فرصة نادرة للاستمتاع حد

الشبع بما يتيسر من «خيرات».

خلال التهام «الترفيهية» وعقبها، بدأت فقرة الغناء، أناشيد وأغان وطنية وعاطفية، مواويل وميجنا وعتابا، تتخللها نكات واستعادة ذكريات جميلة. استمر السهر والسمر وعلا صوت الغرفة، فاغتاظ السجان وجاء مرة واثنتين متوعداً بعقاب جميع من في الغرفة. لم يستجب أحد، واستمر الصخب إلى أن فترت الهمم تدريجيّاً، وتحول الصوت إلى همس، وذبلت العيون واستراحت.

صباح اليوم الموعود: حمّام الإفراج ليس كالاستحمام اليومي الاعتيادي؛ له رونق خاص، مزيد من الصابون والماء الساخن، وكأني أزيل ما علق من آثار السجن، أعقبته حلاقة ذقن بتأنٍّ ودقة، ورشة عطر تفضل بها علي أحد الأصدقاء.

شاركت الزملاء إفطارهم ببضعة لقيمات تعينني على الصمود لحين الخروج، حيث تنتظرني -كما كانت قد أخبرتني زوجتي- وجبة شهية وغداء جماعي في القاعة التي أعدت لاستقبالي. ارتديت الملابس التي قررت الخروج بها، وهي ملابس مستهلكة، حيث جرت العادة أن يترك الأسير المغادر كل ملابسه لمن يبقون خلفه في الأسر، خاصة أن الأسرى في سجن «عوفر» يحتاجون للكثير من الملابس بسبب كثرة القادمين الجدد وحاجتهم لها إلى أن يتمكن أهلهم بعد فترة طويلة من إدخال ملابس لهم.

حان وقت عدد الظهيرة، وهو الوقت الذي يتم فيه عادة إخراج الأسرى المفرج عنهم من القسم. بدأ العدد وانتهى وأعيد فتح الأبواب للفورة. تمشيت مع الأصدقاء وتبادلنا أطراف الحديث. طال الزمن، وتعدت الساعة إشارة الوقت الأقصى الذي يتم فيه

إبلاغ المفرج عنهم وإخراجهم من القسم. دارت في داخلي تساؤلات صامتة، لكنها لم تصل درجة القلق، تواصلت مع زوجتي التي عبرت عن توجسها وتفاؤلها في ذات الوقت، وأكدت أن لا جديد وصل المحامي، و.. «نبقى على اتصال».

بتأخير نحو ساعة ونصف الساعة عن الوقت المفترض، علا صوت مساعد ممثل القسم «الازجان»: يلا أبو صفد، هاي أجا اسمك «شحرور»، أي إفراج. لملمت نفسي وأشيائي التي سأخرجها معي، وملابس السجن الرسمية «الشاباص» التي يتوجب تسليمها للإدارة قبل الخروج، تواصلت مجدداً مع زوجتي وطمأنتها، وأخبرتها بتوقعي بأن أكون خارج بوابة السجن عند الرابعة عصراً، حيث تستغرق إجراءات الإفراج نحو ساعتين إلى ثلاث. بعدها كان العناق الأخير للرفاق ومن تواجد من المجاهدين. خرجت من القسم ملوحاً بشارة النصر والوداع، وسرقت بضع دقائق للتسليم من خلف الشبك على الزملاء في قسم ١٥ المجاور، وغادرت القسمين.

إجراءات الإفراج: خرجت بعد أن تم وضع القيود في يدي برفقة سجانين كما جرت العادة، أحدهما أمامي والآخر خلفي، توجهنا إلى قسم ١١ حيث هناك أسير سيتم الإفراج عنه، توجهنا بعد أن انضم إلينا إلى «الامتناه»، وهي زنزانة الانتظار المؤقت لبدء إجراءات الإفراج، وجدنا فيها أسيرين آخرين سيتم الإفراج عنهما أيضاً. بدأت الإجراءات باستلام ملابس «الشاباص» منا، ومن ثم تسليمنا ما كان لنا من أمانات باستثناء بطاقة الهوية والأموال، حيث يتم إرجاء تسليمها لمرحلة لاحقة. جاء دور التشخيص، تم إدخالي لغرفة صغيرة كان فيها مدير السجن، ومساعدة برتبة كبيرة أيضاً، إذ لا يتم الإفراج دون حضور مدير السجن شخصيّاً للتأكد بذاته

من سلامة إجراءات التشخيص: اسمك الرباعي، اسم أمك، رقم هويتك، تاريخ اعتقالك، تاريخ دخولك لسجن «عوفر».. وبضعة أسئلة أخرى يراها ضرورية للتحقق من شخصيتك، لكن العلامة الحاسمة هي البصمة الإلكترونية للإبهام التي تكون قد أخذت عند الدخول إلى السجن، وهي الآن التي تحسم إذا ما كنت أنت أنت، أم أنت غيرك.

انتهت الإجراءات وتمت إعادتنا إلى «الامتناه» لانتظار قدوم وسيلة النقل «البوسطة»، والضابط المسؤول عن مرافقتنا من السجن إلى بوابة الخروج والإفراج لإتمام ما تبقى من إجراءات هناك. طال الانتظار أكثر من المعتاد. بدأنا نحتج وهم يطلبون منا الصبر والانتظار دون أن نعلم لماذا، إلى أن حانت اللحظة أخيراً وتم اقتيادنا إلى الحافلة وتشخيصنا مجدداً قبل الدخول إليها. ومرة أخرى طال الانتظار وبقينا في الحافلة مدة طويلة دون مبرر، لكن أخيراً تحركت الحافلة باتجاه بوابة مجمع «عوفر» الشمالية المؤدية إلى رام الله، وعند وصولنا إليها، توقفت الحافلة على مسافة منها، وعرفنا سبب كل التأخر الذي حصل؛ حيث كان عشرات الصحافيين وعدسات الكاميرات بالانتظار، مع أفراد أسرتي وعائلتي وأصدقائي وأغلب زملائي في الأمانة العامة لنقابة الصحافيين، وبعض القنوات تنقل الحدث عبر بث مباشر، منها فلسطين والميادين وفلسطين اليوم والجزيرة.

جاءني ضابط «الإفراج» ليسأل عن موقعي ومكانتي ولماذا كل هذا الحشد والصحافة بانتظاري. أوضحت له الأمر وفسرت له الأسباب، ولكن بدا أنه لن يأخذ الموضوع على عاتقه ويخلي سبيلنا هنا، إذ إن لديه خياراً بديلاً بأن يقوم بنقلنا للإفراج عنا عبر حاجز

آخر، وفي كلتا الحالتين، فإن هذا يستوجب التنسيق مع دورية عسكرية، وبالفعل، حضر جيب عسكري تابع لوحدات ما يسمى «حرس الحدود»، ويبدو أنهم أجروا تقييماً ميدانيّاً للوضع، وربما اتصالات وبحثاً، إلى أن تقرر إخلاء سبيلنا هنا بحضور ومراقبة الدورية العسكرية. تم إجراء تشخيص أخير، وتسليمنا ما تبقى من الأمانات، وبطاقة الهوية الشخصية، والورقة الرسمية للإفراج.

لحظة الانطلاق: انطلقنا نحن الأربعة، وكل منا تتجه أنظاره بحثاً عن مستقبليه. فتحت البوابة الكهربائية الكبيرة، ولكن قبل أن يكتمل فتحها، كنا قد سارعنا الخطى تلقائيّاً نحو الزاوية التي فتحت، ونحو الأيادي المفتوحة للاحتضان والعناق: ابنتي مرح، تلتها صغيرتي غزل، وزوجتي مارلين. تلاحمنا أربعتنا ككتلة بشرية لبعض الوقت. علا التصفيق والصخب إلى أن وجدت نفسي بين جموع المستقبلين، في أحضان الأهل والأحبة، قبل وعناق حار ودموع فرح، شعرت أنني لا أشعر، وكأنني مغترب في عالم ليس لي.

بدأت حديثي إلى ميكروفونات الصحافة وعدسات الكاميرات وعشرات الأسئلة التي انهالت علي. استعدت تركيزي بعض الشيء. تحدثت عن واقع الأسر بلسان آلاف الأسرى الذين تركتهم خلفي. تحدثت عن الإضراب عن الطعام الذي سيكون في السابع عشر من نيسان المقبل والمطالب المعيشية والإنسانية التي ينبغي تحقيقها. تحدثت عن زملائي الأسرى الصحافيين الستة والعشرين الذين تركتهم خلفي في الأسر، وعن مسعى الاحتلال لكتم صوت الصحافة الحرة التي تعريه وتفضح جرائمه. تحدثت عن اعتقالي الإداري لعشرة شهور دون أن أعرف سبباً لهذا الاعتقال طوال فترة وجودي وخلال التحقيق والمحاكم الصورية العشر التي خضعت لها. وشبهت

ما حصل معي بشاهد المحكمة الذي سيق للشهادة وهو لا يعرف شيئاً في أحد مشاهد المسرحية المصرية الهزلية «شاهد ما شفش حاجة»، وقلت إنني الأسير الذي أنهى فترة اعتقاله دون أن يعرف حاجة، أي دون أن أعرف سبباً لاعتقالي، وهو ما كان بالفعل.

سلفي: انتهى السلام والعناق والحديث إلى الصحافة، وقبل أن أصعد إلى السيارة التي ستقلني إلى قاعة الاستقبال، حيث حشد ممن لم يأتوا هنا لاستقبالي هم بانتظاري هناك، ألقيت نظرة إلى الخلف، إلى السجن حيث كنت، إلى حافلة النقل والسجانين الذين كانوا لا يزالون مكانهم، وإلى السيارة العسكرية التي لم تبرح مكانها. قبل دقائق، كنت هناك لا أزال في قبضتهم، والآن أنا في الجهة المعاكسة أنظر إليهم، تخيلت نفسي كأنني ما زلت بينهم بطريقة أشبه بالتصوير «السلفي».

أسير محرر: منذ الآن، سيطلق عليّ لقب «أسير محرر»، كما حال كل من يتم الإفراج عنهم، وإلى أن يتم نسيان كونهم كانوا أسرى.

هل هذا صحيح؟

هل الأسرى في السجون مقيدون ومسلوبو الحرية؟

وهل من يعيشون خارج الأسر أحرار؟

لا كبيرة وقاطعة؛ فالشعب الفلسطيني كله مسلوب الحرية، من يعيش منه في المنافي والشتات مكبل بقيود الأنظمة والأمكنة التي يعيش فيها، ومن يعيش منه في الأراضي المحتلة مكبل بقيود الاحتلال، ومن يعيش منه في السجون أيضاً مغلول بقيود الاحتلال، والفوارق بين حرية من هم خارج السجن ومن هم داخله، هي فوارق هامشية

تتعلق بقشور ومظاهر شكلية يخالها البعض حرية، فيما الحرية بالمضمون والعمق قد تميل كفتها لصالح من هم في الأسر.